

مقدمة

صَفْوَةُ الْعُرْفَانِ

فِي

نَفْسِ الْقُرْآنِ

تأليف



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مُطَبَّعَةٌ الشَّعْبِ لِنَشَارِعِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِضَرْ

شوال سنة ١٣٢١

(RECAP)

1273

972

2

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن من فيض رحمته ، وجعله هدىً للسالكين الى حضرة ، ونوراً للأرواح تسبح في سبحات بهجته . وريعاً للقلوب تسرح في روضته ، وشفاء للصدور تستشفى بحكمته ، وزماماً للفكر في شطحه وجوالة ، وقياداً للعقل في جمحته وصولته ، وظهوراً للعلم من عتوه وشرته ، وملاكاً للعالم في خطته ، ومحاراً للمفكر في حيرته ، ومناصاً للفيلسوف من ورطته ، ودستوراً للحاكم في حكومته ، ونظاماً للمحكوم في مهنته ، وحياة للعالم برمته . (أحمده) حمد مقر بالعجز عن شكر نعمته ، معترف بالتقصير عن القيام بواجب عبوديته ، (وأصلي وأسلم) على صفوة خليقته ، وتمة إبداعه في صنعته ، وجمال الكون وزهرته ، وكمال الخلق وخلاصته ، وترجمان الحق وخليفته ، ورسوله الى العالمين بكلمته ، (محمد) نور الوجود وخيرته ، وعلى آله وصحابه ، وحزبه وعترة ، الى يوم الدين آمين

(اما بعد) فلا يخفى على مسلم من أى طبقة كان أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم نوراً وهدى لخير أمة أخرجت للناس وهي الامة الاسلامية ، وان هذه الامة قبل ان يجيئها هذا الكتاب الكريم كانت قبائل متشتتة ، لا تجمعهم صلة دينية ، ولا مصلحة اقتصادية ، ولا تضمهم رابطة سياسية ، شغلهم الحروب والغارات ، وديدهم توارث العداوات ، ان نظرتهم من وجهة اجتماعية وجدتهم على أبسط درجات الاجتماع الانساني : قبائل متبدية ترحل من محلة الى أخرى طلباً للمراعى الحصبة وارتياحاً للمياه العذبة ، وهم من التفاصيل والاستقلال بحيث تتقد بينهم نيران الحروب عشرات من السنين من جراء سبق حصان . او خيانة في رهان . وان واجهتهم من جهة

اقتصادية رأيهم على أدنى الحالات منها : جلُّ ما لهم الابل والغنم يتقلون بها من مرعى الى آخر يتغذون من لحومها وألبانها ويتدثرون وبارها وأصوافها لا يعرفون التجارة الا اسما ولا يفهمون التعاوض الا فيما بين أيديهم من حاجات الحياة الضرورية، اللهم الا قليلا من رجالهم الذين كانوا يحملون بعض السلع العربية من مكة والطائف ويثرب الى بعض قرى الشام واليمن فيجتلبون بدلها من اشياء تلك البلدان حليا وأقمشة وانواعاً مما يقتضيه ترف الحياة المدنية .

أما من عداهم فكانوا على مانصف من خشونة الملبس والمسكن . وجشوبة الحال والمال ولو شارفهم من حيثة علمية لرأيهم على أبسط ما يتصور من حالات الجهالة : لم يهتموا بتعلم القراءة والكتابة ولم يلتفتوا الى ما يبعد بهم عن العلم بالمحسوسات التي بين أيديهم لم يؤثر عنهم أنهم عرفوا فنا من الفنون ، او برزوا في فرع من افرع المعارف الانسانية ، اللهم الا الشعر فلقد كانت لهم فيه ملكة عالية ، صقلتها لهم طبيعة بلادهم الطيبة الهواء الصاحية السماء . ولكنك لو استعرضته لعقلك لما رأيت فيه من جهة الخيال الذي هو روح الشعر وحياته كبير شئ فما هو الا تشبيهات بالمحسوسات ، وإفادات الى المجسمات وحكم أفادتها التجارب . وأكسبتها للشيوخ المصائب ، أما ما يطير بالنفس من الشعر في آفاق الاحلام ، ويجول بها من عالم المعاني في حدائق ذات افنان ، ويعاطيها من رحيق الخواطر والاماني جرجا ذات معان فليس في الشعر العربي منه شئ الا في كلام المولدين بعد ظهور الاسلام وتلاؤاؤ مدنيته الزاهرة في آفاق المعمور . أما ما يأخذ بنفوسنا عجاباً وكباراً للشعر العربي القديم اليوم فهو عراقة في العربية ، ونعمته البدوية ، وجزالته اللغوية ليس غير . ثم لو استعرضت حالتهم من وجهة صناعية لرأيهم منها بالمكانة الدنيا . وماذا ترجى من الصناعة في قوم بيوتهم الشعر لا يكادون يسكنون الى جناب حتى يزعمهم الجذب الى جناب آخر . اللهم الا اهل مكة والطائف ويثرب فقد كان لهم منها ما يقيم بعضاً من حاجياتهم الضرورية ولكنهم من جهة عمومية يحتاجون لجلب ما يلزمهم من الشام واليمن في كل حين

ولو لحظتهم من جهة سياسية لما وجدت لهم أدنى علاقة بالبلاد الخارجية من حيث اتحاد واتفاق ، او عهد وميثاق ، لا لأمر غير كونها قليلة الاهمية في نظر الامم جمعاء وليس لها من الشؤون ما يجعل لها وزناً في ميزان السياسة العام قال المسيو (جول لابوم) في مقدمة

الفهرست التحليلي الذي وضعه للقرآن الكريم باللغة الفرنسية ما يأتى ^(١) (ومع هذا كله كان هنالك ركن من اركان الارض لم تصبه لقحة من هذه الحركة - يريد الاضطرابات السياسية التي امت بالعلم في القرن السادس - ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الامم التي كان يقال انها متمدنة ، ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في اوروبا الا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللفظ الا في غاية الضعف والضالة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تكن تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة اخبار الانتصارات او الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطورة القسطنطينية تبعية اسمية او رفع نهر تلك التبعية الاسمية عنها ، على ان ذلك الوادى الاخير كان يهيم بلاد العرب جداً لأن ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لهافيه ابناء استعمروا الشاطي الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين وما يشبه المسابير الدينية فلها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماماً الا بعد ان انجلي عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حيث استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم ، اما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة، اما الجهة الشمالية من افريقيا التي اغاروا عليها بعد مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفندالين فكانوا لا يحامون بوجودها » انتهى

(١) هنا يحسن بنا ان ننبه قارئنا الى هذه المسئلة وهي : اننا كثيراً ما نستشهد في هذه المقدمة بأقوال بعض العلماء الاجانب ، لا اعتزازاً بهم ، أو اطراء لآرائهم ، أو اتحاداً لهم أعلاماً للدين ، بل غرضنا ان يكون كلامنا أبلغ في الحججة وألصق بمقاتل الخصم المعاند . فان حجة الذي يستشهد بعده فيشهد له صاغراً ، أدع من حجة الذي يستشهد بأخيه أو ابن عمه . وعلى هذا الاسلوب جرى أسلافنا فكل التفاسير وكل كتب السيرة المحمدية مستشهدة بأقوال المشركين وغيرهم ممن شهدوا للقرآن بالاعجاز والبلاغة والحكمة . هذا ما نود أن يعرفه كل من يلاحظ علينا كثرة استشهادنا بأقوال الاجانب .

هكذا كان حال سكان الجهات الوسطى والحجاز من الاستقلال وعدم العلاقة بالامم الخارجية . أما من تطرف منهم في الحدود الشمالية والشرقية فقد وقعوا تحت سلطة الامم المجاورة لهم قال (جول لا بوم) المتقدم ذكره نقلا عن المسيو (كوسان دو پرسو قال) في كتابه تاريخ العرب ما يأتي : « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفراسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم فكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه » انتهى

هذا كان شأن هذه الامة من الجهات السياسية والصناعية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو شأن كانت عليه من عهد تكونها الى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم اليها ، فلم تتغير عنه في قرن من القرون ، ولم تتحول عنه في جيل من الاجيال ، وها هو تاريخها اصدق شاهد

نزل القرآن الى هذه الامة بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تلبث الا سنين قلائل حتى رأيناها نهضت نهضة الاسد تتلأأ حياة ونوراً ، وتجلى أخلاقاً وشعوراً ، ثم جالت في العالم جولة القوي العادل ، وصالت صولة القادر العاقل ، واذا بها أمة الامم ، وصاحبة العلم ، وربة السيف والقلم ، وكاشفة الغموم والنعيم . وجالية الظلم والظلم . بل محمية الرمم . بأى واسطة حصل . كل هذا التغير الفجائي الذي أدهش العالمين ، وبهر الناس أجمعين ؟ بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي أوحى اليه هذا القرآن فجعله دستوراً لنفسه وأمته ، واماماً لأموره وأمور رعيته ، فكان من هذا الامر ما كان مما لوأخفيننا الاقلام ، وأجهدنا الافهام . لعجزنا عن وصف بعضه ، فما بالك بكلاه ؟

هذه الامة التي عرفت مبدأها ووقفت على كنه خلافتها في الارض ، والتي لم يزل تاريخها لليوم زهرة التواريخ وزينة المسكاتب ، وآثارها في القلوب واليئون أكبر الآثار وأعظم المشاهد ، حيت بالقرآن وتحركت ، وبه أبصرت وأدركت ، وبه تهذبت وتحلقت ، وبه التأممت واجتمعت ، وبه تضافرت وتساعدت ، وبه صلت وأخبتت ، وبه صامت

وركمت ، وبه حجت واعتمرت ، وبه قامت ونهضت ، وبه حاربت وسالمت ، وبه عاهدت وناقضت ، وبه خالفت وناذرت ، وبه بحثت وتعلمت ، وبه دوت وألفت ، وبه هدمت وبنيت ، وإن اردت التعبير بلسان هذا الجيل فقل : وبه ترقى وتمدنت ، وبلغت ما بلغت إذا كان الامر كذلك فالقرآن روح الامة وحياتها ، وبه وجودها وقوامها. فأين نحن اليوم من هذا القرآن ، وما الذى حال بيننا وبينه من زمان ؟

يصيح صائح : تأخر المسلمون ، تقهر الموحدون ، غلب المتدينون ، أسر المصلون الصائمون ! وينوح نائح : ذهبت الاخلاق ، فترت الهمم ، ماتت العزائم ، طاشت الاحلام ، كسدت العقول ، تراخت الروابط ، ثلثت العواطف ، ويندب نادب : ضاعت الامة . كل المرشدون ، يش الاطباء النطاسيون ، قيط الراجون المشفقون ، ذهب الدين . ذهب الدين ! والامة بين هذا وذاك تنالم ولا تعرف الدواء وتئن ولا تهتدي لمواقع الداء ، تتحرك ولكن بغير نظام ، وتحس ولكن بغير روية ، وتنطق ولكن بغير صواب ، وتنظر ولكن بغير نور ، وتطلب ولكن بغير عقل ، وتشكو ولكن بغير طبيب ، وتسير ولكن على غير هدى ! ما هذا الخطب الجلل ، ما هذا الحادث الكبار ، ما هذا الشأن العجيب ؟ ما الذى أحال هذه الامة الى هذا الحضيض ، ما الذى أنزلها الى هذا الدرك ، ما الذى شككها فى حياتها ، ما الذى أياسها من ذاتها ، بعد ان كانت كيت وكيت مما لو اردت وصفه لنضب الخيال على سمته ، وغاض بحر الشعر على غزارة مادته

لم تنظر ولا تبصر ، لم تشعر ولا تعقل ، لم تحس ولا تحفظ ، لم تقول ولا تفعل ، لم تقوم ولا تثبت ؟ ماذا سلُب من مواهبها ، ماذا ضاع من سلكاتها ، ماذا اختل من تركيبها ، ماذا اضطرب من أجزائها ، ماذا فقد من عناصرها ، ماذا غاب من مقوماتها ، ماذا فسد من كيانها ؟

ان كنت تعجب من ارتكاس امنك الى هذه الحال بعد أن كانت سيدة الامم ، بل محمية الرمم ، فانا أعجب من عجبك ليس الا ، اما الامة فلا عجب من تأخرها وتقهرها ، فاتها لم تتبع فى ذلك الا السنة الطبيعية « ولن تجد لسنة الله تبديلا » وكيف تقوم بغير قرآنها وتحيا بدون روحها ؟

أنت تعرف أن منزلة القرآن من هذه الامة ومكانته من حياتها هي ما وصفت لك قبل قليل من الاسطر ، فكيف تفلح بدونه ، أو تنتعش من وهدتها بشئ خلافه ؟
 لملك تقول وكيف حيت وتحيا الامم الاخرى وقامت على قطبها بدونه ؟ نقول .
 ان لكل حياة اجتماعية سيباً أصلياً ، ولكل امة روحاً خاصة بها تغار عليها ، وتموت دفاعاً عنها ، وامتك هذه سبب حياتها القرآن وروحها الاسلام ، فكيف يمكن ان تحيا بدونها ، او تساوي الامم وهي من الانقطاع عنها على ما ترى من خاصتها وعامتها

القرآن كما كان عند آبائنا الاولين دستور الشخص الواحد في جميع اموره . يأخذ نفسه بآدابه ، ويحيي فؤاده بآياته ، ويوقظ عواطفه بترغيبه ، ويسكن جمحاته بترهييه ، ويرتفع به نحو خالقه ، ويعامل الناس على موجب ، كان كذلك للامة في مجموعها ، فنه أخذت قوانينها ، وعليه قاست عاداتها ، وبه قامت على قطبها ، وبنفحة جرت في مدينتها ، وخلاصة القول انه كان بالنسبة للفرد حياة فؤاده ومادة شعوره ، وكان بالنسبة للامة روحها الاجتماعية ، وحافظتها الرئيسية . فآين نحن من ذلك اليوم

انا جعلنا قراءة القرآن لمحض التبرك في المنازل ، او لاستجلاب الرحمت في مقاصير المقابر ، او للتخزن به في سهرات المآتم ، لاحظ لنا منه الاتريد الكلمات ، وسرد الصفحات ، أو سماع الاصوات ، والاهتزاز للنغمات . أما السبح في معانيه العالية ، واستشراف مغازيه الغالية ، والوقوف على أسرارده وحقائقه التي احيت آباءنا من القدم ، وجعلت منهم خير الامم ، فلا حظ لنا منه اليوم ، وقد استوى في ذلك الخاصة والعامة . كاننا نود ان نحيا بغير روح ، او نحكي الامم بغير رابطة

القرآن الكريم كتاب الهى ، ووحى سماوى ، نزل به الروح الامين ، على قلب خاتم النبيين ، وامام المرسلين ، ليحيي به قلوباً أماتها الشهوات ، وينقذ من الخيرة عقولا سممتها الشكوك والشبهات ، ويحل من الاغلال افكارا قيدتها الخرافات وسجنها التخرصات ، ويسترد للنفوس حقوقاً اغتصبها القادات ، وسلها السادات ، ويقيم به دولة الكمالات . وصرح المكرمات ، ويهدم به عروشاً اقامها الاقوياء على أشلاء الضعفاء ، ويجدع به انوفاً شمخت بها الجاهلية الجهلاء ، وابطرتها النماء ، ويعدل به عوج الحكماء وأود العلماء ، ويفتح به للمدارك

أبو أسدّها الكهان . من سدنة البطلان ، ويكشف للاذهان . به حقائق العلم وطرائق العرفان ، ويسلك بالارواح به مسالك الايمان ، المستند على بدائه الحس والعيان . هذه بعض وظيفة القرآن الشريف التي أداها لبني الانسان ، كما شهد به أعداء القرآن ، بل وأعداء الاديان . فإين نحن من فهم هذه الاسرار ، والاشراف على ما أودعت آياته من الانوار ، وما ضمنت من الحقائق الكبار ، والمعارف الغزار ؟

هذا دواء جاء للافراد والامم ، وإكسير نزل من السماء ليعث لهمم ، بل ويحيي الرمم ، وقد طبق على المرضى فأجاب . وجاء بالعجب العجاب ، فما بالنا لا نطبقه على أنفسنا ونحن ندعى النسبة اليه ، والتعويل عليه ؟

أليس من اكبر الاسباب في ذلك اننا لا نفهم مراميه العالية ، ومغازيه السامية من جرّاء العجمة التي طرأت على لغتنا لاختلاطنا بالامم جيلا بعد جيل . وقيلا بعد قيلول ؟

نعم هو ذلك وأضف اليه تساهل بعض العلماء في مسألة قراءته بغير تدبر فجرى الناس على ذلك قرونا كثيرة ، لا يحفلون بما غاب عنهم من معانيه ، حتى وصل الامر الى ما ترى اليوم : يقرؤه الحافظ من اوله الى اخره وهو لا يفهم منه سطرّاً واحداً بل قد لا يكلف نفسه فهم شيء منه طول حياته . هذا بالنسبة للحافظ . اما العامة فأمرهم أشدّو امرئ ، فهم لا يقرءونه ولا يتدبرونه ، ولا يحفظون منه الا سوراً صغيرة يتلونّها في الصلاة محرفة ولا يدركون لها معنى ، كأنهم يصلون بمحض الحروف والحركات أما الخاصة فكثير منهم يتلونّه في المصاحف ويفهمون منه شيئاً بالقرائن فقط ، فهما مضطربا لمجيء ألفاظ في الآيات الكريمة تلجّهم للبحث في القاموس عنها وفي ذلك من المشقة ما يحمل القارئ على الكسل راضياً بما أمكنه تحصيله بقرينته ، لانه لو استشار القاموس لكل لفظة يجهل حقيقةها لما استطاع ان يطالع في الساعة عشرّاً واحداً وهو يريد أن يكمل ورده وهو في العادة جزء او نصف جزء . ولو فرضنا القارئ فقيهاً في اللغة وأدرك معاني الكلمات كلها فلا يستطيع ان يفهم القرآن على حقيقته اصلاً الا بالمامه باسباب نزول الآيات الكريمة ، فان كثيراً منها نزل منجماً على حسب الاحوال والوقائع فمن لم يعرف الحادثة التي نزلت من أجلها الآية او الآيات لا يذوق المعنى ذوقاً يطمئن له قلبه ويثلج به صدره

روى الجلال السيوطي رحمه الله تعالى عن الامام ابن دقيق العيد رحمه الله انه قال : « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. » ونقل عن ابن تيمية رحمه الله انه قال « معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » قال الجلال السيوطي عقب هذا : « وقد اشكل على جماعة من السلف معاني آيات حتى وقفوا على اسباب نزولها فزال عنهم الاشكال » اهـ

واذا كان هذا حاصلًا بالنسبة للسلف القريبين من عهد النبوة والوحي فما بالناس ونحن ونحن في القرن الرابع عشر ؟

هذه الحاجة الشديدة من الامة بعثت فينا روح الافدام لوضع تفسير للقرآن الكريم مستمد من كتب التفسير المعتبرة ، لا باللفظ ولكن بالمعنى الحقيقي لنتمكن من وضع المعنى في ابسط وأرق القوالب العربية المصرية التي اعتادها الناس وصارت ملكة فيهم ، بشرط اننا لم نضع من فكرنا الخاص في المعنى الجوهرى للآيات شيئاً ، لانا رأينا بالاختبار ان سلفنا الصالح قد بلغ من ذوق المعاني القرآنية والسبح في مغازيها الصميمة الغاية القصوى . اما الذى لنا في هذا الكتاب ان شاء الله مما نعدّه ثمرة لاجتهادنا فهو :

اولاً — مقدمة كبيرة فيها تاريخ القرآن الكريم وكيفية نزوله وتعدد قراءاته وكيفية حفظه وترتيبه واستنساخه واستلقات القاري لمعجزته العلمية الكبرى التي تشهد له بالصرامة الثامة بانه كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، واقامة الادلة الفلسفية على حفظه من التبديل والتحريف ونقل شهادات كبار رجال العلم الاجانب على ذلك وشهادة بعض اكابر الفلاسفة الاوربيين الذي يمتقدون أنه كتاب سماوي وسبب عقيدتهم هذه مع انهم لا يعرفون العربية ولا يدركون اعجازه من جهة البلاغة ، ويسبق ذلك فذلك في فلسفة الاديان وما آل الناس اليه في هذا العصر من جهة الدين والى أي غاية هم مسوقون

(ثانياً) حل الالفاظ اللغوية حلاً لا يدع حاجة في نفس القارئ الى المزيد ، وقصدنا بذلك أن يكون لقراء القرآن الكريم من كتابهم السماوى مادة لغوية كريمة يستمدون منها عقائل الالفاظ وكرائم الكلم في أجمل الكلام وأعلاه مقاماً وهو الكلام الالهي (ثالثاً) الاشارة عقب الآيات الى أسباب نزولها والحادثة التي تقدمتها، وبما أن نزول

القرآن عقب الحوادث كان القصد منه تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين، وهذا لا يتم الا بالدعوة الى سبيل النظام الاجتماعى والكمال العمرانى، او الى أصول مكارم الاخلاق وتهذيب النفس ، فسنشير ان شاء الله عقب بعض الحوادث الاجتماعية الكبرى وقوانين التهذيب الكلية الى ما يقابلها من العلوم العمرانية الحديثة وعلم النفس الجديد ليتجلى لقارئ القرآن اعجازه العلمى واشتماله على أصول العلوم العالية وسبقه العالم أجمع الى تقرير الحقائق العمرانية والفلسفية الكبرى

(رابعاً) الاشارة الى الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وبيان أسباب ذلك وحكاية الواقعة التى استلزمت النسخ ، وذلك عقب تفسيرها في محلها

(خامساً) سيكون ان شاء الله فيه جدول يبين الآيات الكريمة التى فرضت فيها الفرائض علينا ليعرف كل مسلم امهات الاصول الفقهية من كتاب الله تعالى

(سادساً) سيكون فيه ان شاء الله فهرست كبير ذو فائدة لا تُقَدَّر وذلك انه يريك مواضع الآيات الواردة في كل موضوع تريد استيفاء البحث فيما قاله الله فيه بمعنى انه يدلك

على موضع كل الآيات التى وردت مثلاً في (الالهيات) او في (النبي عليه الصلاة والسلام) او في (الصلاة) او في (الاخلاق) او في اى موضوع تريده من مواضع الكتاب الشريف ،

(سابعاً) نقل الروايات الواردة في اختلاف القراءات لكل آية من الآيات الكريمة . هذه مزاياسبع في كتابنا لم يحوها كلها كتاب قط ولا تيسر بسهولة للمؤمنين الذين يريدون

ان يبلوا شوق قلوبهم بمعرفتها ويحبون أن يروها مجتمعة سهلة المرام غير مشتتة في أجزاء الكتب الكبيرة .

ترتيب فصول هذه المقدمة

نحن بايرادنا هذه المقدمة لا نقصد الا غرضاً واحداً ، وهو بذل الوسع في تصوير بعض الآثار الاجتماعية والخلقية والعقلية التى حدثت في العالم بواسطة القرآن في الماضى ، وما نتمتع به منها الآن ، وما هى أهل له في المستقبل من الحوادث الكبرى ، والامور الجسام . هذا لا شك مطلب صعب المرام لمن يريد أن يؤسسه على القواعد العلمية والعملية

العصرية ، ويدعمه بدعائم المباحث الجديدة الفلسفية ، فقد أصبح العلم الاجتماعي بفضل الجهود التي بذلت في تأسيسه في القرن الماضي من العلوم البعيدة الاكتاف ، المترامية المناحي ، الكثيرة التشعبات والتفرعات ، الجملة العلاقات والمناسبات بغيرها من المعلومات ، لا غرو فهو ثمرة جميع العلوم الكونية ، والقمة الباذخة التي انتهت اليها العقول القوية . فتحديد مركز أكبر مؤثر من مؤثرات العمران وهو القرآن ، لا يقتضى فقط ان ندرسه في ذاته من وجوه اعجازه وحكمته وبيانه وتأثيره على العقول والعواطف ، ولا ان نشرح حال الامة التي نشأ فيها ونزل اليها من قبله ومن بعده ، ولا ان نشير الى حال الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع ما يستدعيه مقامه العالى من الكمالات الصورية والمعنوية . تلك المباحث سنسلم بها ان شاء الله كلها ، ولكنها ليست النقطة التي نرمي اليها ، ونغنى النفس ببلوغها . وانما النقطة التي نرجو التوفيق للوصول اليها بهذه المقدمة هي درس تلك الآثار الكبرى ، وفهم تلك الحوادث العظيمة على الطريقة الناقمة لغلة النفس ، الشافية لرئيس الصدر ، الكاشطة لغلف الشكوك ، الماحية لأدران الشبه ، الآخذة بالقواد عن متاهات الحيرة ومحارات الوحشة ، الفاتحة للروح منفذاً الى عالمها العالى لتبل منه أوام الشوق وتستجلي به مناظر الكمال ، ومظاهر القدس والجلال ، في عالم العلى والجمال .

هذا مطلب عزيز المنال ، بعيد المجال ، نرجو الله أن يعيننا عليه بواسع رحمته ، وجيل فضله ومنته ، انه واسع العطاء ، سميع الدعاء .

هذا الغرض الذي وضعناه نصب أعيننا لا ينال بوسائل البحث المعروفة واسبابه المألوفة ، بل لا بد له من طرق جديدة ، ومناهج مبتكرة ، توصلنا بمعونة الله الى ما تصدينا له من أمثل السبل وأقومها ، ونحن آمنون العثار ، واثقون بنيل الاوطار . لذلك نرانا مسوقين لان نحاول درس موضوعنا على الطريقة العملية التي يدرس بها العالم النباتي مثلاً كيفية تأثير الاشعة الشمسية على المادة الخضراء لاوراق الاشجار ، وضرورة تلك المادة في النماء والازهار ، وكما يدرس الخلايا التنفسية في تلك الاوراق ويرى كيف تتسرب ذرات الاوكسيجين وجزيئات حمض الكربونيك منها الى أجزاء النبات فتكوّن له السق والاعصان والأزهار والثمار ، علي اختلافها في الالوان والحجوم ، والاشكال والطعوم .

نريد ان ندرس ماتصدينا له كما يدرس العالم الحيوى (البيولوجى) تأثير الحرارة الجوية والارضية ، على الخلايا الحيوانية ، من حيث التحلل والتركيب ، والتبخر والامتصاص والافراز ، وكما يدرس كيفية تأثير الاوساط المختلفة ، ذات الفواعل المختلفة على الكائنات الحية من حيث ما تكابده طبيعتها من مقاومات ومدافعات وما تنتهى اليه من غلبة أو استسلام نريد ان ندرس تلك الحوادث الجميلة التى قلبت شكل العقول والافكار . وبدأت الارض غير الارض ، والامم غير الامم ، والقلوب غير القلوب ، فجعلت من تلك الشرذمة العربية في سنين قليلة ، أمة أقامت أمر الله في الارض ، وأرغمت معاطس الجبابة من الملوك والقيصرة ، وخلصت الشعوب من آصار كانت عليهم كالجبال حملا ، كما يدرس العالم التشريحي (الفزيولوجى) كيفية انتقال الخلية الحية فى المادة الملقحة الى جنين ثم الى طفل ثم يافع ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ، مع مراعاة الاشراف فى كل دور من هذه الادوار على كنه تلك الفواعل الطبيعية التى أثرت عليه وتأثر هو بها ، وما قابلتها به طبيعته من حيث الانفعال ، والمقاومة والنماء والحركة . نعى بكل مامر أننا نريد ان ندرس تلك الآثار على طريقتهما المثلى وأسلوبها الطبيعى الصادق ، لا بالجلل المنمقة ، والتعابير المنفخمة ، التى تسهل على الكاتب ولا يهابها الناقد المحاسب .

لذلك سنبدأ ان شاء الله بايراد موجز من فلسفة الاديان ، والادوار التى يمر بها الانسان من حيث الاستسلام للعقيدة او التردد فيها وعلاقة ذلك بالجهل والعلم والحضارة والبداءة وغير ذلك من الاسباب الادبية والمادية ، لنستطيع ان نبجلى مركز القرآن للاذهان ، ونظهر مقامه العالى بين مؤثرات العمران ، وليرى القارئ معنا ايضا لمحة من كمال خاتم النبيين ، وإمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نطوف بالقارئ على ما يقتضيه المقام من فصول وأبحاث فى الوحي والنبوات ، وخوارق العادات ، والشؤون الروحانية الاخرى التى يميل لمعرفة الانسان لعلاقتها بمستقبل حياته ، وارتباطها بشؤون معناه فى سويداء فؤاده ، ثم نمر به بعد ذلك على موجز شاف من تاريخ القرآن الكريم من حيث وحيه وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه وتعدد قراءاته الخ مما لا يستغنى عنه مطالع القرآن الحكيم . وعلى الله وحده التكلان ، وهو المستعان .

﴿ موجز من فلسفة الاديان ﴾

(١) ما هو الدين ؟

ليجرد الانسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثة المختلفة التي لها السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليرجح من لوح ذاكرته كل ما نقشته فيها المؤثرات المختلفة في المكان الذي يعيش به وفي الاسرة التي هو فرد منها وفي الجمعية التي هو من آحادها ، وليتناس كل ما علمه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته ، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر الى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم الا ما تهديه اليه مشاعره الظاهرة ، واحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره في تلك القبة الزرقاء التي تحيط بالكون من كل جانب ، ثم لير به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الاطراف الى كل جهة يوجه اليها بصره ، ثم ليلق نظره على نفسه بعد ذلك . فاذا يجيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؟ لا مشاحة في انه يثوب وفي نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لما تبين له من عظم الكون وشسوع كنفه ، وحقارة شخصه وضوولة جثامه ! رأى تلك الانهائية فوق رأسه فوق وقف عقله منها حيث انتهى بصره ، وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من فخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب ! أراد تصوّره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير ، ان ينفذ الى صميم ذلك الامر الجلل فانحلت عزيماته انحلالاً ، وارتخت معاند همته ارتخاءً ، وأخذ القزع بمتنفسه أخذ اكاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتقاهة أمره في وسط هذه الانهائية الفخيمة ! رنا يبصره الى ماحوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله ، ويخرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ما أخذه جسمه من حيزه غير المتناهي ، فكاد يصعق من الوجمل أمام هذا السكون المطلق ؛ فاذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ، ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلاّأت في ارجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية في ذلك المعرض المرصع ، وزادت مهابة الليل فخامة

١٠ ، انظر مباحثنا الشهرية « الاسلام في عصر العلم » ، في كتاب « خاتم النبيين » صحيفة ٥٤

وعجباً ، ازداد أمرها غموضاً في فكره ، وتبين له انه وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسر ما يستطيعه أمامها الاقرار بعجزه وضعفه ، والاذعان بحقارته وضوؤلة شخصه ، واحتياجه المطلق للملجأ يلجأ اليه ، وموئل يعول في النجاة عليه ، وفقرة تقوى يهبه من قوته ، ورحيم ينشر عليه من افاضات رحمته .

هذا هو مبدأ الدين ، والباعث الطبيعي على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذي دفع الامم للتمسك بالاديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم الامر لهم في كل شان . وهو بذاته أيضاً الداعي لارسال الله تعالى رسله تترى الى الامم بالهدى ودين الفطرة .

ربما يقول قائل : « ان هذا التصوير البديع ان صدق على الانسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ، ثملاً من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعيّاً انه ادرك المعلولات والعلل ، ووقف من امور الكون على ما لم يحلم به الاول ، ولا اضطرب لهم به أمل »

نقول لهذا المعارض هوّن عليك ! جرد نفسك من كل مذكرته لك من آثار الوراثة والعقائد ، وما قرأته في كتب الملاحدة من الظلمات الكثيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد الى فكرك النظريات الرياضية التي تثبت لك ان الفضاء ممتد الى مالا نهاية . . . أي انه ليس له حد ! وانه مشحون بعوالم لا تحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذنان ، وان الارض التي أنت عليها ليست الا كالدرة بالنسبة لتلك الاجرام الضخمة ، وتذكر ماقرأته في ابحاث (كبلر) و (كوبرنيك) و (هرشل) و (زولنر) و (فلامريون) من أن الارض كوكب من الكواكب السيارة السابحة في الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصف كيلومتر (في الثانية الواحدة) وانها ذات شكل كروي محيطها (٤٠٠٠٠) كيلومتر وانها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجماً ، دائرة كلها حول تلك الشمس البضيئة التي هي أكبر من الارض مليوناً واربعمائة الف مرة ، وان المسافة التي تفصلها عن الارض هي ثمانية وثلاثون

مليوناً من الفراسخ وان هذه الشمس بهذا الحجم الهائل لاتقارن بالشموس الاخرى التي تسبح مثلها في هذا الفضاء المدهش .

وان اردت ان يكون لك فكرة عمومية على حجومها فاعلم ان اقرب نجم منا يصل اليها ضوءه في ثلاث أو أربع سنين ، فاذا كان ضوء الشمس يصل اليها في أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهي أكبر من الارض بمليون وأربعمائة الف ضعف فكم يكون حجم نجم لا يصل ضوءه اليها الا في أربع سنين ، اي في (٢٠٧٣٦٠) دقيقة ثم ماذا يكون حجم الشعرى التي يصل اليها ضوءها في ٢٢ سنة ! ! ! ! !

خل هذا جانباً وقل لي كيف تتصور حجوم تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك ان ضوءها لم يزل سابحاً في الفضاء من يوم تكونها الى يوم وصول ضوءها اليها اي في ملايين من السنين أليس في هذا التخيل ما يرعد الفرائض ويأخذ بمخفق التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك ، اما ما هو بين يديك وخلفك من ملك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وانسان فليس أمرها بهين عليك ، لانك لو استعرضت شيئاً قليلاً من عجائب النباتات ورأيت انك تلقى الى الارض بذرة لا تكاد تحس بها بين أصابعك فتراها بعد سنين شجرة ذات جذع غليظ ، وفروع ممتدة الى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم ، واريح ينفخ الانف من مسافات بعيدة ، ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت الى فكرك تلك الكائنات المختلفة في الصور والاحجام والاشكال والطبائع والفرائز والحيل بما لا تكفي المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت في ان المادة التي هي أصل كل هذه الصور البديمة مجهولة لديك بالمرّة ، لرجعت وكلك شعور بضعفك وعجزك ، واحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ، ولوجدت فؤادك ساجداً بفطرته امام هذه القوة العظمى التي ابدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت انك كلما ازددت بالكون علماً ازددت احساساً بجهلك ، وشعوراً بضعفك واحتياجاً لمن يأخذ بيدك ، ويسكن جيشان صدرك . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

ثم انك كلما رنوت الى اجزاء هذا الكون ورأيتها تتلاشى وتتجدد ، وتفرق وتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات الى الحيوان الى الانسان وجدت نفسك

شيئاً بدون فائدة . تلك القوة التي وهبت الانسان هذا الفكر الطموح والعقل الجوانح والاحساسات المتعاضدة، والاميال المتضاربة، لحكمة بالغة ومقصد عظيم، اذا التي الانسان بنفسه بين يدي هذه القوة تلج صدره واطمان على نفسه لتحقيقه ان هناك قوة معنوية به ومهيمنة عليه . ولو فقد الانسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمأنينة ام كيف يتذوق لذة الراحة والسكينة ؟

الانسان مقتدر في كل لحظة من لحظاته الى من يشاركه في احساساته ويشاطره في أحزانه وأشجانه، فكيف به لو فقد الثقة بأصل حياته، ورأى نفسه في هذه اللانهاية وحيداً ضعيفاً مهدداً في كل لحظة بما يبديه ويبدده ؟

الانسان يحتاج الى روح من الامل في كل حركة من حركاته في اعماله، فكيف ية لو تولاه اليأس في وجود من يعتمد عليه عند ما تلم به جسام المصائب وعظام النوائب ؟
الانسان انسان بروحه اكثر مما هو بجسمانه، فهو محتاج في كل خطرة من خطرات احساساته ومراميه الى غاية كمالية يوجه اليها تلك الاحساسات والمرامي فكيف به لو عمى عن روح الوجود وقيومه ومنتهى كل جمال وكمال ولم يرفى كل هذا الكون الهائل الا ذلك الصمت المرعب والسكوت المهيب ؟

أليس من المؤلم للانسان والجراح لفؤاده ان يتوهم ان هذه اللانهاية المحيطة به من كل جانب خالية من سميع محيب وانه لا شيء فيها يسمع ضراسته القلبية ولا مناجاته السرية ؟
أليس من الثقيل عليه ان يرى بصره الى السماء فلا يبصر فيها الا فراغاً مدهشاً وسكوتاً مريباً ؟
لقد دلت الآثار التاريخية ان الانسان جعل الايمان دائماً اشفق المسلمين له في مصائبه وأرأف المعزين له في نوائبه . فكلم فؤاد مومع بنازلة لولا الايمان لا نفطر . وكم كب د حرى لولاه لذابت كمداً وحسرة ! ماذا يهبط روح السكينة والتأساء على عزيز قوم ذل، أو غنى قوم افتقر، اذا جلس يفكر فيما آله حاله وسط الليل الخالك وهو يتنفس الصعدا، غير (ايمانه) بأن معه من يعلم السر وأخفى ، ويقدر على منحه الصبر على مصيبته أو القوة على استرداد ثروته ؟ ثم ماذا ينزل روح الصبر والسلوان على روح ام فقدت ولدها في ريعان شبابه ومبعة صباه غير (ايمانها) بانه أصبح وديعة لدى مبدعه الذي هو اشفق عليه منها في عالم غير هذا

العالم؟ ثم قل ماذا يقود الرجل الى ايراد نفسه موارد العدم وارسالها الى عالم الفناء غير (عدم ايمانه) بهذه القوة المهيمنة على مقادير البشر؟ أما يسوع لنا ان نقول ان (الايمان) لازم من لوازم الانسانية وحاجة من حاجات الحياة الارضية من فقدته فقد فقد طيب الحياة ولو ملك الدنيا بيمينه . ومن وجده فقد وجد راحة الابد ولو كان بين انياب الفاقة ومخالب الفقر المدقع .

ولقد نري ويرى أهل البصر كل يوم ان الناس يتفاوتون في الصبر على المكاره والجلد عند لقاء الملمات ، على قدر ما أوتوا من قوة (الايمان) حتى قد تنتهى الحالة ببعض الافراد منهم الى المساواة بين آثار النعمة والمصيبة لاعتبارات سامية يؤدبهم اليها شدة ايمانهم وثبات يقينهم، ولعل هذا هو غاية ما ينشده الفلاسفة من سعادة الدنيا . أما يجب اذن على الذين يبيتون حيارى وجلين ينتظرون وقوع المحن عليهم ويصبحون خائفين واهمين سيكون على انفسهم قبل أن يحاط بهم، أن يسموا في تقوية ايمانهم وتميته، بدل حسو السلافة ليتناسوا ما هم فيه تناسياً وقتياً ثم يعود اليهم الوجل باشد مما ذهب ؟ على ان الفرق بين الطرفين عظيم . فان الرجل الذى يعمل لتناسى ماسيحيق به من النوائب فى اهله ونفسه، يجنى على ذاته جنائيات لا تغتفر : (أولاً) لانه بعدم تقوية ايمانه يحرم نفسه من لذة الايمان فان له لذة فى القلب لا يعلم قدرها الا المؤمنون حقاً الذين قال قائلهم : نحن فى لذة لو علمت بها الملوك لقاتلونا عليها بالسلاح . (ثانياً) لان بحثه على السعادة من غير طريقها يرمي به الى متائمه المحظورات الانسانية القاتلة التى تهلكه وتهلك الكثيرين معه كما هو مشاهد من عشاق السعادة وطلاب الراحة من غير طريقها . هذا بخلاف حالة المؤمن فانه لما ادرك أن لا شئ فى الوجود بغير حكمة، وان لكل عمل نتيجة، ورأى نفسه يشعر ويتألم ويفتكر فى المعضلات ويصل الى حلها وهو كل يوم فى رقى مستمر لم ينهزم امام ما يؤلمه من حالات الحياة التى تتوالى عليه ولم يفر من وجه الملمات التى تحزه من كل جانب بل وقف وقفة الثابت الجليد، وألقى على نفسه هذه المسئلة : ماذا أنا . ومن أين أتيت . والى أين أذهب ؟ ما هي الحياة . وما هو الموت . ولماذا سلطت على هذه المؤلمات ؟ ما هو هذا الوجود . وما هي علاقتى به ؟ هذه الاسئلة وضعتها المؤمن نصب عينه واشتغل بحلها لعلمه ان حياته مرتبطة بها فتجلت له على حقيقتها وازدادت

نتائجها في فؤاده رسوخاً تارة بالعلم الذي تهديه اليه مشاعره الظاهرة، وطوراً بما ينبع في صميم
منه من الالهام الصحيح . فاستوي بشراً سوياً يعرف قيمة الحياة ومزية الوجود وعاش
حاصلاً على احسن ما قدر للانسان من سعادة دنيوية.

﴿ الانسان تمة الابداع الالهى ﴾

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم »

لا شيء أضر على الانسان واضيع لجمال خصائصه العليا أكثر من جهله او تجاهله بحقيقة
ذاته ، ولاننى بذلك سر روحه فانه مما لا يمكن نفوذ العقل اليه من طريق المشاعر بواسطة
الامور المحسوسة . ولكننا نقصد بتلك الحقيقة مواهبه السامية وملكانه العالية واستعداده
لبلوغ كل ما يتصور من الكمال والرفعة في عالم الممكنات .

استعداد الانسان لادراك كل ما يتصور من المعالى الجسدية والروحية أصبح من
البدائنه العلمية لاسيما بعد ما وقف علماء الفلسفة التاريخية على ناموس الارتقاء الذى يستطيع
أن يدركه كل انسان بطريقة محسوسة من النظر الى ما كانت عليه حالة الانسانية في أول
أدوارها ثم الى ما انتهت اليه في هذه الاعصار المتأخرة من الكمالات الصورية والمعنوية
التي لم تكن تحلم بها أرقى فكرة في الازمنة البعيدة . والى هذا يشير (لاروس) في دائرة
معارف القرن التاسع عشر بقوله : « ان من التهور الشائن وضع حد لرقى الانسان . »

ولما كان لكل حقيقة لوازم تتبعها ونتائج لاتزالها فلوازم هذه الحقيقة ردع الانسان
عن الايفال في سفساف الامور ودنايا الشؤون ، وصدده عن الاسترسال في معاطاة الحساس
ومدانة الشرور . نعم يندر ان يتحلى انسان بادراك هذه الحقيقة فيستخذى لداعى هواه
المضل او يلين قياده ليدهيته الملازمة لشكله الحيوانى . هذه الحقيقة هي أقوى باعث
للانسان على تلمس الفضائل واهدى هادله على سلوك مهابيع الكمال في هذا المترك الهائل .
صور لنفسك رجلاً رسخ في فؤاده انه نسخة صغرى لصورة هذا الوجود العظيم ، وان
امامه غاية لا يحددها التصور ولا يتناول اليها الخيال ، وانه خلق لبلوغها وطبع على البحث

عليها وقطع المفاوز اليها . ثم تخيل بازاء هذا رجلا آخر تكاثفت على لبه ظلمات الطبيعة الطينية وغشت فطرته الانسانية غياهب قوته البهيمية فلم ير امامه الا كثافات هذه الطبيعة وظواهرها القشرية وضرب بينه وبين الفكر في نفسه بحجب كثيفة من اشتغالاته الواهية الوهمية . قلنا تخيل مثل هذين الرجلين ثم قل لي ماذا ترى في أفعال الاول من كمال ونظام، وفي أقواله من حكمة واحكام، وفي حركاته من حزم ووقار، وفي سائر شؤنه من همة واقتدار؟ وماذا ترى على أفعال الثاني من نقص وخطأ، وفي أقواله من خشونة وخبط، وفي حركاته من طيش وخرق، وفي سائر شؤنه من جبن ونزق؟ بل ماذا ترى على الاول من رواء الانسانية وجمالها . وماذا تلمح في الثاني من نقص الحيوانية وخداجها؟ ثم مثل لنفسك بعد هذا كله قوماً من الاقوام رماهم الله بكساد العلم وكرهاته الحكمة وقضى عليهم بمجافاة الاطلاع وموات الفكرة فماذا ترى من مصائب تحيق بهم، وحوائج تحتاج طبياتهم، وخلل في امورهم وزلل في سائر محاولاتهم؟

سبحان الله « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » الذي « خلق كل شيء فقدره تقديراً » قضت حكمته جل شأنه ان تكون أنت أيها الانسان تمة ابداعه وغاية اختراعه واعطاك من المواهب والقوى ما تستحق به أن تكون ملك هذا الكون بأسره، فمالك لا ترى هذه المواهب حق رعايتها، ولا تمنح هذه السلطة بمض واجبها؟ مالك تغمط حق قدرك، وتتماهي عن جلالة شرك، وتتسفل في مراميك، وتهزل خلف سفاسف أمانيك؟ هل تريد ان تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتشاكل الحمر الوحشية في خستها والبهائم الهاججة في نقصها ودناءتها، بدون ان تجد في اثناء نزولك الى هذه الهاوية السحيقة من لوازم الهبوط ما يحمل حياتك مرة، ويستوجب أنينك في اليوم الف مرة! كلا « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »

ان الذي أوجدك من العدم وحملك الامانة التي أثبتها السموات والارض واشفقن منها وارادك من الرقي والرفعة ما تغبطك عليه الملائكة في السموات العلى، قد ناط بك التكليف الحيوية التي يستلزمها الصعود الى تلك المنصة العالية فباطلا تحاول الرجوع عنها وعبثاً تتشبث بالحيث منها . فاما ان تهتم بالصعود اليها واما ان ترضى بأن تكون سلماً لغيرك يتخذ عاتقك

مسوقاً لأن تتسائل عن حظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد تلاشي هذا الجسم السريع العطب ، ولو خزك حب الحياة المرتكز على أجل عواطف نفسك ودفئك لأن تجول بفكرك في مضمرات الاشياء ومستورات المعارف ، لتشق الحجب التي تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً ، او لا تجد هافتبقى في هذه الارض العمر الذي قدر لك بين فزع وجزع ، ووحشة ووهل ، تعالج من اضطراب نفسك مالا تعبر عنه ، حتى تجي تلك الساعة المنتظرة على صفة لا تستطيع ان تخيلها

الا ترى بعد هذا ان الانسان على اى حالة من احواله سواء كان جاهلاً لا يعرف شيئاً او عالماً يعلم شيئاً . . . لو جرد نفسه من آثار الوراثة المختلفة ومحا من ذهنه كلما يربطه بالمكان الذي عاش فيه وبالمذهب الذي ينتمي اليه ، ثم تفكر بعد ذلك في الكون وفي نفسه لا ندفع بنطرتة وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً الى اللقاء نفسه ساجداً امام خالقه ولو لم يستطع ان يتصوره بصورة ، او يقع فكره منه على كيفية .

هذا هو الدين القطري الذي خالق الانسان مطبوعاً عليه بطابع الخالق الحكيم الذي اقام الانسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه ما قدر من الكمال الصوري والمعنوي . فالدين على هذه الصورة الطبيعية لا يتصور زواله بوجه لانه مرمى كل عواطف النفس وغايتها وقد ادرك ذلك اهل البصر من الغربيين فقال غطريف الفلاسفة الاوربية (ارنست رينان) في كتابه تاريخ الاديان : « من الممكن ان يضمحل ويتلاشى كل شيء نجبه وكل شيء نعه من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن ان تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل ان ينمحي الدين او يتلاشى بل سيبقى أبداً بدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود ان يحصر الفكر الانساني في المضائق الدنيئة للحياة الطينية »

وقال الفيلسوف الشهير (اجوست سباتيه) في كتابه (فلسفة الاديان) : « لماذا أنا متدين ؟ اني لم احرك شفتي بهذا السؤال مرة الا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب وهو : أنا متدين لاني لا استطيع خلاف ذلك ، لان الدين لازم معنوي من لوازم ذاتي . يقولون لي ذلك اثر من آثار الوراثة او التربية او المزاج فاقول لهم قد اعترضت على نفسي

كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدته يقهر المسئلة ولا يحلها وان ضرورة الدين التي اشاهدها في حياتي الشخصية اشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست اقل تشبهاً منى باهداب الدين الى ان قال : « اذن فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك ينبوع يزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة » انتهى

وهذا كله نفحة من نفحات هذا الناموس الكبير الذي اوحاه الله لخاتم انبيائه صلى الله عليه وسلم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

﴿ الإنسان والايمان ﴾

اذا كان هذا الجسم المادى محتاجاً لماوى يأوى اليه ليتقى فيه افاعيل الطبيعة المحيطة به وغوائل الاعراض التي تكتنفه من سائر جهاته فليست الاحساسات المعنوية والعواطف القلبية بأقل احتياجاً من ذلك الجسم لموئل تعصم فيه مما يتجاوزها من عوامل الشعور الذي غرس فيها بحكم الفطرة الاصلية . ليس الانسان كالحيوان يقتنع بما يسد حاجيات جثمانه من مأكل ومشرب ولا يبالي بمد ذلك بما يسوقه اليه القدر في غده او بعد غده . كلا بل للانسان مطالب روحانية لا يقل حنين احساساته عليها وشغف امياله بها عما يصيبه من فقد مطالبه المادية بل ربما دق الشعور في بعض الكاملين من هذا النوع الانساني فأثر الوصول الى مشتهيات روحه على كل مطلب جثماني أياً كان نوعه . بل لا يخلو واحد منا من شعوره حيناً من الاحيان بحالة يود فيها لو نال راحته الضميرية التامة ولو جرده ذلك من كل ماله من بهرج الدنيا وزينتها الموهمة . اناشدك الله اما ألم بك شعور ما في حين من أحيان حياتك بعثك للنظر في نفسك ومصيرها في دنياك وأحوالها وفيما يحيط بك من الكائنات على اختلاف أنواعها وأجناسها فوجد فيك احساس سام لم يكن فيك من قبل ؟ احساس اراك رأى العين أن ليس لك في هذا الكون المحسوس مقنع تقف عنده ولا موئل تعصم فيه من مهددات هذه الحياة القصيرة الأمد ، احساس اهاب بك عن الركون لموهات هذه

الاشياء الارضية وصاح بك لتفتق الحجب التي رانت على فؤادك فمنعته من الاشراف على حقيقة سر يخفق له فؤادك الذي بين جنبيك . احساس سماوى ليس من طبيعة هذه الجبلية الحيوانية صغرك الوجود على ضخامة أجزائه وحقر لك هذا الملكوت الأرضى على كبر ابعاده وشخص لك مخاوفه ومعاطبه تشخيصاً دفعك الى تلمس المخلص منه والمحيص عنه . اما والعلم لو لم يكن الله جلت حكمته رحم هذا النوع فجعل شواغله المادية مانعة له من الاسترسال فى هذا الشعور لترك الناس عمار الدنيا وخرجوا على وجوههم فى القفار يجأرون الى الله ويلتدمون صدورهم رهباً من هذا الخطر المحدودق ورغباً فى تلمس المخرج من هذه الفؤائل الصمية

دع سمسرة المادة جانباً واطرح أقوال مروجة الزخارف والاباطيل وارجع لنفسك لحظة من لحظات حياتك العزيزة واستفت هذا الفؤاد المرتجف بين جنبيك واستنبي مايتنازعه من احساسات ومشاعر ثم تعال فقل لى الى أى مدى وقفت بك مراميك الداخلية وفى أى نقطة من هذا المحتد الطينى سكن اضطراب فؤادك الولهان ؟ ثم أنبئ بماذا حكمت على الارض وخيراتهما والسماء وثريراتهما والمناصب وحفاواتها والالقاب وكراماتها والثروة ومموهاتها ؟ ألم تجل لك كلها هباء منثوراً آيلة الى التلاشى والفناء وان مثلها اليوم بالنسبة اليك كمثلها فى الغد : أسباب شقاء وبلاء ومثارات شدة وعناء ودواعى آلام واسقام ومسارح اوهام واحلام ؟ هل بعد المشاهدة برهان أو غير التجارب عرفان ؟ لقد رأيت من قبلك ممن نال من بسطة الجاه والسلطان ولذة الثروة والشأن رجالا سجد الناس امام آرائكهم وعبدوهم دون بارئهم . فماذا كان مصيرهم والى أى بيثة وصل أمثلهم ؟ ألم يدسوا فى الارض كما يدس القدر وتخلى عنهم كل بطانة ووزر، وغرتهم العلياء الارضية حيناً ثم اهوتهم على عروشهم كما تهوى الشجر فى يوم شديد العواصف .

نعم للانسان فى لحظات راحته وسكونه مسارح فكرية فى أمثال هذه المرايى السامية التى هى من مميزات الروح الانسانية وليس فؤاد الجاهل بأقل شعوراً بها من فؤاد العالم وليست هى فى مكان وزمان أشد منها فى زمان ومكان آخرين . تدل على ذلك اشعار الامم واغانيم منذ القدم فانها تترجم عن مثل هذا الشعور السامى وترينا انه فطرى فينا وان دون انتزاعه منا نزع الفؤاد من بين الجوانح .

كل حادثة من حوادث الحياة توقفنا هذا الشعور وتجعله في أشد درجاته فما مرض الاقرباء والاصدقاء وما حزن الاولياء والاخلاء وما مصائبنا في النفس والاهل والمال الا منبهات لهذا الشعور ومذكيات له ، وما أكثر استهداف الانسان لمثل هذه الحادثات في مدى حياته القصيرة الامد . الانسان في اثناء تلبسه بهذا الشعور يحتاج الى مواس يواسيه، ومواس يواليه الهدو ويوليه ومعتمداً يعتمد عليه فيما وقع فيه . ليس وقت الشعور بالمصيبة دور تمن وتأميل حتى يكتفي الانسان من التأسية بما يؤثر على خياله ولو توهماً، كما هو شأنه في بعض الاحيان بل هذا دور جدّ وعمل ينبعث الانسان فيه لتلمس تأساء حقه يصرف بها حرارة هذا الشعور فيه ساعة احتدامه والا أحرق اليأس فؤاده وناهيك به من سكير . نعم يحتاج الى مواس يفتح له بما يشكو منه معتقداً أنه اشفق عليه من أبيه وامه ومن الناس اجمعين . مواس يحس انه مهم بشأته وقادر على تتيته مما وقع فيه . مواس يرضى الانسان ان يليق نفسه بين يديه القويتين فتحفظانه من السقوط وتقياه على نهج الطريق .

اذا اصيب الانسان بمصيبة تلظى فؤاده ناراً، وكادت نفسه تطير شعاعاً، وشعر بحقيقة ضعفه ووهنه وأحس بضوالة قواه وحوله، وادرك كنه مركزه في هذا الوجود الهائل وعرف انه فيه غريب وحيد بل طريد شريد . اينما يوجه وجهه فلا يجد معيناً له على بلائه ولا مقبلاً له من تمره في ذيول لأوائه . يرفع رأسه الى السماء فلا يرى الا الكواكب الزهر تسبح في آل الفضاء والصمت شعارها والسكوت ديدنها . ويرمي بعينه الى الارض فلا يرى الا غيراً وجبالاً وهضاباً وتلالاً، ان ناجاها ارتد عليه صوته او ذهب ادراج الرياح . ثم يرجع الى نفسه فيرى حوله قومه وبني ابيه وليس فيهم واحد منزّه عن مثل ما ألم به فليسوا بأقل احتياجاً لتلمس المخلص من مهددات الوجود ومبيدات الحياة . اذن ماذا يعمل الانسان وهو في تلك الحالة الحرجة والموقف الصعب ؟ باي ركن يعتصم والى اى ملاذ يلوذ ؟ على أى سند يعتمد وفي أى مساعد يؤمل النجاة ؟ ليس امامه الا الترامي بين يدي تلك القوة الازلية التي اخرجته من الدم (١) وقضت عليه بما هو فيه من ذلك الحال . تلك القوة التي أقامت هذا الوجود على دعائم الحكمة غير المتناهية . تلك القوة التي لم تضع شيئاً في غير محله ولم تهب

(١) نعتذر عن استعمالنا لفظ (قوة) في هذا الموضع فان المقام اقتضى ذلك

موطناً لقدمه فيصعد وانت سافل، ويكمل وانت ناقص، ثم تنزع عن^١ هذا العالم الأدنى موقراً بطين هذه الطبيعة السفلى (ومن لم يجعل الله له نوراً فلأله من نور)



«الايان في خلال القرون»

مرّ الانسان من حيث الايمان على ثلاثة ادوار مهمة، لكل منها مميزات ولوازم خاصة به. أما الدور الاول فهو دور الفطرة الاولى حيث كان الانسان مؤمناً إيماناً فطرياً مسوقاً الى الاختبات والخضوع للخالق بغير سائق ولا دافع غير احساساته الداخلية وعوامله الباطنية، لشعوره شعوراً ضرورياً بالاحتياج لذلك، ولم يك يستترق هذا الاحتياج فيه عن احتياجه الى المأكل والمشرب من حيث الاهتمام به والجرى وراءه مطلوبه منه.

يمتاز هذا الدور بتنزهه عن الشبهات والشكوك، فلم يك يعرف انسان ذلك الزمان ما هو التردد في اصل الايمان، وما هي الحيرة في صحة العقيدة او عدمها، وسير بك ان شاء الله ان سبب ذلك كان وقوفهم عند دين الفطرة البسيط المبرأ من شوائب الظنون والاقاويل. هذا الدور يتبدى من مبدأ الخليفة الى قبل بعثة المسيح بقرون لا يمكن تحديدها بالضبط.

أما الدور الثاني فهو دور الفلسفة والحكمة، وفيه فتقت انوار العقل حجب الكثافات الطبيعية، واخذ الفكر يجول في موائم التصورات السامية، والمدرجات المالية، ويسبر مساتير المجاهيل الوجودية ليحيط بما خبأته له يد القدر. من عالم الشهادة وعوالم الغيوب. يعرف هذا الدور بتولد الشكوك فيه، وسريان شياطين الشبهات الى العقول، من بعض الافراد ضد بعض الاصول الاعتقادية. وكان ثوران تلك الشبه كنتيجة طبيعية لضرورة لان العقل الانساني لما اراد ان يتفصى من اصفاد هذه الطبيعة الكثيفة، ومال لأن يفتق تلك الحجب التي تمنعه من متابعة شهواته في النفوذ الى سرائر الموجودات الكونية استلزمت تلك الدفعة ان يطوف من المدرجات على ما يلائم درجته من الرقي، فكان الخيال قائده في تلك الرحل النكرية، وناهيك بعقل يرشده الخيال، وتقوده احساساته البشرية الملازمة لتركيبه. لا جرم انه لا ينال من الحقيقة المطلقة الا ما يناسب درجته المقيدة،

فكان من الضروري ان يهب عليه ما يتلذذ به عن الوقوف في مركزه ، ويصبح به لأن يشرب الي ما فوق ذلك ، ايعلم ان الحقيقة ابد مما كان يتوهمه . لذلك بحث الله تعالى عليه روحاً دافعة ظهرت بمظهر الشبهات والشكوك ، لتسوقه رغم انه الى غاية ما يمكن ادراكه من معنى اللاهوت الاقدس وما يتعلق به من شؤون الحضرة الالهية .

من هنا نشبت الحرب العوان بين الفلاسفة ورؤساء الاديان ، وحمى الوطيس فيها لحد انها كانت الشغل الشاغل لكبار العقول في الامم ، حتى صار علم اللاهوت عبارة عن جدل وحل شبه .

اما الدور الثالث فهو دور العلم الطبيعي والفلسفة الحسية ، ويبتدئ من حوالى القرن الخامس عشر لغاية النصف الاول من القرن التاسع عشر . في هذا الدور استطار لهب الحرب الدينية العلمية بين قادة العلوم الطبيعية ، وحملة النصوص الاعتقادية ، وتحقق الفوز للحزب الاول وكان ذلك رد فعل لما كان قد حصل من غلواء انصار الحزب الثانى فى الابعاد عن العلم ، والتنبيه بمجافة العقل وما يثمره الفكر ، ولقد بلغ عدم الاهتمام بالدين عند بنى هذا الدور بحيث عدت التعاليم الاحادية ، من الافكار الواجبة الاعتبار والاحترام ، الجائزة السريان بين العوام رغم انها حملة الدين ومؤيديه .

أما الدور الرابع فهو دور الفطرة ، وهو الدور الذي نحن فيه ويمتاز بمحاولة النوع الانسانى فيه الرجوع الى دينه الفطرى البعيد عن مظان الشبه المنزه عن ماثرات الشكوك . لهذه الادوار الاربعة تفصيل لا بد من الامام به . فنقول :

الدور الاول

(دور الفطرة)

اختلف العلماء الباحثون فى اصول الاديان فى اول معبود عبده الانسان فى اول نشأته فذهب الماديون منهم الى انه عبد الاصنام مباشرة على ادنى اشكالاً ثم اخذ فى الترقى فيها شيئاً فشيئاً على قدر رقيه العقل والفكرى ، ولم يزل ينتقل من دور الى دور حتى وصل من

فكرة اللاهوت الى مثل ما وصل اليه « باسكال » و « جول سيمون » و « رينان » واضرابهم من التنزيه المطلق والتوحيد الخاص ، ولم يتخذ هؤلاء الماديين الى مثل هذا التطوح الا وقوفهم مع الحس المجرد ، وزعمهم انه لا سبيل لسائر المعقولات الانسانية غير الحواس الخمس . ومال الروحيون من الفلاسفة ^(١) الى ان الانسان عبد الخالق الاقدس على اكل صورة من صور التنزيه والتوحيد ، واما عبادة الاوثان فهي عرض طارئ اقتضاه ميل الانسان الى تحديد كل ما يحس به الانسان احساساً مبهماً . فيكون مجمل هذه النظرية ان الانسان فطر على الدين الحق وحمله معه كلازم من لوازم روحه ، ثم لما مال الى عالم المحسوسات اراد ان يحدد ذلك الشعور فيه ، فوقع في اوهاق ^(٢) الوثنية على اختلاف اشكالها ، وكان من أمره في ذلك ما ترويه لنا فلسفة الأديان من التدافع الذي سيمر بك طرف منه .

اما النظرية الاولى وهي نظرية الماديين فقد سقطت الآن الى الحضيض وتبين فسادها بما اكتشفه العلماء البحاثون في اصول الأديان ، ومناشئ العقائد قال الفيلسوف الشهير (جيو) في كتابه المسمى (عدم الدين في المستقبل) : « ان نظرية الفلاسفة الحسنيين بالنسبة للأديان كان يتوقع سيادتها المطلقة منذ بضع سنين وقد كان راضيها الكثيرون بدون ان يستنتجوا منها سائر نتائجها الضرورية . اما الآن فقد اصبحت واهنة واهية . »

وقد تصدى اكبر عمراني العصر (هربرت سبنسر) لهذه النظرية في كتابه « الاصول الأولية » فدحضها دحضاً وظهر فسادها بواسطة التحليل العلمي الدقيق . اما النظرية الثانية فهي السائدة اليوم لانها ليست من باب الفروض الظنية بل مما يمكن تحقيقه بالاختبار اذا صعد الانسان ببحثه الى مناشئ العقائد في الانسان وهذا الامر مهما كان صعباً فان وراءه رجالا يهتمون به غاية الاهتمام ، ويبذلون في سبيل استكناه له كل مرتخص وغال . وأحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل فاجاد وافاد ، هو الاستاذ الطائر الصيت (ماكس مولر) الالماني فانه كتب فيه كتاباً جليلاً سماه « أصل الدين وارتقاؤه » اثبت فيه بالنصوص الدينية

(١) نعني بالروحيين الذين يعتقدون ان العالم مركب من طبيعتين : طبيعة مادية هي هذا العالم المشهود ، وطبيعة روحانية هي عوالم ما وراء المادة .

(٢) أوهاق جمع وهق أى مصايد

الهندية وهي ابد الديانات عهداً واقدمهن تاريخاً بان الانسان اول ما عبد عبد الخالق جلّ وعلا على صفته غير المحدودة ، واما هذه الاوثان والاصنام ، فليست الا بنات الخيال استدعتها محبة الانسان للـس كل ما يشعر به في نفسه قال : « ان هذه الآلهة المجسمة ليست الا تمثيلاً طراً على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية ، وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا امام الله الحق حتى قبل ان يجسروا على الاشارة اليه باسمه . » ثم جزم هذا المؤلف بأن أصل الاديان كلها واحد ، وما سبب اختلافها الا ما أحدثته النزغات الانسانية ، والاهواء النفسانية ، من حب التحديد والتقييد والحصص .

هذا كلام لم يخاف العقل ولا النقل . اما قول الماديين السابق ، فلا ينطبق على علم ثابت ، ولا يستطيع ان يقام عليه دليل . وليس هذا الشطط يبعيد عنهم فانهم متى رأوا خرج مركزهم حيال مسألة من المسائل ، اعتادوا التعسف في التفلسف ، وملأوا الارض احتمالات وفروضاً ، ولو كانت اعرق في السفسطة والهديان نما تعالوا عن قبوله مبدئياً . سلمهم قائلاً : هل يعقل ان الانسان يعبد شيئاً مجسماً قبل ان تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت اليها ؟ هل يتصور ان الانسان بمجرد خروجه من عالم الغيب اكب يعبد الحجارة والجبال والاوادية والاشجار ، بدون ان يكون له شعور مبهم سابق على ذلك التحديد ؟ لا يتصور ذلك بوجه من الوجوه . اذن فالول عبادة عبدها الانسان كانت روحية قلبية على صفتها الصحيحة وموجهة للخالق الاقدس المنزه عن الحدود والقيود .

يقول الماديون مما يدل على ان ابائنا الاولين كانوا محددين مجسمين ، لا مطلقين منزهين ، ان لغتهم خالية مما يدل على الاطلاق وعدم الحد فلا تجد فيها لفظة (لا نهاية) . نقول ان خلو اللغة منها لا يدل على عدم وجود معناها . على انها في كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينهما حالا في اثناء التخاطب كقولنا : لا نهاية . او لا حد . او لا غاية . او لا آخر وهكذا . ومع ذلك فان اللغات القديمة قاصرة عن اشياء كثيرة ، حتى في المحسوسات فلم يوجد في واحدة منها الاشارة الى تدرج الالوان وتداخلها في بعضها بدون شعور ، وليس في اغلبها الا اربعة الوان فقط ، الاسود والايض والاحمر والاصفر ، فهل يصح ان يقال انهم كانوا لا يعرفون الزرقة من الالوان والسماء فوق رؤوسهم تتألق في حاتها

النضراء . على ان فكرة (اللانهاية) يميل اليها المتوحش اكثر من المتمدن . ألت ترى ان الجاهل من الناس اذا اراد ان يصف لك عظم بلدة من البلاد لم يجد في فكره من اوصاف المبالغة ما هو اقرب من قوله : تلك بلدة ما لها اول ولا آخر . وهذا الاستعمال يشاهد عند الجهلاء والمتوحشين اكثر ممن عداهم . اذن فنظرية الماديين قاصرة ولم يجد بهم الى اعتقادها الا اصولهم القاضية عليهم بعز جميع المدركات الى الحواس الخمس وما أضيق هذا المجال واحرجه ؛ لا يجدر بنا ان نختم هذا الفصل حتى تنبه أن فيه معجزتين عظيمتين تعدان من أكبر المعجزات لسيد الانام صلي الله عليه وسلم ومن أوضح دلائل نبوته العامة لمن كان له قاب يدوق العلم ، ووجدان يحس بالحقيقة . (اولاهما) ان قول الاستاذ (ماكس مولر) ان الانسان ممتطور على (الدين الحق) تعد منه ترديداً لمعنى هذه الآية الكريمة التي انزات على سيد الانام قبل ميلاد (مولر) بثلاثة عشر قرناً تقريباً وهي : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . » وقد رأيت انها لم يتحدث بها في العالم العلمي الاوربي الا في القرن التاسع عشر ولم يذعها الا كتاب الاستاذ (ماكس مولر) في سنة ١٨٧٩ (ثانيتهما) ان فلسفة الأديان أرتنا كما نقلناه عن الاستاذ الموما اليه ان اصل الاديان كلها واحد ، وان ما أحس وعمل به الانسان الاول من الدين هو بعينه ما يحس ويعمل به اكبر انسان في العصر الحالي . ولا نفرنا الالفاظ المفوفة والعبارات المزخرفة والاساجيع المنمقة فانها كلها تعبير لما في الوجدان وليس وجدان الجاهل بأقل شعوراً بها من وجدان اكبر فيلسوف . وهذه أيضاً فكرة جديدة جداً سبقهم القرآن الكريم اليها وقال صريحاً بان أصل كل الاديان واحد وهو الامر بعبادة الله الواحد في قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً)



الدور الثاني

» دور الفلسفة «

كان الانسان في دوره الاول مطبوعاً على الايمان كما أثبتنا ذاك في الفصل المتقدم ، فلم يكن للشبهات والشكوك سلطان عليه ، وكيف يشك الانسان فيما يحس به في ذاته ، ويشعر بالدافع له اليه ، ولكن لما ابتدأت خصيصة التعقل تسوق الانسان الى التلي بمجالي هذه الطبيعة الباهرة ، وتبعته للحكم عليها بقدر ما وهب من القوة المميزة ، أخذ قبل كل شيء يبحث في موضوع عبوديته واخباته ، وطفق يسمو بروحانيته ليدرك ذات المتصرف المطلق في هذا الكون العجيب ، فخال في هذا المبحث العظيم جولة الطفل تشغله ملهيات الظواهر عن حقائق البواطن ، وتستوقفه بهارج الاعراض عن النفوذ الى الجواهر ، وناهيك بعقل البسطاء من سكان الكهوف والمناور ، فهب يشخص الهه على مقتضى حواسه الشخصية ، وخصائصه الذاتية ، ثم أخرج تلك الصورة من حيز الخيال الى حيز الظهور فاصطنع الاصنام والتماثيل ، وملاً بها الهياكل والمعابد ، وكلف نفسه تقديم الهدايا والذبايح اليها ، واقامة الحفلات والولائم لها ، وصار يرقى معبوده في الشكل والخصائص ، كلما ارتقى درجة في التصور ، حتى انتهى حالها من جمال الصنع ، ورشاقة الوضع ، الى ما وصلت اليه عند قدماء اليونانيين والرومانين . في هذا الدور دور التخيل والتعقل ، كان الله تعالى يرسل رسله تترى الى الامم بالعقيدة الثقية الخاصة من قدر الظنون ، وكدر الخيالات ، ليخلع الناس ذلك النير الثقيل الذي البسوه أنفسهم فما كان يهتدى منهم الا للذين استعدت افئدتهم لقبول ذلك النور وقليل ما هم بين تلك الامم الطفلة .

عرف الانسان في كل زمان ومكان بشدة الكلف بدينه ، وعظم التمسك بمعتقداته ، فكان يدافع عنها دفاع المستميت اليأس ، ويتنصر لها انتصار المهضوم حقه ، المصاب في عرضه ، ولا يتأخر من الحاق الضرر بالساعين في تهذيبه ، حتى قتل بهذه الحجة عدداً من الانبياء ، ومثات من الحكماء واصحاب البصر ، وعد قتلهم نصرة للدين الحق على الباطيل .

ظل الانسان ينسج على هذا المنوال العدائي ضد عقلاء افراده ، حتى تفجرت ينايع الحكمة في باحات القلوب ، ولطف احساسات الناس نوعاً بواسطة تلك العوامل التي خالقها الله تعالى لا يقاط هذا النوع فتيين لهم ^(١) ان الوثنية عبء ثقيل على المسدرك ، واتضح لهم انها بنت الخيال ونبت الضلال ، فافردوا للكون الها واحداً وعزوا اليه من الصفات منتهى ما وصلت اليه مداركهم .

هذا الرقي التدريجي في الدين يشاهد باجلى مظاهره عند براهمة الهنود ليس في المجتمع فقط بل في العائلة الواحدة أيضاً . روى الاستاذ « ماكس مولر » الموما اليه في نفس كتابه المتقدم ذكره ان البراهمة قد وصلوا من حرية الاعتقاد الى حد انهم يتركون كلا يعبد ما يوصله اليه عقله ، فترى الاب الهرم في عائلته العديدة الافراد ربما وصل الى اعلى مقام من التنزيه والتوحيد ، ولكنك ترى ابنه امامه يضحي الضحايا لصنمه المعبود ، وعن يمينه ابنه الثاني يرتل الاشعار الخيالية في مناقب الآلهة المختلفة . يرى كل هذا ولا يتأثر له تاركا لعقلهما حق التصرف في ايصالهما الى نقاء العقيدة

في هذا الدور كثر التجادل والتنازع في أصول العقائد ، وكان اختلاف الناس في المدارك وتباينهم في درجات النصور ، سبباً في انفراج مدى المذاهب بينهم ، فأخذ كل فريق يجهد عقله ويعمل فكره ، على حقيقة الصفات التي يعزوها للخالق جل شأنه ، ويكلف نفسه الاتيان بمزاعم خصمه ويكر عليه بالحجج الداحضة ، حتى صارت كتب اللاهوت عبارة عن تحاور في الالفاظ ، وتناقش في الاصطلاحات ، مما يدل الرائي انه لا سبيل الى الوفاق ولا مساع لطرد شيطان هذا الشقاق . وأنى يستتب الوفاق بين أحزاب جعلت العقل المجرد متكباً للحكم على أصل الاصول ، وحقيقة الحقائق . لا جرم ان الخلاف يكون بينهم مستحكماً ، والتفرق سائداً ، على نسبة اختلاف البشر في درجات العقول وتفاضلهم في مواهب الفكر . ولما كانت سائر المعقولات قابلة للاخذ والرد . وكان من أساليبها المعمول بها فرض الفروض التي لا تتقل وتكلف الرد عليها ، كانت الشكوك والشبه من لوازم هذا الدور ، بل

(١) نحن لا نريد عموم النوع الانساني وانما نريد ارقى الامم منه فانه يوجد في كل عصر أمة يتركز فيها مبلغ الرقي الانساني كله .

من اخص مميزاته . لهذا وجدت بعض الافكار الحادة مجازاً الى الافراط والتفريط ، فتقصوا لباس المشككين ، وظهر في كثير من الامم رجال جعلوا دينهم التشديق بنفي الصانع ، وبناء النظريات الفارغة على مجرد الوهم . وما المانع لهم عن ذلك ما دامت المسئلة اصبحت فوضى وصار العالم الذي يشار اليه بالبنان هو الذرب اللسان ، الشديد المحاولة في كبح الخصوم ، واضحى العلم كل العلم هو دقة التعبير وابتكار ادق الاساليب ، لتكون بمنزل غن مماسك علم المنطق ؛ لا مانع من كل افراط وتفريط في صوغ النظريات ، ما دام السلطان المطلق للجدل العقلي ليس الا . من هنا ظهرت النظريات الاحادية ومال اليها بعض الفلاسفة فنشأت بينهم وبين الاعتقادين حروب قلمية ، استحالت الى حروب دموية وليس هذا موضع التفصيل .

تفنن الاول في ايجاد الشبه الدقيقة ، ومهروا في صوغ العبارات الجدلية وهبوا ينسفون اراكين العقائد من اصولها ، ويذرون بناءها الشاخ في عواصف الشكوك ، فلم يسع حفظه العقائد الا التآلب على دحض مفترياتهم ، وسحق نظرياتهم ، غير انه لم يمض الا قليل من الزمن حتى اصبحت الفرق المذهبية تعد بالآلاف ، لا يجمعهم أصل ، ولا يضمهم فرع ، فركن حزب الدين بما له عند بعض الامم من نفوذ الكلمة والسيطرة على الهيئة الحاكمة الى استعمال القوة ، بعد ما أعلنوا ان البحث بالعقل في اصول العقائد محذور ، ظناً منهم ان القوة تفعل ما لا يفعله الافئاع بالبرهان ، فقرروا من انواع العقوبات على المبتدعة ما ينفر منه طبع الانسان ، ثم اوغلوا في تنفيذ قانونهم هذا بغاية الشدة والصرامة ، ومالاًهم على ذلك اصحاب السطوة والسلطان ، وما علموا ان صرامة العقوبة لا تستطيع ان تقاوم السنن الطبيعية ، ولا أن تعكس بهير الاميال البشرية ، وانهم بذلك يزيدون الداء استعصاء ، والكلام انكاء واستشراء ، والنفوس جماحاً واباء ، وفي الواقع رأيناهم كلما تشددوا في التشفي والانتقام اشتد ساعد الاحاد ، وأندلع لهبه بين الافراد ، حتى حدثت في الازدهان ثورة فكرية ، تبعها ثورة فعلية ، قلبت شكل الوجود رأساً على عقب وخلصت العقل من اوهائه الاولى ، وبسطت للعلم والفكر ميدان الحرية ؛ هنالك ظهر من الافكار ما كان مستوراً مكنوناً ، وبرز على رؤوس الاشهاد ما كان سرّاً مصوناً ، ولعبت هزة النصر بالافكار المذبذبة دوراً مثلت فيه اقبح الادوار الماينخولية ، على مراسيح تلك الحرية العلمية . ومما زاد الطين بلة ظهور الفلسفة الحسية ، فصار من المقرر عند

الأكثرين ان زمان الاعتقاد قد فات وانقضى ، وانه لا يمر بضعة اجيال حتى تتلاشى آثاره من العقول دفعة واحدة . هذا ما حصل في دور الحرية العلمية الذي نريد ان نشبع الكلام فيه فنقول

الدور الثالث

(دور العلم)

لم يمر على حفظة العقائد دوراً اشد هولاً من هذا الدور . على ان حدوثه مع ما فيه من افراط وتفريط وغلواء وسفسطة وعناد ومغالطة كان امراً منتظراً لا بل حادثاً طبيعياً لان كل الرذائل التي شوهمت وجه هذا الدور كان لها مقدمات تقتضيها في الدور الذي سبقه فلم تكن لتوجد هذه لو لم تكن تلك .

ارتكب حملة بعض الكتب السماوية في الدور الفارط غلطات افراطية استدعت ما يقابلها من السفسطات التفريطية ليحصل التوازن بين الشقين المتنازعين ويؤوب الى الاعتدال من هدى الله من اصحاب القطر السليمة . وهي سنة من سنن الخالق تشاهد في كل خطوه من خطوات الافراد والامم .

من تلك الغلطات الافراطية ضغطهم على حرية العقل والعلم ، واهتمامهم بمحصر الافكار في دوائر ضيقة لا يمكن اجتيازها ، وزعمهم ان العقل عدو الدين ولا سبيل لفهم الدين بواسطة العقل . ومنها عدم اقذارهم بالعجز عن ادراك ذات الخالق وتشبههم بوصفه بما يروق لعقولهم وترضاه لهم مداركهم ، وحمل الناس على اعتقاد ذلك والعمل به ومعاينة كل من يناقشهم فيه . ومنها حسابانهم مسائل خلق الكون من الدين وتقدير الطبيعة بحسب افكارهم وقصر قواها وعجائبها على ما وصل اليهم من الاقاصيص القديمة الخرافية .

بلغ الغلو في حمل الناس على هذه الاغاليط الى حد انهم تربصوا لكل من يشمون فيه بارقة الحرية العقلية فنكلوا به شر تنكيل ، واذاقوه العذاب الويل فكم احرقوا من علماء وصلبوا من حكماء وسموا من نبلاء ازكيا ، حتى شوها وجه مذهبهم وجعلوه عنوان العسف والاجحاف ، بعد ان كان الدين رائد العدالة والانصاف . ولكن هيات ان يوقفوا سير ناموس

الرقى الذي يدفع الانسان بمؤثراته وفواعله غير المحصورة الى اجتياز كل عقبة وتخطى كل مفازة للوصول الى قمة ما اعد للوصول اليه . فكانوا كلما اوغلوا في الظلم والضغط تنبه الناس بحكم الضرورة القاهرة الى تلمس الخلاص من هذه السيطرة المخوفة المحفوفة بالمكاره وكلما نعى فيهم هذا الشعور بتوالى تلك الضربات القاسية وحملت حرارة الاسى في سويداء افئدتهم انفجرت ينابيع مواهبهم وملكاتهم ، واشرقت في صميم ذواتهم انوار مداركهم فشجعهم على الثبات والمصاولة، فصار اولئك الغلاة كلما صدوا لهؤلاء تياراً لا قام تيار اقوى منه سيرا حتى بلغ التدافع منتهاه ، وتكافأت القوتان وادرك اولئك المسيطرون ان حكم الله لا يرد ولا يعقب فالانوا الجانب وحاولوا ان يأخذوا باللين مانعاصى عليهم بالقوة فاخفق مسعاهم ولم يلبثوا ان تحققوا ان خصومهم احاطوا بهم من كل جانب وساوروهم من كل صوب فلم يسمعهم الا الصمت على مضض منتظرين ما ياتي به القدر .

هذا ما كان من اولئك، اما اصحابنا نصراء الحرية العقلية وزعماء العلوم الطبيعية والفلسفية فقد انتشوا بسلاف الانتصار وازدهتهم تلك الحرية المطلقة بعد ذلك التقييد الجهنمي ، فجازوا تخوم الاعتدال . وبدلاً من ان يرجعوا الى انفسهم ويتحدوا على ما يجب الاعتماد عليه من اصول العقائد ليحملوا العامة على تقليدكم في مناهجهم ، استقل كل بنفسه ووقع في مثل ما كان يجاهد لزالته من الافراط والتفريط فهم من ترك المعتقدات وشأنها حقيقة كانت اوباطلة واكب على درس المادة وحدها ومنهم من لم يقف عند هذا الحد بل تطوح الى نكران كل شيء لا يقع تحت حسه ؛ ومنهم من اطلق لنفسه عنان الحرية في الاعتقاد وكون لنفسه ديناً خاصاً بها ، وبقيت العامة بين هذه المذاهب المتشاكسة لاتدرى اى الطرق اقوم ولا الركون الى اى حزب اسلم، فادتها تلك الحيرة الشديدة الى مجافاتها كلها دفعة واحدة وصاروا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وثبتهم في موقفهم هذا تنازعهم في البقاء واستنزاف الاغنياء لسائر اوقاتهم في الشغل بتعصباتهم الاشعية ، فصار العامل يصبح مشتغلاً بجسمه ونمحه حتى يمسى ثم يتقاضى اجره درهيمات معدودة، ويذهب الى بيته فتنهال عليه وساوس الفقر والفاقة وسوء الحال فلا يجد مسلياً له من هذا الكد الواصب والهم الناصب غير معاقرة بنت الحان

فيصرف عليها ثلثي أجرته ويترك اولاده يموتون جوعاً^(١).

هذه الحالة التعمية تسبب عنها انتشار جملة احزاب وجمعيات مدمرة شريرة لا هم لها الا تغيير النظامات وتبديل الاحكام وابداء الحكام واصحاب الحطام . قالوا ما بالنا احط رتبة من الحيوانات في نظاماتنا الاجتماعية واقل تمتعاً منها بمزايا الحرية الطبيعية ؟ ما هي تلك القوانين المسطورة في بطون الاوراق، وما هي تلك الفئات التي تدعى لنفسها حق الاشراف والسيطرة على اميال الشعوب ؟ ما معنى رجل يتبخر في الاستبرق والحريز، ويتهاذى بين الحياض والازاهير، وامامه رجل ليس له من حق الوجود غير استنشاق الهواء، وتوقع القناء تحت كلال الضراعة والضراء ؟ كلا . ان المدالة كل المدالة هي ترك الانسان وشأنه تحت رحمة قانون التغالب ، حتى لا يفوز براحة الوجود الا من وهبته الطبيعة قوة الغلبة في هذا المعترك المشهود . وعلى هذا فمن الواجب تضحية كل مرتخص وغال في سبيل الوصول الى هذه الرغبة السنية بكل الوسائل الامكانية . بالحيل والمخاتل . وبالقنا والقنابل . بالمدى والمقابل . حتى يخلو الجو من هؤلاء المسيطرين ويتجلى عن الوجود هذا الظلم المبين .

هذه فرقة من فرق كثيرة يمد افرادها بالملايين نشأوا تحت سماء تلك التعاليم الالحادية وازداد عددهم بمؤثرات تلك المدنية المادية حتى خشي على بناء المجتمعات المتعدنة ان يتصدع ان لم تداركه الله بروح من عنده . كل هذه الزعازع والفتن لفتت عقلاء الامم الى تشخيص هذا الداء وتلمس الدواء ، فرأوا والبرهان امامهم ان ميكروب هذا المرض هو فقدان الدين وخلو الفطر من انوار اليقين فهبوا يستردون ذلك المفقود الغالي ويسترجعون ذلك الاكسير الشافي ولكن بأي الوسائل ؟ اخذت تعاليم الفلسفة الحسية من العقول مأخذها ولم يمد من الممكن ادهاشها بخيال ، ولا الهاؤها بزخرف مقال . اشمرت النفوس ان رضوخها لمحض الدليل العقلي تطوح بذاتها الى مثل ما كانت عليه في الماضي واتضح بطلانه في الحاضر، وعلمت ان ارتكانها على معقول لا يسنده من جانب الحس دعامة قوية ، لا يسلم من شوب المسائل الوهمية . فهبت تسترد اصول العقائد ولكن بنور العرفان وتسترجع مفقود اليقين ولكن بأسنة البرهان .

رجوع الانسان لدين الفطرة ﴿﴾

هذا الاندفاع من الطبيعة البشرية وراء تلمس العقيدة النقية ، المبرأة من كل الشوائب الوهمية والفروض الظنية، تعد من اكبر مميزات القرن التاسع عشر فقد اصبحت الشغل الشاغل لأساطين العلماء في البلاد المتقدمة لارتباطها بمستقبل الامم تمام الارتباط . جاء في مجلة المجلات الفرنسية مجلد ٢٤ ما يأتى : « ان هذه المسئلة هي أهم ما يشغل العالم المتمدن لأن مستقبل الامم المتقدمة يتعلق بحلها . »

ولكن من أى الطرق توجه العقل الحاضر الى حل هذه المسئلة السامية، ومن أى المنافذ سرت اليها اشعة الافكار المبرأة من خطرات الوسوس، وعلى أى دعامة ارتكز التصور للعود اليها ؟ لم يجد الانسان الحالى محيصاً امامه الا الرجوع الى أصل الفطرة التى فطر الله الناس عليها خصوصاً بعد ما أصبح من المقرر الثابت ان نزغات تلاعبت بالاديان فاخرجتها عن أصولها، ونزوات توزعت مبانيها فزحزحتها عن مراكزها اللهم الا تلك الفطرة الاولى التى لم تزل في كل دور من ادوار الانسان تبرهن على استقلالها وثباتها، قال (هنرى بترنجيه) المتقدم ذكره في المجلة نفسها « اذا كان الانتقاد التاريخي قد هدم كل الاشكال الثابتة غير القابلة للتغير في الاديان فانه لم يستطع ان يمدوا على تلك الغريزة الدينية بل قد شهد باستمرارها وشيوعها في كل دور من ادوار التاريخ وان كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم انه . ففي كل جهة وكل زمان وكل مكان قد شوه احتياج الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية في اخس الاديان الوثنية كما في ارقى العبادات الروحانية هذه هي الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الاديان فمن المستحيل عليه ان يطفئها ولكنه سينقلها الى المستقبل وحيث ان الاديان ليست الا مظاهر خيالية لهذه الغريزة الدينية، فستلاشى آجلا او عاجلا ككل الآثار الانسانية ولكن تلك الغريزة لن تتلاشى أبداً الا مع الانسان نفسه . »

هذا الرجوع من الطبيعة البشرية الى دينها القطري ليس ببعيد العهد عنا قال الكاتب نفسه (تؤمل في ذلك) (أى الوصول الى حل المسئلة الدينية) لا سيما وانه منذ مائة عام قد

كوّنت الديانة الباطنية ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين (فجان جاك روسو) و (لمرتين) و (لمنيه) و (ميشليه) و (كينيه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا (ارنست رنان) و (جيو) و (شوريه) و (سبتييه) قد اعطوها قوة جديدة ودقة عظمى .) فما هي يا ترى أصول هذه الديانة الجديدة التي يؤكدون انها غاية ما ترمى اليه مواهب الانسان من العقيدة ؟ يحسن بنا ان نلقى هذا السؤال على أساطين الفلسفة في اوروبا . قال الفيلسوف (كارو) في كتابه (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) :

(قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني (وهذا غاية التنزيه) ووجود روح في جسم الانسان متصفاً بالذكاء والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادى امداءً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها ان تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها ان تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس . ووضع الحرية الاخلاقية التي هي ينبوع واصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم والتهيب لساعة الموت بالزهادة . واخيراً الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى الانسان في مدارج السعادة المادية من المواطن الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة) وقال الفيلسوف الطائر الصيت (جول سيمون) في كتابه «الديانة الطبيعية» :

«كل اصول مذهبنا هذا واضحة لارموز فيها . اما اصوله فهي الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شئ ولا يغيره شئ خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة . ووجود حياة أخرى تؤدي لنا كل وعود هذه الحياة وتكافئ المظالم بالجزاء الاوفى » هذا ولا شك رجوع من عقلاء النوع الانساني الى الدين على أبسط أشكاله الى الدين الفطري الذي حمله الانسان معه بالفطرة . فلنرفع صوتنا اذن في ظل معارف القرن العشرين قائلين



﴿الاسلام هو دين الفطرة﴾

الفطرة لغة الخلق ، والخلق في اللسان المصري الطبيعة ، فالدين الفطري يمكن تعبيره باللسان المصري بالدين الطبيعي ومعناه انه لا يكلف الانسان الا بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته وقد سعى في القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعي في أوروبا وكونوا لهم ديناً سموه بهذا الاسم ولم يدخلوا الى أصوله الا ما تقضي به الفطرة الانسانية وتقر على حقيقته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزهاً على الرموز والاسرار عملاً بقول شيخهم الكبير (كانت) الفيلسوف الالماني حيث قال : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى الا على قوانين أعني قواعد صالحة للجري عليها نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعاليم الكهنوتية »

سلك هؤلاء ، هذا المسلك في القرون المتأخرة بعد ما سئموا من تناقض الاديان ، وانفوا من الرضوخ للكهان ، ولم يعلموا ان الدين الطبيعي قد اوحاه خالق الطبيعة على اشرف عبادته قبلهم بأكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء . الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق في كتابه المبين . ولتثبت لقرائنا ان الاسلام هو الدين الفطري الذي لا يمتريه الزوال ، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول :

تبين لنا ان الانسان على حالة البساطة الاولى ، والسذاجة المبدئية شعر بلزوم الاختبات لخالق ذاته ، واحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فلم يحرمه الله من اسعافه بعبادته كان يصطفهم لحمل اماته ، والقيام بتبليغ امره الى خليقته ، فكانوا يجيئون اقوامهم بدين الفطرة ، لان الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) ولكن الناس في تلك الاحيان كانوا من سن الحياة العمومية ، في دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات اكثر من الحقيقة ، فكانوا لا ينصاعون لرسولهم الا مادام فيهم ومتى انتقل الى العالم الآخر ارتكسوا الى عقائدهم الاولى مكسوة بثوب جديد ، حتى اذا جاءهم رسول آخر قاوموه وناذوه ، ومكروا به وصاولوه ، وماروه بكل حجة وجادلوه ، وفيما يحكى الله عن حالهم صورة من امرهم مع رسلهم قال تعالى : « وقال موسى ان تكفروا اثم ومن في الارض جميعاً فان

الله غنى حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في افواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا لنى شك مما تدعوننا اليه مريب . قالت رسلهم افي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليفغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان اتم الا بشر مثلنا يريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا ان تأتیک بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون»

هكذا كان حال الامم مع رسلهم في خلال تلك القرون المتوالية حتى جاء القرن السادس وسترى حال الامم فيه فيما يلي من الفصول ان شاء الله مما كان داعياً الى آية كبرى تردهم عن غوايتهم وتوقفهم من سكرتهم ، وقد كان ذلك ، فارسل الله تعالى خاتم انبيائه بدين الفطرة الذي ارسل الله به رسله من قبل (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) . فخطب الناس قائلاً عن ربه (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً) فدخل الناس أفواجاً فيه لانهم كانوا قد سثموا الخيالات المضلة التي مزقهم احزاباً ، وفرقهم افذاذاً ، فدخل فيه من غير العرب في قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ولم يزل ينمو لليوم بصفة مدهشة بتأثير المدنية الاوربية نفسها وان تعجب من ذلك فاليك التفصيل : قد رأيت ان الفارق بين الدين الفطرى اى الطبيعى والاديان الاخرى هو ان الاول مركّز على الحقائق المحسوسة والثاني على الخيال ، فيكون الانسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه ، والامم قبل سريان الحركة الاوربية الاستعمارية في العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها مستقيمة الى أساطيرها لا يزعمها عنها شئ : تؤله ماشاء من الرجال ، وتمجد ما ارادت من الحكماء والابطال ، والخلاصة انها كانت من الدين على خيال ومن المدركات في ضلال . فلما جاء دور الاوربيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار ، والكهرباء والبخار ، اقاموا لتلك الامم بأفواه المدافع والبنادق وبالسنّة المشرفيات الصوارم ، اكبر البراهين الحسية على ان عهد الخيالات قد مضى وان ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة ذلك الاله او كرامة ذلك الكاهن ، خرافات باطلة ، وترهات فاضحة فانجلى الدين عن افئدتهم وخوى جناتهم من العقيدة فاستعرضوا الاديان التي وصلت

اليهم فلم يرتضوا منها غير الاسلام ديناً لخلوه من الخيالات ، وارتكازه على المحسوسات ، فدخلوا فيه افواجاً افواجاً ولم يسمع في تاريخ الانسان ان القبائل بحذافيرها تدخل الى دين في زمن ضعف سلطة اهله غير الدين الاسلامي . وبناء على هذا فكلمنا توغلت مدافع الاوربيين في احشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار الحقيقة على الخيال ، وفتحوا لدين الله اكبر مجال « ان الله ليؤيد هذا الدين رجال ليسوا من أهله »

الاسلام هو الدين الفطري او الدين الطبيعي لانه لا يكلف الانسان الا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده ، ولا يجيئه من العقائد الا بما لا يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه وترقيه لان غرضه الاول تخلص النفس الانسانية من تلك الكسف الظلمانية التي اسدلها عليها حفظة العقائد ، وسدنة المعابد ، والزاعمين بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق ، وليطهر الافئدة مما ران عليها من آثار الوراثة والتقليد ، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصبات والجمود كان الناس من جهة الدين في غيابة من الوهم ، وظلمات من الجهل ، يقدسون اساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين ما لو أرادت البصيرة ان تتنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف في اصفاد اليأس ، واغلال اللبس ، من هول ما وضع امامها من عقبات وما احيطت به من غياهب وظلمات ، فكانت بين امرين اما ان تقتنع من الحياة بمجرد البقاء ولو كان الممه لزيماً ، والخيرة صفتها ، واما ان تحاول ان ترى النور فتعرض نفسها لخطر ايسره ان تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولا توها . جاء الاسلام والبصيرة في هذا الاين ، من ثقل نير الدين ، وفي لهف شديد ، الى نور جديد ، فصاح بالناس : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً »

كانت النفوس حيرى في معنى الدين ؛ لا تعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال المهن ، فقرر لها الاسلام بان الدين ضالة الارواح وانشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الراحة والطمأنينة ، ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لا تمعد فيه ، بمث الله به كافة الانبياء الى الامم رفماً لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسباً لما احتوشهم من نزاع : « كان الناس امة واحدة فاختلقوا »

اما ذلك الدين فهو الاسلام لله اى الاستسلام الى احكامه بالقيام على صراط الفطرة
المجردة عن الاوهام والافكار البشرية التى هى داعية الخلاف ، ومثيرة التناذب بخلاف الفطرة ،
فانها واحدة فى عموم النوع الانسانى فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليها ، ولا يتصور شقاق
بالانصياع لمقتضياتها « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من
بعد ما جاءهم العلم نبياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك
(اى جادلوك) فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والايمان
أأسلمتم ، فان اسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » « بل اتبع
الذين ظلموا اهواءهم بغير علم فن يهذى من اضل الله وما لهم من ناصرين . فاقم وجهك
للدن حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر
الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه واقموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين
فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون »

التفت الى اولئك الذين استعبدوا أنفسهم للاهواء ، وخضعوا لسلطان الاوهام ، وحصروا
عقولهم فى مضائق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم قائلاً : « ان هى الا اسماء سميتوها أنتم
وأبائكم ما انزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من
ربهم الهدى » ثم طالبهم بالدليل على ما حملوه عقولهم من هذه المدارك الفاسدة قائلاً : « اثبوني
بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا
ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تحرصون » « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »
ثم سجل عليهم انهم أسراء الوهم ، وعبداء الظن فقال : « وما لهم به من علم ان يتبعون
الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً »

ثم بين لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم لخراف الخيال ، الاسير
لكواذب الاوهام فقال « افمن كان على بينة من ربه كن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم »
ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر وخلصوا عن اعناقهم ربة الذل والاسر ، ونفضوا
عن رؤوسهم غبار الصغار والعبودية فقال « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك
بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور . ومن كفر فلا يحزنك كفره اليانا مرجعهم فننبئهم بما

عملوا ان الله عليم بذات الصدور » « ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً »

ثم امرهم ان لا يتبعوا ديناً من الاديان التي اقيم لها المعابد والكهان ، وصارت عبثاً ثقيلاً على هامة الانسان ، لما سرى اليها من الضلال والبهتان ، ولكن الزمهم الاعتراف بان اصل جميعها واحد ، وهو الناموس الاقوم الذي بعث الله به الرسل الى الامم كافة فلم يحفظوه من التبديل والتحريف ، فكلف الاسلام اهله بالايمان بها اجمالاً فقال : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

هذا هو الدين الفطرى فى بساطة معناه ، ومتانة مبناه ، وهو الذى دعا اليه الانبياء كافة وتمت الدعوة اليه بخاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت انه من جهة التدين لا يدعو الا لما يشعر به الانسان فى ذاته شعوراً ضرورياً طبيعياً ، اما تلك الاساطير التى طمت بها الديانات وعدت من اركان الايمان فيها فقد اثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرّة وصار اعتقادها والتمسك بها من الازراء بالعقل ، والتغيز بالنفس لانها ليست الا مبلغ علم الافدمين بالطبيعات والتاريخ توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلاً مقدساً كما هي سنة الناس فى احترام اسلافهم ، حتى صارت هي الدين بذاته وقد سبق القرآن العلم والفلسفة الى تقرير انها باطيل واوهام فقال « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ثم انبأنا بأن الاسلام مقدمة عصر العلم ، وطليعة دولة الحق ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعي الكبير الذي اكتشفه (دارن) و (ولاس) بعد القرآن بثلاثة عشر قرناً تقريباً وهو قولها (لا يبقى الا الاصلح) فقال تعالى بافصح عبارة واكمل بيان « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

اما من جهة العلم بالكون واشيائه فارانا اننا لم نعلم منه الا قليلاً وامرنا بدوام طلب العلم فقال تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلاً » « قل رب زدنى علماً » وبهذا فقد هدم صرح

تلك العقائد الباطلة التي يزعم أصحابها انها حوت علم الاولين والآخرين ، على السموات والارضين مما اذن الله به للعالمين ، وان ما عدها فرجس باطل ، وخيال حائل ، يستحق معلمه ان يحرق بالنار ، او ان يصلب كالفجار . اما من جهة سير الماضين ، واخبار المتقدمين ، مما جعلوها اساس العبادة والايمان ، وعلقوا عليها نجاة الانسان ، مما اثبت التاريخ المصري بالحس والعيان ، انها خرافات اخترعها الخيال ، وسطرها الجهال ، وانها ليست خاصة بدين دون دين ، ولكنها عامة عند الامم اجمين ، مما يشعر انها دأب الاولين ، فقد سد الاسلام هذا الباب سداً محكمًا بتقريره « وان ليس للانسان الا ماسعى وان سعيه سوف يرى » و « كل امرئ بما كسب رهين » و « تلك امة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » اما سرد حوادث الماضين فهي وظيفة التاريخ له فيها اسلوب خاص به مثل سائر العلوم الاخرى ، اما الاديان فوظيفتها اشرف من كل وظيفة وهي اقامة الانسان على سنة القطرة بتخليصه من كل مالميس طبيعياً فطرياً ، وتنزيهه مما يرضخ له تقليدياً . ليعيش حراً متمتعاً بمقله وفكره وحكمه ، لا عبداً لاهوام غيره . الا ترى انه لما سأل فرعون موسى كما قال تعالى : « فما بال القرون الاولى » اجاب موسى عليه السلام كما قال تعالى « قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » فانظر الى هذا الجواب النبوي الكريم الذي يشير بنغاية الصراحة الى ان التاريخ ليس من وظيفة الانبياء من جهة ، ومن جهة أخرى يشير الى ان سير اهل القرون الاولى ليس مما يمكن التهم عليه بتلك الجسارة التي تشاهد في الجهال بالتاريخ بل هي حوادث كبرى تحتاج لمثل ما يحتاجه كل علم من العناية والدقة . انظر الى هذا الجواب النبوي ثم انظر الى اولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم الى اليوم سرداً يشعرك بانهم شهدوا احوالهم ، ومن العجب انهم يعلقون على ذلك عقائدهم وايمانهم أما من جهة الاخلاق والعوائد فالاسلام لا يطلب من الانسان فيها غير الاعتدال والتوسط . لانه لما كان الدين الفطري (او الطبيعي بلهجة أهل العصر) فينظر للانسان نظر العلم الطبيعي له اى بصفته ابداع الانواع الحية واكمل نموذج للصورة المادية « انا خلقنا الانسان في أحسن تقويم » ليس في تركيبه الخارجى والداخلى ولا في شكله الصورى والمعنوى زيادة ولا نقص لو اتبع في نموه قانون الحكمة الالهية ، ولكن الخالق الحكيم اذ أعده الى منصات

من الكمال يحسر دون ادراكها التصور، فقد متمه بخاصيتي الاختيار والارادة وأراه طريقى الاعتدال والانحراف بالقطرة وبالوحي، وصرح له بأنه ان اعتدل نال غايتي كماله المادي والادبي وان انحراف ارتطم في عقبات النقص وارتد الى اسفل من عالم الحيوان كما هي السنة الطبيعية في هبوط العالى فقال تعالى: « انا خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »

نظرة على الادوار التي تنتاب العقائد

من اكبر الشبه التي يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور المليون، ويفض بها الماديون من أئین الاعتقاديين هي قولهم ان الانسان مر ويمر من عقائده على ثلاثة ادوار (أولاً) دور الاحترام والاجلال، والاعتقاد بانها نهاية الكمال (ثانياً) دور الشك والارتياب، عند يقظة الافكار والالباب (ثالثاً) دور العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده، وينال الانسان رشده، فيعلم ان الاديان أساطير الماضى، ووساوس الاقدمين فيتركها ويتجه للعلوم يفتدى لبابها، ويستسقى ربابها، ويكون بذلك كالشباب جاز دور الطفولة، واتسم بصفات الرجولة، تمر به مدرسته القديمة فيعدها حليماً لذيذاً، وخيلاً مسلياً، ويضحك منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل؛ ثم يأخذ في شأنه من الجد وراء الحقائق المحسوسة والدأب لاستغلال خير الطبيعة، وتحسين بنى نوعه من كل الوجوه الممكنة

نقول ان هذه المقولة ان صدف في نفس صروح العقائد التي انس بها الانسان في دور طفولته، فلا تصدق على الاسلام الذي ارسله الله عند ما بلغ الانسان رشده وسئم الوصاية عليه. واليك التفصيل:

المسائل الكبرى التي يطأطأ المسلم امامها رأسه ويحترمها جهده هي بعينها كبرى المسائل الفلسفية التي ستبقى مادام الانسان حياً، نقطاً بارزة في حياته يزيد ما مر الايام وضوحاً وجلاءً، وتكسوها زيادة العلم كمالاً وجلالاً وهي

اولاً -- ان لهذا الكون الباهر غير المتناهي صانعاً حكيماً « لا تدركه الابصار » ليس كمثل شئ » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » « اعطى كل شئ خلقه ثم

هدى « خلق كل شيء فقدره تقديراً » ولا ينكر احد ان هذه كبرى المسائل العالية التي لا يتصور زوالها بوجه من الوجوه .

ثانياً — ان للانسان روحاً غير مادية لها حياة خالدة في وجود غير هذا الوجود . وهذه ايضاً من المسائل العظمى التي اصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول كما تنقله عنهم في كتاب ما وراء المادة

ثالثاً — ان لله ملائكة وهم خلق متجردون عن المادة « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » وهذه ايضاً مسألة اثبتتها مسألة استحضار الارواح اثباتاً حسيماً كما ستراه ان شاء الله

رابعاً — ان لله رسلا من الناس يتمتعهم بخاصية الاشراف على الملا الاعلى ويستودعهم اسرار وحيه ، وقوانين الدين ليلفوها الى أمهم « وان من أمة الا خلا فيها نذير » وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم « كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » وهذه ايضاً مسألة كبيرة زادت بها مسألتنا التنويم المغناطيسى واستحضار الارواح جلاء ووضوحاً لما اثبتنا من ان الروح الانسانية اذا جردت عن الاشتغال بالماديات امكنها ان تستقى معلوماتها بدون وساطة المشاعر كما فصلنا ذلك في محله من كتبنا

خامساً — الكتب التي يرسلها الله الى خلقه أي وحيه الى انبيائه ، وهي مسألة كبرى ايضاً لا يرتاب فيها الا من يجهل علم ما وراء المادة المصري كل الجمل ورضى ان يكون واقفاً من العلم حيث وقف ملحدو اوربا قبل قرن من الزمان وزعم ان الكون محصور على ما يعلم ... (سادساً) مسألة القضاء والقدر وهي مسألة عظيمة توزعت عقول الفلاسفة اجمعين من القدم لليوم ، ولها أنصار وزعماء حتى من الذين لا يمتقدون بغير المادة ، لان تشبع الفكر المصري بوجود نواميس للكون ثابتة لا تتغير تجمل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعي نفسه

هذه هي مسائل الاسلام التي نحترمها وامرنا بالتفكير فيها للوصول الى المدركات العالية منها وقد رأيت انها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم ، وانها مما لا يتصور في العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى في أي دور من ادوار الرقي العقلي لارتباطها بحياة

الانسان مباشرة ووقوفها في مهبط فكره ومضطرب ذهنه

اما دور الشك فان صح على العقائد الاخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه .
الشك هو التردد في صحة شيء ودواؤه العلم . وقد رأيت ان المسلم ليس له من العقائد الا
ما هو مغرور في طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده ، وهي تلك المسائل الست ، وبما انه
قد يطرأ الشك للانسان فيها لقلة علمه ، فالاسلام لا يعاقب الشاك او المستشكل بالحرق بالنار
او بالصلب بل بدوائه الحقيقي وهو العلم واستئزال روح الرحمة الالهية من قبله ، وقد وعده
الله بحسن النتيجة فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » بل
انذر الضارب عن العلم صفحاً بالطبع على قلبه فقال عز وجل « كذلك يطبع الله على قلوب
الذين لا يعلمون »

قلنا ان الاسلام جاء بعد ان بلغ العقل الانساني اشدده ولذلك فهو لا ينزل الانسان منزلة
القاصر بل الراشد الذي له حق التصرف بفكره وارادته ، بخلاف الاديان الاخرى التي ادعى
قادتها انهم اوصياء على الانسان وانه لاحق له في استعمال عقله وفكره في شؤون حياته الا
طبقاً لما يوحونه اليه من التعاليم والقواعد ، وقد اساؤوا استعمال هذه الوصاية لحد ان الناس
تركوا الدين من اجلها وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلاد دام قروناً متوالية ، وعدى
على حياة ملايين كثيرة من الابرياء ، اما الاسلام فلم يجعل لاحد من بنيه حق الوصاية على
غيره ، بل اسبغ على الكل نعمة المساواة الحقّة وآخى بينهم اخاء ملكوتياً لم يسبق له مثال في
تاريخ العالم ، وجاء الخطاب عن لسان العزة الالهية بهذا القسطاس العادل : « الجنة لمن اطاعني
ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » ولذلك تراه يخاطب ابناءه
عموماً بلسان واحد لا يخص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلة دون قبيلة ، ولم يعلق نجاة
روح على روح أخرى وفي هذا الحديث الشريف اكبر عبرة لمن يعتبر : « اعلم يا فاطمة فاني
لا أغني عنك من الله شيئاً » وهذا غاية ما يتوق اليه انصار حرية النفس ، ومحبو رفع القوة
الاستبدادية

انظر الى هذا المثال الباهر من الحرية وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذي طوق به
قادة الاديان الاخرى اعناؤاً ، اتباعهم حيث علقوا نجاة السواد الاعظم منهم بشفاعة رجال

فلائل او رجل واحد . ولا غرو فانهم يتصورون الخالق تعالى على صورة الملوك الارضيين الذين لا يمكن التقرب اليهم الا بالتوسل بحاشيتهم وذوى الزلفى منهم ، اما المسلم الذى ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين ولا يجرى عليه صفة الملوك الارضيين ويعلم انه ارحم الراحمين ، واكرم الاكرمين ، وانه ليس بينه وبين عبيده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وانه سميع مجيب « وهو اقرب اليه من حبل الوريد » فانه لا يحتاج لمن يقربه اليه زلفى غير صالح اعماله ، وعقائل صفاته : اما التعلق بشفاعه الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقربين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم فى الدين ، وما ورد من ذلك عندنا فمفيد باذن الله ومعلق على أمره بالنسبة لبعض مستحقي المغفرة قال تعالى « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » « وكم من ملك فى السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . » اما اولئك الذين ليس لهم فى اعمالهم ما يؤهلهم للحظوة بمغفرة الله فلا يستطيع احد ان يشفع عنهم قال تعالى « فالحكم من شافعين » « فانتفعهم شفاعه الشافعين » هذا الاصل وحده هو اهدى قائد لنفوس الآخذين بالدين الى باحات الحرية ، وأقوى باعث لهم الى ساحات المساواة الأخوية ، ومن يعلم ان الحرية اصل كل الاصول المهدبة للأمم الرافعة لها الى منصات العظم ، الباعثة الى نفوسها روح الهمم ، يتحقق معنا ان هذا الاصل كان من اقوى الاسباب التى نهضت بأسلافنا الاولين الى أعلا عليين ، بينما كان غيرهم فى أسفل سافلين ، مأسورين لرؤساء الدين ، ويتأكد معنا انه كما كان سبب اسلام عشرات الملايين ، من الاقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين ، هرباً من الضغط المهيمن ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للعواطف ، المالك للاميال فى هذه القرون وما بعدها حتى يخلص السلطان للاسلام ويكون الدين كله لله . فان روح هذه العصور المتأخرة قد بعثت الى قلب الانسان حب الحرية والمساواة وسينمو هذا الشعور فى الانسان بتوالى الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، واين يوجد ما يلائم هذا التصور غير الاسلام الذى يخلى بين الانسان وربّه ، ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل اننى هدى الى ربى الى صراط مستقيم ، ديناً قىما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وأنا أول المسلمين . قل اغير الله ابني

رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »

والباحث في أسباب خلع اوروبا لطوق العقائد يرى من اهمها مسألة الشفاعة والوساطة . قال الفيلسوف (لوسيان اريا) في كتابه (عقائد الغد) : « ان كراهة الناس لرؤساء الدين هي التي ولدت في أكثرهم كما يظهر لى المجافاة للدين . فأن الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين لا من الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضع المناقشة في مؤتمر الأديان ولكنها فيما أرى من المسائل الأولية التي يجب حلها في مستقبل قريب » انتهى . وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزايا الكثيرة التي للاسلام على سائر الأديان وأقرب شاهد على ذلك ما ورد في (المجلة) الفرنسية في جزء ١٥ مايو وهو : « ليس في الاسلام البتة لاطقوس دينيه ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هياكل ولا شيء مما يعتبر شرطاً أصلياً في اداء العبادة . بل فيه ان الانسان شفيع نفسه امام خالقه فتراه يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه ، وبعبارة الاصطلاحات الدينية الاسلام يعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة . »

قلنا الاسلام ينزل الانسان منزل الراشد لا القاصر ولم يكله من العقائد الا ما لو خلى ونفسه لاهتم بها لانها نتيجة عواطفه المغروزة في طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغط على فكره او حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين ، حتى فرضه على عموم أتباعه من ذكر أو أنثى ، وسن لهم كل ما من شأنه زيادة الدلم ونمو مادته . كالسياحة واستشراف أحوال الامم وتعرف نواميس الخليقة والعمران . وكانظر في الكون وتنور اسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة « أو لم يسيروا في الارض فينظروا . الخ الآية » « قل سيروا في الارض فانظروا الخ الآية » وقال عن النظر في الكون « وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم ، افلا تبصرون » فانظر كيف ان السياحة واستطلاع احوال الامم والكون التي شككت اليونانيين في عقائدهم قبل الميلاد باربعمئة سنة ، وحلت معاهد عقائد الاوربيين في ابان اختلاطهم بالمسلمين واشرافهم عن مدنيتهم كما اثبتنا لك ذلك في كتاب الاسلام ، قد ندب اليها الاسلام بصفتها مقوية

للعقيدة ، مثيرة لروح الدين ، مثبتة لاراكين اليقين حتى قال الله عن السياحة « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » وقال مبكناً الذين لا ينظرون في مساتير الطبيعة « وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فاي فرق هائل بين دينين يقوى احدهما بما يهدم الآخر ، ويحيي بما يلاشي ضده ؟

السياحة تزيد في سعة المدارك وتشرف بالانسان على اسرار العالم وعلى نواميس العمران والحراب في الامم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة . والنظر في الكون نتيجته توسيع نطاق سلطة العقل الانساني على الادراك ، والسريان في ضمائر الكون ، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التي هما جديران بها من هذا العالم البديع ، وتخويل القوة البشرية خاصية استخدام قوى الكائنات في تحسين الحياة الانسانية وتهذيبها بما يفتح للعقل من مغلق المساتير ومؤصد الاسرار . وهذا كله كما لا يخفى يعلمو بالعقل والفكر ويسمو بهما درجات متوالية على اقدار محسوسة فيحصل ما يسمونه الترقى في الهيئة الاجتماعية ، وهذا الترقى كما يحصل في الصنائع والفنون كذلك يحصل في المدركات والعقائد ، والدليل على ذلك ان كل امة ترقى تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد ارقى منها . وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على اتباعهم ، وقرروا ان كل علم لا يوافق العقائد فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الاسلام هذه السنة التي جرى عليها حفظه العقائد ويعلق كمال الايمان وتمام اليقين على ما احدث الشكوك في اذهان أهل الاديان الاخرى وانتزع العقائد من افئدتهم ؟

ذلك لان الاسلام كما قلنا لم يكلف الانسان من العقائد الا بما لوترك وشأنه لتعلق به من نفسه لانه نتيجة قوى عواطفه واحساساته ، وهي تلك العقائد الست التي ذكرناها آنفاً ، ثم انه بعد ذلك لا يكلف الانسان الا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه خلماً كلياً ليستوى بشراً سوياً خالصاً لله ، لا تمثالاً محشواً باقدار آبائه واجداده ، وضلالات اسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل في قواه ومواهبه ، او مسلوب التصرف في نفسه . فما

الذي يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم ؟ وهل للروح المسلمة غذاء غير العلم ، ونور غير الحكمة ، « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء »

اذا تقرر هذا فهل يسرى قانون الادوار التي تنتاب العقائد على الاسلام . وهل يخشى على المسلم من تشيع فكره باحوال الامم وعظمة الكون ، وهل يليق بعد هذا ان يقال لمسلم انك لا ترتقي الا اذا خامت طوق الدين من عنقك كما فعله غيرك من الامم الراقية ؟ وهل يقال له انه من الحياة الانسانية في دور الطفولية او انه يود ان يبقى في ذلك الدور ويسابق الامم الاخرى التي تجاوزته ؟

ان الذي حرم المسلمين من التمتع بمزايا دينهم هو إضرابهم عن السياحات وعن تعرف الاحوال والنظر في الكون ومتى جاء ذلك اليوم الذي يأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية ان تنفذ الى اوروبا من خلال هذه التعصبات القديمة المتكاثفة لما ترتقي روحها السائدة في هذا الجليل عما هي عليه درجات اخرى ، فسترى في ذلك اليوم كيف يكون رجوع الحق الى نصابه بل كيف يكون الدين كله لله « ولتعلمن نبأه بعد حين »

﴿ ما هو الاسلام ؟ ﴾

﴿ زيادة يان ﴾

لو ادرك الناس كافة معنى الاسلام وفقهوا كنه ما يرمي اليه لما بقي على وجه الارض من يدين بدين آخر ، لانه مطلوب كل روح ومرمى كل قابلية ، وأنشودة كل استعداد ، ومطمأن كل احساس ، ومتهمى كل عقل من معنى الدين والايمان ، وهذا سر قوله تعالى (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ولولا ان الاسلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد ، ويلائم كل عاطفة واحساس لما كلف الخالق به عموم خلقه من انس وجن وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) هذا اجمال يستدعي شيئاً من البسط وانا موجزون الآن بحثاً في هذا الموضوع نفصل به للقارئ معنى تكليف الخلق كافة بهذا الدين ونفسرله ما يقوله علماء المسلمين من ان هذا

الدين سيرث عموم الاديان وسيسود على جميع نوع الانسان ، وانه منطبق على كل قابلية وصالح لكل جيل من البرية . وهو بحث جليل الفائدة يجلي لنا الحقيقة الاسلامية في اجلي مظاهرها واكمل معانيها

(الناس أمام الاديان)

الناس ثلاثة اقسام : فهم إما جهلة لا يدرون من معنى الوجود والحياة والعالم الا ما علمه بعضهم من افواه بعض علماء ناقصاً مشوشاً ، وإما علماء وقفوا على غايات العلم على قدر ما فتح الله على الناس من حقائق طبيعية واسرار كونية ونواميس وجودية . وإما اوساط لم يخطوا الى حضيض الجهال ولم يصعدوا الى منصات العلماء فهم وسط بين ذلك . هذه اقسام ثلاثة كلية بينها اقسام ثانوية قد لا تعد ولا تدخل ضمن حد . فان الجهال اصناف شتى وطبقات عدة ، وكذلك العلماء والاوساط ؛ الا ان صعوبة هذا الاستقراء وعدم فائدته لنا في موضوعنا هذا يقف بنا عند هذه الاقسام الكلية ؛ فانا انما نريد ان نعطي قارئنا صورة جمالية عامة لها صور تفصيلية لا تستقصى تتغير بتغير الاحوال والظروف ، ولا يمكن ادخالها الى قاعدة . فلندرس الآن كل من هذه الاقسام من حيثة علاقته بالدين ليرى قارئنا تفصيل ما اجملناه له في مقدمة هذه المقالة ببيان جلي وشرح كاف فنقول :

﴿ حظ الجاهل من الدين ﴾

قلنا الجهال اقسام لا يمكن حصرها بالضبط ولا فائدة لنا هنا من التقيد بها والسعي في حصرها فانه يكفيننا ان نعرف مقدار الجاهل في العرف فقط لا نريد بالجاهل من لا يقرأ ولا يكتب فقط فقد يكون الرجل قارئاً كاتباً وهو من الجهل بحيث لا يدري انه جاهل

اذا كان يمكننا ان نشبه حياة العالم بحالة الانسان في اليقظة في وضوح مجال الوجود امامه ، ونصوع اشياؤه في نظره ، وادراكه اطراف علله في انتاج معلولاتها ، وارتباط أسبابه بمسبباتها ، وانتظام حلقات الكائنات واتساقها ، يمكننا ان نشبه حياة الجاهل بحالة الانسان في الحلم فهو يرى ويسمع ويبصر ويشم ويحس بكل ماهو من خصائص الحس ولكن احساساً ناقصاً غير مرتبط ولا متسق . يرى الملل ولا يجد من نفسه القوة على رؤية معلولاتها ويرى المعلولات

ولا يرى عليها فيخلط بينها خلطاً وربما علل وجود الشيء بما هو سبب عدمه . يرى الحوادث تترى وتمر فيحسبها حوادث يقذفها الوجود على غير قاعدة ، وتأنظها الشؤون بغير ضابط ، لا حظ له من تناليها الا الاشراف على آثارها والفرح والحزن بما يقع على حسه منها

الجاهل قليل العجب بالبدائع ، ضعيف الشعور بالجمال على اخص معانيه ، لانه لا يعرف النظام ولا يدرك معنى الائتلاف والاتساق ، ذئب الحظ من اللذة من حيث هي لانه محروم من اللذات المعنوية لعدم قابليته للشعور بها ، ولا نصيب له من اللذة الا ما يشعر به جسده وهو مما يشاركه فيه العالم ويزيد عليه شعوره بمكان تلك اللذة من عالمها الخاص بها

كل منا علم الجهل علماً ذاتياً وذاقه ذوقاً وجدانياً حينما كان طفلاً من بعد السنة السابعة الى السنة الثانية عشرة تقريباً ، وقد يزيد هذا التقدير عند بعض الناس وقد ينقص على حسب الاحوال وهو امر لا يغير جوهر الموضوع ، فكنا ذاق الجهل وعلمه ويستطيع ان يعطى نفسه منه صورة على قدر طاقته في تصوير المعاني ومكانه من حسن الذاكرة

هذا الجاهل لا حظ له من الدين الا على قدر ما يخفف عنه من ألم في مصيبة ، ويخفف له من دمة في نازلة ، من وعد بأجر ونعيم ، وإيماد على معاقبة عدو لئيم . اما فيما يسمو على ذلك فشعور الجاهل به ضعيف ، وطلبه له اضعف . لذلك ترى شيعة الباطل من الاديان جهالاً كلهم وقد يكون معهم افراد من الاوساط المتأثرين بآثار العادة والالف ، لانهم لا ينتظرون من الدين الا التعزية في وقت الشدة ، والعدة بالتعويض في دار بعد هذه الدار . وهذه الخاصة موجودة في سائر الاديان على خلاف بينها في وجوه تلك التعزية ووسائل ذلك التعويض وموجباته . لهذا لا يفكر الجاهل في ان يشور على دينه بشك ، او يقاومه بريسة ، وان كان يتألم من تناقض يحده في بعض قواعده ، واختلاف يصادفه في أمهات مسائله ، الا انه ألم لا يلبث مع سلطان العادة وبطش الوراثة وسطوة التقليد الاعمى ، فتراه لا يكاد يضطرب بوجدانه هاجس من مقدمات الشك حتى تنفاه غاشيات الوراثة من كل فج ، فيعتري ضميره نوعاً من الانماء فلا يفيق الا وهو في واد آخر من أمور حياته وشؤون جهاده . مع كل هذا فالجاهل المسلم احسن حالا واوسع صدراً وأقل هواجس وارواح روحاً من أى جاهل من جهلة الاديان الاخرى ، لانه لم يكف باعتقاد ما لا يعقل ولا بتصدق ما

لا يدرك ولا يعمل ما يشق عليه ولا يقتل عاطمة من عواطفه . فهو يحس من نفسه الحرية ويأنس من روحه الغبطة والسرور دائماً ، فتراه في صلاته وصومه ونسكه وتسيجه حتى في سلامه ودعائه فرحاً مسروراً مطمئناً مرتاحاً ، يكرر الحمد مراراً في يومه على ان خلق مسلماً ولا يرى فوق ذلك نعمة ، ولا يجيش في صدره ان يرتد عن دينه لاي سبب يمكن تصوره . بينما نرى جهال الامم الاخرى يسلمون كثيراً ولو عنيت صحف الاخبار في بلادنا وفي غيرها باستقصاء عدد الذين يسلمون يومياً لبلغ في السنة مئات الالوف . وقد سمع عن اهل الملل الاخرى من يهدد اهله باسلامه اذا لم يسعفوه بمطلوبه ولم يسمع عن اجهل المسلمين مثل هذا التهديد مطلقاً ولو بلغ ألمه وكدره اقصى مبالغه ، وفي هذا دليل محسوس على الطمأنينة السائدة على نفسه ، والهدوء المستفيض على روحه

(الاوساط والدين)

قلنا ان بين الجهال من الامم والعلماء طائفة وسطى لم تتخط الى حضيض الجهل ولم تصعد الى قمة العلم فهي في عالم وسط في الحياة ويمكن تشبيه حالها في الوجود بالنسبة لشعورها به وبنظام كائناته وارتباطها بحالة الانسان بين النوم واليقظة ، يشعر شعور الصاحي ويدرك مداركه وليس كالصاحي في ضبط علاقات ما يقع على حسه من الحوادث ، وادراك النسب الموجودة بينها ، وهو لا يفني بذلك ولو غني به وسعى وراء تحصيله خائنه وسائله فيحصل منها ما يشبه الحقيقة وليس بها . ولو كلف نفسك باستشراق افكار هذه الطائفة وهي الشق الاعظم من متورى الامم لرأيت لكل من افرادها فلسفة خاصة تشمل كل المسائل الانسانية . فله فلسفة في الدين والعلم والمدنية وال عمران وال اخلاق على قدر وسائله تعطيك شكلاً فلسفياً كاملاً وان كان ناقصاً من جهة الاستقراء والاستدلال وخالية من روح التحليل والتشريح ، ولكنها على اى حال فلسفة يقنع بها اهل طبقتها ويقف معها ذووها من اهل درجتها قلنا ان هذه الطائفة لها فلسفة على الدين خاصة بها فتطلب ديناً ينطبق على مقررات

العقل ولا ينافي بدائنه الحس

ديناً يحبها في الحياة ولا يزهدا فيها

ديناً ينشطها للعمل ويجريها على استصلاح المعيشة

ديناً يحثها لطلب العلم ويدعوها لاحترامه واستثماره
ديناً يبيح لها مجال الفكر ويفسح لها ميدان النظر
ديناً يسمح لها بالتمتع باللذائذ البدنية المعتدلة ولا يحرم عليها الا الافراط فيها
ديناً يفيض على نفوسها روح الحرية ويثبت في افئدتها حرارة الشم والحمة
ديناً يفضي بالروح الى خالقها ولا يقيم الوسطاء بينهما
ديناً يرحمها في ضعفها ولا يطالب منها فوق طاقتها ويتنزل معها الى حيث هي ويعلو بها
ولا يعلو عنها
ديناً يراعى بها ادوار الطبيعة ويلاحظ لها اطوار الحياة فيعطى لكل دور ما يناسبه ،
ويقابل كل حال بما يلائمه

هذا هو الدين الذي يتطلبه الاوساط من الامم ولا نجد فيما نراه من صور الاديان
الموجودة للآن ديناً فيه هذه الخاصية وزيادة غير الدين الاسلامي . لذلك ترى الاوساط من
هذه الامة اغير الناس على دينهم واحماهم قلباً على كرامة ملتهم ، حتى انه ليوجد بين اوساط
هذه الامة نهضة دينية تشبه من كثير من الوجوه تلك النهضات التاريخية ، وقد سرى تيار
هذه الحماسة الدينية في الافئدة كافة وصار من مقررات الرأي العام اليوم ان تأخر المسلمين
سببه ترك الدين وهجر تعاليمه ، وهو اجماع عجيب في عصر هجر الدين فيه كل الامم الراقية
والاسلام وان يكن حقيقاً بهذا الاجماع وزيادة ، الا اننا نعجب من ان فتنة المدنية التي اجتاحت
كل عاطفة فينا كيف ابقت على هذه العاطفة الدينية مع معارضة المدنية لها جملة وتفصيلاً
هذا عجيب في ذاته ولا علة له الا ان الاسلام انشودة روحية غالية جداً لا تسطو
عليها فتنة مهما عمت وطمت ، بل ربما كانت الفتنة تبعث النفوس اليها وتأخذ باكظام العواطف
لهفا عليها

كيف لا يكون التفاف اوساطنا حول الاسلام عجبياً وكل شيء في الشرق الاسلامي
اليوم منفر من الدين ومبعد من الايمان واليقين ؟ امامهم مدينة قامت بلا دين بل بنت
عظمتها من انقراض مجد اشياعه وهي للآن تعمل على اسقاطهم وراحة العالم منهم ، وبين
يديهم جرائد ومجلات تدس لهم السم في الدسم ، وتصور لهم العلم الاوروبي في صورة وحش

كاسر سطا على العقائد فقوضها ، وعلى التقاليد الانسانية فهدمها وعلى كل قديم فاوهى اساسه وتركه خاويا على عروشه ، وزيادة عن ذلك فين ايديهم نفر من شذاذ الآفاق اتوا بلادهم للارتزاق وهم من عدم احترام دينهم بالمكان الاسفل وكفى بهم مثالا سيئا لامة اصابتها مموهات سحر هذه المدنية اصابته افقدتها التميز والرشد . اليس اصرار اوساط المسلمين الآن رغما عن كل هذه الحوائل على الدعوة الى الدين والحماسة به يعد امراً عجيباً مدهشاً ؟ نعم والذي هو اعجب من هذا وادعى للبحث هو ذلك السر الكبير الذي اودعه هذا الدين القويم ، وما منحه من لدن خالق الكون والانسان من تلك القوة الطائلة التي تسبح له ان يقارع بها كل هذه الحوائل الصورية والسواحر المغنوية والفتن الاجتماعية والفردية ويتغلب عليها ، وتكون في القرن الرابع عشر الهجرى او القرن العشرين الميلادى على الصفة التي نحن عليها نتظر روحا اسلامية تحل بنا ، وحياة محمدية تفيض علينا ، فترجعنا الى مثل ما كان عليه ابائنا صلاحا وكالا .

لا يمكن ان يكون هذا كله الا لأن الاسلام حاصل على الخصائص التي ذكرناها وزيادة ولولم يكن كذلك لما امكن ان يكون هذا اثره على العقول والعواطف في عصر اصبح فخار اهله فضلا شعارهم الطعن على الاديان والافرار بتخلصهم من سلطة سائرها هذه الطائفة الوسطى تترى افرادها شكوك في بعض مقررات الدين ، ولكنها شكوك مشوبة بماطفة من الغيرة والحب ، فترى الرجل منهم يشك ويتمنى من صميم فؤاده ان يرزق بمن يزيل له شكه ، وربما تألم من شكه اكثر مما يتألم من فقد ابنه مخافة من ان يفصله ذلك الشك عن انشودة روحه ، ومطمأن عواطفه وهو الاسلام ، وقد رأينا باعيننا شاكين يتألمون من وجود الشاكين ، فهم بهذا الفعل المتناقض كأنهم يترفون في سويداء افئدتهم بفساد شكهم وحقيقة الدين في ذاته ، وان كان عقلم يتطلب برهانا من عالم العلم يزدادون به قوة في عالم الاعتقاد ، وهذه ساطة على النفوس قد لا تصادف في متبعي دين غير هذا الدين يقول بعض المتفلسفين هذا تأثير قانون الوراثة ، واثر من آثار قوة العادة ، ويغيب عنهم ان لقانون الوراثة حدا محدودا ، ولسطة الاوهام العادية نفوذاً معلوماً ، فان الحقائق الساطعة ، بل الحوادث المضلة والفتن المفسدة المستمرة تقف امام قانون الوراثة حيناً او احياناً ثم تحل

عليه حملة منكرة فتبدد آثاره تبديدا ، وتصل في اندفاعها الى ابعد ما تصل اليه لو كان الطريق امامها خاليا ، لذلك ترى فجور الفاجر بعد الصلاح اشد وطأة من فجور من نشأ على الفجور من اول مره

على ان هذا القانون الشديد البطش لماذا يصدق على المسلمين دون غيرهم ؟ ها هي شعوب اوروبا لم تقو فيها الوراثة الدينية على صد كئائب الشبه والشكوك فجنحت الى الالحاد عامتها وخاصتها وجاهر الكل بنبذه للدين على حد سواء . بل هذه أمم الشرق الاقصى من الهند الى الصين الى سائر الامم الاخرى سواء كانت اسيوية او افريقية مما يستوي في الجهل مسلموها وغيرهم ترى المسلمين ثابتين على دينهم ، فرحين مستبشرين بمقائدهم ، وترى غيرهم من الوثنيين المجاورين لهم يدخلون الى ملتهم افواجا افواجا بطريقة مستمرة تشبه الحوادث الطبيعية ذات النواميس الثابتة . فلماذا تشتد آثار الوراثة على المسلمين وتضعف عن الآخرين ؟ أليس لكون سلطان الاسلام على العقول والارواح قويا جداً يصعب ان لم نقل يستحيل زحزحته عن مكانه ؟

هذا الاثر بعينه ظاهر في الطبقة الوسطى من المسلمين اذا قورنوا بأمثالهم من الامم الاخرى وهو دليل محسوس على ما نقول من ان الاسلام مطلب كل روح وانشودة كل استعداد وقابلية

كما ان هذه الطبقة الوسطى لا تنزه عن شك في الدين كذلك هي عرضة لنفثات المشككين ولكن لا نتيجة لهذه النفثات الا تبييتهم في دينهم وان كان ذلك خلاف المتبادر للذهن ذلك لان المشككين انما يتصيدون الشبه على القرآن وعلى الداعي اليه تصيدا ، ويتعسفون في صوغها تعسفاً بيئاً ، وفوق هذا كله فانهم يتسلحون لها بسلاح من الانتقاد ماض جداً فاذا تشبع احد المسلمين بشبهاتهم وتسلح بتلك الاسلحة الانتقادية في نقد ما يقدمونه اليه من تعاليم ديانتهم التي يدعون اليها كر راجعا الى الاسلام رغم انه لما يجده امامه من التناقضات والتمكسات التي لا تدخل تحت حصر فيرجع للاسلام لا رجوع المفضل له على غيره ، بل رجوع الموقن به المتحمس له تاليا على نفسه قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)

ثم ان هذا التشكيك على دين الاسلام من أولئك المشككين يفيد الاسلام من جهة النشر فائدة كبيرة جداً . ذلك انا قلنا انهم في تشكيكهم يتصيدون الشبه تصيداً ويستعملون سلاحاً انتقادياً حاداً جداً فيطلع اهل ملتهم بحكم الحال على تلك المقالات الانتقادية الحادة سواء كانت في الحوادث التاريخية او في الامور الاعتقادية او في المعاملات فيكتسب الشاب منهم قوة انتقادية خاصة به تشتد وتضعف على قدر مداركه ، فاذا استعرض معتقداته أمام نظره بذلك العقل الانتقادي الصارم واشرف عليها وهي على ما يعلم الناس من التناقض والمجافاة لبدائه العقل في أكثر جهاتها رجع والشك ألصق به من ظله ، فلا يجد له محيصاً الا السكوت على مضض ، والى متى ؟

بهذه الصفة نرى ان هؤلاء المشككين يخدمون الدين الاسلامي اجل خدمة وان كانوا لا يتوهمون ذلك ولا يضطرب في خيالهم ، ولو كان في بلادنا احصاءات لرأينا ان عدد الداخلين في الدين الاسلامي في هذه الايام الاخيرة التي انتشر فيها أولئك المشككون يزيد يوماً بعد يوم . وهو وان كان لا ينتشر العلم اثر كبير في احداثه لان العلم يبعث الانسان نحو الحقيقة دائماً ، الا ان لأولئك المشككين اثر أذى ذكر ايضا ، فانهم بتشكيكهم يوقظون العواطف النائمة ويبعثون الشبه الكامنة ، ويجعلون المسئلة الدينية في مجال البحث والمجادلة ، وكفى بهذا الجهاد محرضاً للشاكين منهم على ترك دينهم والمجاهرة بزعة يقيهم

قلنا ان هؤلاء المشككين لا يكسبون من وراء جهادهم شيئاً غير تثبيت المسلم في دينه ونصبه مناظراً لدوداً لهم ينقض بنيانهم ويفض حبالهم ، لان المسلم ان شك في دينه لجأ الى النظر والاستدلال ، واعتصم بالعلم والبرهان ، وكل هذا من أصول ديانته وقواعدها . فهل يسمح له اهل دين آخر بان ينظر ويستدل او يستشهد بالعلم والبرهان على اصل من أصول العقائد ؟

اذا تقرر هذا علمنا ان الطبقة الوسطى من المسلمين يستحيل عليها ان تصبأ عن دينها الى دين آخر وانها اثبتت بدينها من نظيراتها لدى الامم الاخرى ، وهو ما قدمناه من ان الاسلام انشودة كل فطرة ومطمأن كل عاطفة ومطلوب كل استعداد وقابلية

(العلماء والدين)

أريد بالعالم هنا العالم المصرى الذى تركزت في مداركه صورة مصغرة من معلومات هذا الجيل على اختلاف أصولها وفروعها ، وتجلت له بكل شدتها وهولها تلك المارك القلمية الصارمة التي حدثت بين حفظة القديم وانصار الجديد في القرن الماضى والذي سبقه أريد من صنف العلماء الموما اليهم من سلمت فطرهم من الطمس ، وطهرت جواهرهم من خبث العماية الجبلية . فانا في بعض كتبنا قسمنا الفطر الى ثلاث : فطرة مؤمنة وفطرة كافرة وفطرة جامدة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . فأريد هنا من العالم العالم السليم الفطرة المتألى الوجدان ، فهو الذى اقصده ، وهو المستحق لهذا اللقب الفخيم باخص معانيه ، بل هو الذى يصدق عليه انه صورة حية من حال القرن الذى يعيش فيه . اما غيره فلا يريك تلك الصورة الاناقصة مشوهة

الدين روح كلية مستولية على سائر الارواح الجزئية استيلاء البحر على احيائه السابحة فيه ، لكل روح منه قسط يناسب مداركها ، ونصيب يوافق شعورها ، ويلائم استعدادها ، ومن انكر الدين في ذاته فقد انكر اكبر ارواح الوجود تأثيراً واقواها على العالم تسلطاً ، وكان كالملقة الصغيرة تسبح في القطرة وتشكر البحر الذى يشملها ، او كالبعوضة تمرح في جو الحجرة وتبجد الجو الذى يحملها

قلنا الدين روح شاملة تأخذ منها كل روح على قدر حالها . وقد درسنا حظ الجاهل من الدين وحظ الطبقة الوسطى منه في الفصلين المتقدمين ، وهنا ندرس حظ العالم منه أخص صفة من صفات العالم المصرى « الافرار بالجهل » حتى حدد الاستاذ (ايزوليه) المدرس (بمدرسة فرنسا) العلم بقوله : « ان علومنا هي الجهل المرتب » وقد حلل الفيلسوف الانجليزى (هربرت سبنسر) العلم الانساني في كتابه (الاصول الاولى) فاحاله الى درجة المعجز المطلق أمام ادراك كنه اصغر ذرة من ذرات الوجود . وقرر انه لا يكسبنا فى الامام باشياء الوجود الا ادراك علاقاتها ببعضها وصفاتها الخارجة عن كيانها وكنهها

اذا تقرر ان الافرار بالجهل هي صفة العالم المصرى وان العلم الحالى قد بث هذه الروح فى نفوس اهله ، قلنا ان كل دين لا يكون من اوليات أصوله ومبنى قواعده ما يلائم هذه الروح

التي اكتسبها العالم المصري من العلم الحاضر فلا يصلح ان يكون له ديناً . بل ان كل دين لا يقول للانسان « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ولا يعترف له بقانون الترقى بالنص قائلاً له « قل رب زدني علماً » ولا يريه ان المعلومات غير قابلة للانتهاء وان الانسان بازاؤها شيء صغير كقوله تعالى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » قلنا كل دين لا يواتي الانسان من جهة هذا الميل لا يصلح ان يكون ديناً للعالم المصري بوجه من الوجوه

أكبر مشكلة متسلطة على الفؤاد الانساني هي مشكلة العقيدة بوجود الخالق . مشكلة تتولى الانسان من أول شعوره بالعالم حتى كأنها قطعة من فؤاده ، او كأن فؤاده قطعة منها . فلا يزال يترقى في الشعور بها حتى ينتهي لأن يجب من نفسه في عدم استقرارها من هذه المسئلة عند حد ، وكيف يقف منها عند حد وهي مشكلة الخالق جل جلاله الذي ليس كمثل شيء ؟

قد كشف العلم المصري لذويه من احوال الاعم البائدة او العصرية الجاهلة في درجات مداركها من هذه العقيدة ما يريك بالحس كيف يعبد الانسان خياله ، وكيف يجسم وهمه . صورت كل أمة الخالق تقدست صفاته على قدر عقلها وعلى حسب قوة خيالها حتى لو أردنا إيراد مذاهب كافة الناس في هذه العقيدة للزمنا ان نفرد لها مجلداً كبيراً ثم لا نستطيع حصرها بالضبط . أفلا يهذر العالم المصري أمام هذه الافكار بل الاوهام المختلفة ان لفظها كلها الى عالم الخرافات والاضاليل ، وحكم عليها حكمه الصارم الذي يرهبه اتباع الاديان الباطلة في كافة البلدان ؟ اذا كان العلم المصري قد كشف لذويه بالدلائل العيانة ان الانسان قاصر عن ادراك ذات المادة وانه جاهل جهلاً مطلقاً حتى فيما يدعى معرفته ، فكيف يشرب الى زعم تصوير الخالق بصورة ذهنية ، ويتعالى الى الحكم على ذاته وصفاته بحكم ليس له عليه دليل مشاهد ؟ لاجرم ان كل دين لا يقرر في اوليات أصوله عجز الانسان عن ادراك الخالق ووجوب وقوفه عند حده كقوله تعالى « ليس كمثل شيء » . يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » لا يصلح لان يكون ديناً للعالم المصري مطلقاً . بل لا يريح بال العالم المصري ويقطع هواجسه الا دين ينص له ما نصه له العلم من ان كل تلك العقائد اوهام

وظنون وان الحق وراء ذلك كقوله تعالى « إن يتبعون الا الظن وإن هم الا يخرصون »
 « إن هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » « وان الظن لا
 يغني من الحق شيئاً »

وكما ان العالم المصري يرى من العلم ان يقر بعجزه عن ادراك خالق الكون كذلك
 يرى من العلم ان يقر بقصوره عن ادراك كينية خالق الكون وان لم يكن ذلك الادراك من
 المستحيلات عليه . وكيف لا يقر بقصوره وكل يوم يكتشف من قوى الوجود ما لا كان
 يحلم به ويرى بعينه ان مجال البحث بعيد الا كفاف ومجاهيل الوجود لا تدخل تحت حساب
 وتبرهن له المكتشفات كل حين بانه كان جاهلاً وانه لا يزال كذلك حتى يأذن الله له بشيء
 من الفتح لا يضطرب في خياله

من هنا يرى العالم المصري ان العلم متبع ناموس الارتقاء وهي حقيقة لا يمتري فيها
 انسان فلا يجب ان يكون دينه الذي يدين الله به واقفاً عند حد ، او حاكماً عليه بحكم بل يرى
 ان الدين اجل من ان يتبع العلم في دور من ادواره السابقة او اللاحقة لانها كلها نافصة
 باعتراف الحس والملاحظة . فكل دين من هذا القبيل لا يصلح ان يكون دين العالم
 المصري ، فهو لا يرضخ الا لدين يقول له « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس
 والحج » اشارة الى ان ليس من وظيفة الدين الا الحقائق الاولى لا المعلومات النافصة
 الجزئية . ويقول له « قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي
 ولا ينسى » اشارة لان ذلك ليس من وظيفة الانبياء حتى يسألوا عنه ، بل هو مما يفتح الله
 به على بعض المشتغلين به

ترى العلوم التاريخية للعالم المصري حال اهل الاديان كلها في اختلاف وشقاق واقفين
 مع مفاهيم الالفاظ ، متشاكسين في مضامين الكلمات ، منقسمين فرقاً واحزاباً ، يكفرون
 بعضهم بعضاً ، ويمزق بعضهم احشاء بعض . يرون هذا شائناً في اهل كل دين على حد
 سواء غير مقصور على قوم دون قوم ، فيرون ان ذلك كله ليس من الدين وانما هو من
 الاهواء والنزغات فلا يرضى العالم المصري ان يدين الله الا بدين يقول له « ان الذين فرقوا
 دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء »

ترى الفلاسفة الانتقادية التاريخية للعالم المصري ان كتباً قد كتبت لدى اهل كل دين على حد سواء وملئت بالمقالات الطويلة الذبول في الكلام على الخالق وصفاته واحواله وعلى مذاهب المخالفين لهم مما يستوجب الردود المستفيضة ويستدعي المجادلات العنيفة في مواضع يستوي الجميع في جهلها ، ولا يفضل بعضهم بعضاً في العجز عن ادراكها ، فيرى العالم المصري أن كل ذلك ليس من الدين في شيء ، وان هؤلاء الناس انما يتناقشون فيما وصلوا اليه من العلم ، وانتهت مداركهم اليه من الفهم ، ولا إثم عليهم في شيء من الجدل ، لولا انه جدل في الدين أقاموه باسمه وروّجوه بسلطانه ، فلا يرضى العالم المصري الا دين يقول لاهله « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

دين يقف صاحبه على الناموس الطبيعي في اختلاف المدارك وتباين القابليات لادراك الحقائق كقوله تعالى « وما انت بهاد العمى عن ضلالتهم » « انك لا تحيي الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين » « إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير »

يرى العالم المصري من استقرار حوادث التاريخ ان حوادث اجتماعية كبيرة وانقلابات سياسية وحربية هائلة حصلت على اثر ظهور رجال حفظ التاريخ اسماءهم للآن ، ظهورا في أُمم مختلفة وازمنة متعاقبة ، متحدين في الوجهة ، متوافقين في الغاية ، يظهر امرهم أولا ضعيفا هيناً ثم يقوى ويشدد ، ولا يزال كذلك حتى تصير كل قوة بازائهم ضعفا ، وكل مقاومة استسلاما ، وهم في زمان قوتهم كما في زمان ضعفهم كبراء الافئدة لا تستخفهم الموهبات الارضية ، واللذات الوهمية ، أحرار لم تأسرهم فوائن الدنيا ولا سواحر الحياة ، مسلمين وجوهم لله لا يخافون بطش جبار ولا سطوة غاشم ، داعون الى سبيل الله ، لا يفترون ولا يملون ، ولا يضعفون ولا يجبنون ، جسوم آدمية ، واخلاق ملكية ، قد وسع الناس حلمهم وعلمهم ، واتسع للسكل صدرهم ووجههم ، فقراء ولكن تستخذي الملوك امامهم ، حلماء ولكن ترتد العناية بمحضرتهم . هؤلاء العظماء الذين برهنت افعالهم على صدق اقوالهم ، وجاءت الحوادث مؤمنة على دعائهم ، اتحدوا كلهم على القول بانهم رسل الله الى خاقه ، وأمنته على

أسرار وحيه ، وان بينهم وبين العالم العلوي صلة مستمرة ، ومددًا لا ينقطع ، وانهم جاؤا للارواح بنورها ، وللعقول بريحانها ، وللأفئدة بمطوبها ، وللصدور بشفاؤها . رأى العالم المصرى هذه الحوادث الكبرى فى التاريخ يتلو بعضها بعضها كأنها سلسلة متجانسة الحلقات فلم يسهه الا الاعتراف لاوئك الرسل الفخام بوظيفتهم ، وكيف لا يعترف لهم بها وقد ادعوها واقاموا الدليل المحسوس على انهم رجالها واصحاب تكاليفها بنجاحهم فيما تصدوا له وهو امر جليل ، وعمل دونه كل عمل

يرى العالم المصرى نفسه مرغما على الاعتراف لهؤلاء الرسل بوظيفتهم لانهم قالوا نحن انبياء ، وجاؤا لمن بين ظهرايهم بألوف من الدلائل المؤيدة لدعواهم ، وقالوا نحن رسل الله ونصبوا الاعلام الواضحة على صدق مدعاهم ، قالوا من آمن بنا نجا ، ومن اعرض عما جئنا به هلك ، فكان ما قالوه رغما عن تألب اعدائهم عليهم ، وتماثلهم على احباط سعيهم . قال كل منهم انى جئت بشريعة ناسخة لشريعة من كان قبلى او مكملة لها ، وفعل كما قال ، وأيده الله رغما عن كل معارضة ومناذرة

هذه آيات يهديها تاريخ العالم الانسانى للعالم المصرى ويجليها له بالاسلوب النقدى التحليلي تجلية لا تدع للناظر شكاً بأن لهذه الطائفة الطاهرة شأنًا فى الوجود غير شأن الانسان العادي ، مما لا مشاحة فى وجوب التسليم لهم بما يعزونه لانفسهم من انهم فى عالم وسط بين العالمين الانسانى والمللكوتى وانهم يشرفون على مافى الحضرة الروحانية بخاصية وهبهم الله إياها بالفطرة فيرون من أمر الملائ الأعلى ما لا يرى الناس ، ويأتون لنا من ذلك الطريق بمعلومات يقصر العلم ان يتوهمها توهمًا فضلا عن ان يطلع على شيء منها

يرى العالم المصرى السليم الفطرة ان لا مناص من التسليم لهؤلاء الرسل كلهم بكل ما عزوه لأنفسهم من المكانات الروحية ، والمقامات المللكوتية لانهم قالوا وبرهنوا ، وادعوا واقاموا الدليل المحسوس

نعم يرى العالم المصرى ان يسلم لهؤلاء الرسل بشأنهم ولكن بدون تعصب لبعضهم ضد بعض ، وما الموجب لهذا التعصب المستعرب ؟ كيف يسوغ لمن ينظر فى تاريخ الانسان هذا النظر المجرد عن الفرض المضل ان يؤمن بجميع الانبياء ويكفر بواحد منهم او باثنين مع

ان مثل الكل واحد ، والناموس الذى ساروا عليه في وظيفتهم واحد لم يتغير ؟
 اذا كان هذا التعصب في ذاته عجيباً ، فأعجب منه الهوى الذى يحمل بعض الناس على
 التكذيب بنبوّة خاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم مع انه اقرب منهم الينا عهداً وأفعاله
 وأقواله وأحواله وسيرته محفوظة في الصدور والسطور تناقلتها الامم عن الامم من عهد مبعثه
 الى اليوم وهي حاصلة على كل الشروط التي تسمح لافسى أساليب الفلسفة الانتقادية ان تناوّلها
 بحثاً وتنقيحاً وقد بدى أمره صلى الله عليه وسلم عجيباً غريباً كما بدى أمر كل رسول ثم انتهى الى
 ان افرع وانتشر نوره شرقاً وغرباً وأحدث في الوجود تغييراً لم يحدثه أى رسول آخر ممن
 يحفظ التاريخ اسماءهم ، فهل يليق بالمائل ان يسلم برسالة كافة الرسل الا خاتمهم وهو على
 ما نصف لك من وضوح السيرة وقرب العهد وفخامة الآثار وجلالة الاعمال ؟ ألا ينجل
 المكذب برسائله من ان يتهم نوايس الحكمة الوجودية وقوانين الحياة الانسانية بهذه التهمة
 البطلة ؟ هل عهد الناس ان الحكمة الالهية تؤيد المبطلين ، وتعلو برؤوسهم فوق الرؤس
 أجمعين ؟ هل عهد الناس ان الدالة الالهية تنصر المدعين للرسالة ، وترفع من شأنهم حتى يسود
 دينهم على سائر الاديان وتبقى حجة قائمة للآن ؟

الله اكبر ! ان تشكك الانسان في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فبأى رسالة بدها يصدق
 وبأى رسول غيره يؤمن ؟ هذا رسول ايدته الحوادث وشهدت له الوقائع ، واقام الوجود له
 من دلائل الشهود ما لا يسع العقل انكاره ، ولا يسوغ للبصيرة جحوده ، فبأى حيلة
 يمجده الجاحد ، وبأى جسارة يكذب به المسكار ؟

هذه مسألة حلها العلم المصرى ، ولئن كان في الشرق والغرب للآن رجال لا يزالون
 جامدين على موروثات آبائهم ، وواقفين من امر الانسان والانسانية عموماً على ما وجدوا
 عليه اهل بلادهم ، فقد قضى العلم بان هذا تعصب لا يطول امده ، وقد انقطع مدده ، وان
 العلم قد وصل بالعالم الى نقطة عرفه بها ان العالم الانساني عائلة واحدة يجمعها اصل واحد وهي
 وان كثر افرادها حتى توزعت في اقطار شاسعة واصقاع متنايئة الا انها لا تزال يجمعها
 ناموس واحد

هذه الامم التي تفرقت وتوزعت وانقطع الاتصال فيما بينها قروناً مستطيلة فظنت كل

منها انها قائمة بذاتها فكونت لنفسها اديانا خاصة سينتهى امرها كلها لان تتصل ببعضها اتصالا اخوياً بضرورة الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية . وقد ظهر امر هذا الاتصال ولاحت بوادره ، فان الآلات البخارية والاجهزة الكهربائية جعلتنا نعرف عن احوال اقصى بلاد الله في الساعة الواحدة ما لا كان يحلم آباؤنا ان يعرفوه في سنة . بل نحن اليوم متصلين غاية الاتصال ببلاد لم تكن معروفة للعالم من قبل خمسمائة سنة

هذا الاتصال بين شعوب الارض سينتهى امره شيئاً فشيئاً لان يمحو اختلافات الجنسية والقومية والوطنية التي فرقت العالم الانساني لليوم وكانت سبباً لكل المنازعات التي حصلت بين جميع افراده

هذا الاتصال يستدعى ان تقوم جميع الامم من الدين على عقيدة يرضى بها الناس اجمعون ، ولا تكون سبباً لان يتشاكس عليها المتعاملون . هذا لا مناص منه لان حالة التقرب بين الشعوب تولد الشعور به توليداً طبيعياً حتى انه لو لم يكن في العالم دين فيه هذه الخاصية لأسس العالم ديناً من هذا القبيل ، فما بالك وهو موجود ، وقد شهد له الوجود ؟ قلنا ان الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية عاملة جاهدة في ربط الامم وايصالها ببعضها ، وهل يمكن انكار هذه الحقيقة احد بعد ما يرى بعينه ان التجارة وهي اخص مظاهر الاحوال الاقتصادية اصبحت اكبر اسباب التعارف بين الامم شرقها وغربها متمدنها ومتوحشها ؟ وهل يتجاهل الناظر في الاحوال السياسية العصرية ما أحدثته من اختلاط الامم ببعضها ان لم يكن طوعاً فكريها ، وهل يجهل انسان حق العلم في مساعدة تحقيق هذه الغاية البعيدة وقد اصبحت بمعلوماته الحققة في التاريخ وال عمران والفلسفة اكبر صقال للاذهان العصرية يزبل عنها تلك الاغشية التعصبية التي ركمتها على مدارك البشر أولئك القادة الذين تسلطوا على الشعوب آماداً طويلة فصوروا لهم الحياة بغير صورتها ومثلوا لهم الجمعية البشرية تمثيلاً ساقمهم اليه الحقد والاثرة والتفريق

نعم جاء العلم فارى الناس عموماً معنى قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم » فبات محبو الخير العام ينتظرون ذلك اليوم الذى يكسر فيه العلم تلك السدد الوراثة التي اقامها القادة في الاجيال

الماضية بين الأمم واخواتها . في ذلك اليوم المنتظر يدرك الناس اجمعون معنى (الاسلام) ومعنى (خاتم النبیین) ويظهر من امر هذا الدين الالهي ما يشاء الله ان يظهر مما يكاد اللاحقون يساوون فيه السابقين والله في خلقه شؤون

قلنا ان الأمم كلها مسوقة بعوامل الامور الاقتصادية والسياسية والعلمية الى الوحدة سوقاً قسرياً لا يمكن ايقافه ، وقلنا ان هذه الحالة تولد فيها الشعور بوحدة العقيدة توليداً طبيعياً كما تشاهد بواذره الآن ، وقلنا ان ذلك الدين العام لو لم يكن موجوداً لاجده الشعور العام بحكم الضرورة ، ثم قلنا ان ذلك الدين موجود وهو الدين الاسلامي ، فما برهاننا على ذاك نحن لاجل البرهنة على ان الاسلام جاء لتوحيد الاديان كلها وتخليصها من التعصبات التقليدية والغشوات الخرافية ، لانتكف ان نسلك مسلك الجدل ، ونعتمد الى اساليب الفلسفة ، لاننا نرى ان مجرد تذكر وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم كما وصف به نفسه ودعا الناس اليه ، يكفيها مؤونة كل جدل ويرينا رأى العين ان ديننا هو ذلك الدين الذى يساق البشر اليه سوقاً طبيعياً وسيتهي أمرهم اليه لا محالة (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد)

جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم داعياً الثقلين الى دين الله الاقوم وناموسه الاعظم وهو توحيد الله وتنزيهه والوقوف بهذه العقيدة الالهية عند الحد الذى حدها الله به فى المعنى الانسانى فكل ظن وكل وهم وكل هاجس يخطر بالبال مما يميل به الانسان لتحديد صفات الله تعالى والحكم عليها بقضايا هذا العقل الناقص فهي مردودة على صاحبها ليست من الدين الحق فى شىء ، لانها لو كانت من الحق لاهتدى الناس منها الى النقطة الجامعة ولما كانت سبب الخلاف والنزاع بين العالم . أليس افتراق العالم الى مآت من المذاهب فى صور هذه العقيدة يدل على ان الجميع انما يفترون مقالاتهم من عالم الخيال والظن ؟ أليس يكفى مجرد هذا الافتراق على اعتقاد ان الداعى اليه (وهو توق العقل لتصوير الخالق وتكييفه فى الذهن) ليس من الدين العام فى شىء ؟ وكيف يكون من الدين العام ولم يفرق بين العالم فى العقائد عامل اكبر منه .

لو وقف الانسان من العقيدة بالخالق فى الحد الذى يشعر به فى معناه الانسانى وهو

اعتقاده ان لهذا الكون خالقا عظيما قويا حكيما عليا ، ولم يكلف نفسه البحث فيما وراء ذلك لما رأيت فرقا بين الابيض والاسود من الناس في شيء ، بل رأيت عقيدة اعلم العلماء لا تفرق عن عقيدة اجهل الجهلاء من هذه الوجهة مطلقا

جاء النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى هذه العقيدة الفطرية ويطالب العقول بان تتخلص من الفواشي الوهمية التي غشاها بها قادة الاديان وهي الاساس الاول لتوحيد دين النوع الانساني ، لان النفوس متى لفظت تلك العقائد الوهمية التي اخترعها رؤساء المذاهب وزعموا انها وحى من الله اليهم استحال الناس الى تلك العقيدة الاولى الفطرية التي هي واحدة عن جميع افراد النوع الانساني . ومتى استحالوا الى هذه النقطة استقامت كل عقائدهم الاخرى واعتدلت جميع افراطاتهم وتقريطاتهم من ذاتها ، كأن التوحيد حصن الروح ، وموئل المواطنين ، ومطمأن العقل متى وصل اليه الانسان تأدت قواه ومواهبه الى جانب الامان الالهي ، والسلام الصمداني

ألم تر ان العرب لم يكن بينهم وهم في الجاهلية الجهلاء ، والفتن الصماء ، وبين ما آلوا اليه بعد اسلامهم من المسكانات العلى ، والمقامات الكريمة ، الا ان يصلوا لدرجة التوحيد والتنزيه على الاسلوب القرآني والتعليم المحمدي ؟ لا غرابة ان رأينا هذا الانتقال الفجائي الباهر من جاهلية جهلاء الى ملكية علياء ، فقلنا لا بد من ان يكون لعقيدة التوحيد والتنزيه يد قوية في احداثه ، ولا عجب بعد ذلك ان بذلنا الجهد في التحسس من هذا السر الكبير ، والا كسير الشافي (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)

نعم ان عقيدة التوحيد والتنزيه تحمل للنفس الانسانية روحاً من الادب لا يقدر على الاتيان بمثلها غيرها مما يتخيله البشر ، ذلك لان هذه العقيدة تؤثر على كل قوة من قوى النفس تأثيراً مناسباً لها من الجملة الخاصة بها فقيمها على صراطها العدل اقامة تحير شيوخ الفلسفة وتعجز اساءة الاخلاق ، وان تصنع الى احداثك بطرف من هذا الباب يهديك لشيء من عجائب هذا السر

العقيدة بوجود الخالق أول العقائد التي تولدت بالفطرة في نفس الانسان ، فان شئت فقل انها لازم من لوازم معناه ، وان شئت فقل انها صفة من صفات جوهره ، وان

شئت فقل انها شعور روحاني حملته روحه معها من عالمها . هذه العقيدة هي أعطف شيء عليه في مصائبه واخنى آس عليه في نوازله ، يعتصم بها في مخاوفه ، ويلتجئ اليها في معاطبه ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ومرارات العيش ، ويموت بها مرتاحاً قريح العين لتيقنه ان يداً تنتظره لتحمله الى عالم أرقى من هذا العالم ، وقدرة تحتف به تحفظه من عاديات الفناء وجائحات المدم . تأمل في أمر هذه العقيدة التي تمس أخص جهة من جهات حياة الانسان ، وتدبر بأمان في شعوبها وفنونها السارية من سائر عواطف النفس مسرى الكهرباء في أسلاكها والاشعة على ذرات اثيرها ، ثم دع هذا العالم الباطني واستجل هيكل الانسان الظاهري تر قوى النظر والشم واللمس والذوق والحس مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة ايضاً ، فما مناظر هذا الجمال التكويني وبدائع هذا العالم الحسى مما يؤثر على كل حاسة من جهة قابليتها الاثيرات لهذه العقيدة موقظات لزيادة الشعور بها . تأمل هذا بأمان بأمان ثم تيقن ان كل تغيير يحصل في العقيدة بالله مما كان صغيراً يقع من هذه المشاعر الباطنة والظاهرة موقفاً يناسبه ، وينزل منها منزلة تلائمها فان كان هذا التغير في الجهة التي تقويها قويت كل قوي نفسه على حسب جهة تلك القوة ، وان كان في الجهة تضعفها ضعفت كل تلك القوى ضعفاً مناسباً . ونحن لا نغنى هنا بالقوة والضعف ما يعطيهما اللفظان على اطلاقهما ، وانما هما قوة وضعف معنويان يدرهما كل من يشعر بقوى ذاته

علمنا مما مر ان العقيدة بالخالق جل شأنه مستولية على سائر عواطف النفس وقواها استيلاء تاماً بحيث انها تعتبر المصرفة المدبرة لتلك العواطف والقوى على ما يناسبها ويلائمها ، وعلمنا تبعاً لهذا ان كل تغير وتحور يحصل في تلك العقيدة يؤثر على تلك العواطف والقوى تأثيراً خاصاً على أشكال لا تحصى ولا تعد

ونحن هنا قبل ان ندرس الادب الالهي الذي تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه لنفس الانسان وجميع قواها يحسن بنا ان نورد هنا صورة موجزة من الآثار التي تحدثها عقيدة وجود الخالق على عواطف الانسان لنعرف بالحس كنه تسلطها عليها جميعها ترشحاً لادراك كنه ذلك الادب الالهي الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه عليها فنقول :

القلب يشعر بوجود خالق لهذا الكون البديع اقامه على هذا السميت المدهش ، فتهتز

في العقل عاطفة تعظمه لان يتمقله ويدركه ، فيستعين بالفكر في ايتائه تلك الانشودة فيجول صاحبنا الفكر في فيافي التصورات فيعتضد بالخيال في شطحاته فيلييه اخیال بنشاط بعد ان يعد كافة جنوده المعنوية ، فتثور في داخلية الانسان ثورة تتيقظ لها سائر عواطف النفس وقواها لان الموضوع ماس بها من أخص جهاتها ، فهب الحواس الخارجية ايضاً من سباتها ، فتنظر العين الى ابعد مدى تصل اليه فاذا كلت وحسرت تركت ما بعد قواها لحياد التصور والفكر فاذا عجز ادعوا الخيال لينفذ الى حيث لم يصل اليه ، وهكذا حتى يصل الانسان لتصور خالقه بأكل صورة يشعرها ويهبه من الصفات اكل ما يدرك انه كمال . فاذا ارتقى عقله درجة ادرك انه وصف آلهه وصوره بما لا يحسن فيصلح من خطاه ، ثم يرتقي عن ذلك ايضاً فيرجع للتغيير والتحوير . وهذا ما تريناه فلسفة التاريخ في جميع اطوار النوع الانساني . وليس هذا موضوع بحثنا فانا انما نريد ان نصور لقارئنا صورة موجزة من صور انفعال قوى النفس وعواطفها لتأثيرات العقيدة بوجود الخالق توطئة لادراك كنه ذلك الادب الالهي الذي تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه على سائر تلك القوى والعواطف

(الادب الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم)

لا ينكر علينا اليوم احد ان العرب بعد ان كانوا من الجاهلية على حال من الخلل الاجتماعي والخلقي لم يمكنهم من الصعود في مراقي العمران درجة واحدة ، اصبحوا فجأة بواسطة الروح التي بعث الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أمة دانت لها الامم طوعاً وكرهاً وآلت اليها خلافة الله في الارض قروناً طويلة كانت في خلالها حاملة لواء العدل والعلم والحرية والمساواة والرقى الصوري والمعنوي باخص معانيهما

اذا تقرر هذا فلا مناص من التسليم بان لهذا الرقي الفجائي سرّاً كبيراً اتاه من تلك الروح الكاملة العالية التي تنزلت عليهم ، وما تنزلت عليهم تلك الروح الا لما استنزلوها بما أشربوه من عقائد وخصال . من هنا كان البحث في اسرار عقائد الاسلام هو الطريق الصحيح المؤدى الى ادراك تركيب ذلك الاكسير المحمدي الطاهر ، ولما كان التوحيد والتنزيه هما اكبر ما جاء النبي صلى الله عليه وسلم لتقريره للعالم الانساني ، فلا شك في انهما القانون الجامع لاسرار ذلك الاكسير كله ، او انهما العنصران الفعالتان فيه من بين سائر عناصره الاخرى

التي هي بمثابة المساعدات لفعله ، العاملات على اثره . وها نحن شارعون في بحث هذا الموضوع الجلل على الاسلوب التحليلي والله ولي المؤمنين

التوحيد هو أن توحيد الله في ذاته وصفاته وافعاله . ومعنى ذلك في اصطلاح المتكلمين كما جاء في كليات ابي البقاء « ان للتوحيد ثلاث مراتب : مرتبة (توحيد الذات) وهو مقام الاستهلاك والفناء في الله فلا موجود الا الله . ومرتبة (توحيد الصفات) وهو أن يرى كل قدرة متفرقة في قدرته الشاملة ، وكل علم مضمجلا في علمه الكامل ، بل يرى كل كمال لمعة من عكوس انوار كماله . ومرتبة (توحيد الافعال) وهو ان يتحقق بعلم اليقين او بعين اليقين او بحق اليقين أن لا مؤثر في الوجود الا الله . » انتهى

وأما التنزيه فهو أن تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق ، وان تبرأ من كل ما يحبس بصدرك من الميل الى تكييفه وتصويره ، وان تسد نافذة الخيال في مجال التفكير فيه ، وان تعتقد قلبا وقالبا بأنه الحى القيوم اللطيف الخبير « ليس كمثله شيء » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وان كل سعى تبذله في تصوره بصورة ، وكل جهد تعمله في الوقوف له على ماهية او كيفية او كمية ضائع سدى وذاهب عبثا ، وان تجزم جزما لا تردد فيه ان (كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك)

لهاتين العقيدتين اثر على نفس معتقدهما من جهة التأديب النفساني والتكميل الخلقى لا يدرك خطارته الا من اشرقت عليه لمعة من نوره ، وحفت به نقعة من جلاله فهما اكسيران إلهيان ، وروحان سماويتان ، تنزلان من النفس الانسانية منزلة الشمس من سمائها فتطرد من دياجير الرعونات البشرية ، وتزيل من ادران المقتضيات السفلية ، ما لا تستقل بوصفه الافلام ، ولا تتطلع لمداها الافهام ، كما سترى له شيئا من التفصيل . قلت ان لهاتين العقيدتين اثرا على نفس المعتقد بهما ، وأريد بالمعتقد من يدل عليه اللفظ بمعناه الصحيح ، لا من ألصق نفسه بالعقيدة وادعاها ، فان اصل معنى (اعتقد الشيء) صدقه وعقد عليه قلبه وضميره . وقد تسامح الناس في هذا المعنى حتى اطلقوه على الذين يتوهمون انهم معتقدون وما هم كذلك في الواقع ، وما هم الا قوم ورثوا عن آبائهم تينك العقيدتين بعد ان طال على آبائهم الامل ونسوا حظا مما ذكروا به ، فاخذوها عنهم لفظا مجردا ، وحشروا انفسهم بذلك في مصاف اهل التوحيد والتنزيه

اسما، ثم تركوا انفسهم عملا وفلا لا هوائهم واهواء آباؤهم من قبلهم مما ينافي تينك العقيدتين ويجافيهما، وسموا ذلك ديناً لهم جروا عليه احقاباً وقرونا فحمدوا عليه جمود الانسان على صفاته الموروثة، وعاداته المألوفة، فان نبههم الى ذلك مستشكل قابله بحشو من التأويلات وقذفوه بسيل من القياسات والتشبيهات، حتى يفحموه او يهجروه. وليس هذا ببدع في اصحاب العقائد بل هو مقتلهم الوحيد، وجهة ضعفهم التي يتسرب منها اليهم التشتيت والتبديد « وما ربك بظلام للعبيد »

نريد بالمعتقد بهاتين العقيدتين من عقد لهما قلبه، ووقف عليهما عقله ولبه، فسرت انوارهما في اعماق سرائره، ونفذت سيالاتهما المحيية الى طويات ضمائره، وبات وهما ادخل في نفسه من نفسه، وألصق بمعناه من حسه

لا جرم ان المعتقد على هذه الصورة يحس في نفسه آداباً عظاماً، ويأنس من ذاته سجايا فحاشاً، تنشأ فيه نشوءاً طبيعياً، وتنبع من جوهره نبوعاً ذاتياً، فلا يلبث ان يكون فاضلاً وهو لا يدري معنى الفاضل في عرف الحكمة الاخلاقية، ويصبح حكيماً وهو لا يدرك تحديد الحكمة في الاصطلاحات الفلسفية. وهل بغير هذا البيان يستطيع الباحث ان يفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء، الى المدنية الادبية العلية في أقل من ربع قرن؟ وهي مدة لو كانوا قلبو البيوت فيها مدارس وأتوا للعرب بكبار فلاسفة الرومان واليونان والفرس فما كانوا يستطيعون ان يبطلوا ما كانوا مغررين به من شرب الخمر، وهو أقل مصائبهم خطراً، فما بالك بتلك القوة التي كرهتهم (بدون مدارس ولا فلاسفة) في الخمر والميسر وطلب الثار وحب الانتقام والفارات والانقسامات والتفاخر بالآباء وعدم المساواة وهضم حقوق النساء ودفن البنات احياء الخ من المصائب الاجتماعية، والبلايا الاخلاقية. ثم ان اضفت لهذا ما تلاه من رقيهم السريع وقيامهم بخلافة الله في الارض قياماً أدهش الحكماء، وحير العرفاء، وارغم معاطس العتاة، وطأطأ جباه المتألهين الجفأة، وهم شرذمة معدودة، وآحاد معدودة لعلت ان هذه قوة القوى وان ألباث لها من العقائد لا بد من ان يكون ناموسها الاكبر وملاكها الاعظم

أنا هنا لا اريد ان اسوق البراهين الطبيعية الدالة على وحدانية الله تعالى وتنزهه عما

يشاكل مخلوقاته ، وعلوه على كل ما يخطر ببال أحد من عباده ، فان الكون بجملته وتفصيله يدل على هاتين العقيدتين دلالة لا تحتاج لاحالة نظر ، واعمال فكر ، انما الذى اريده هو ان اشرح ذلك الادب الالهى الذى تفيضه تلك العقيدتان على المعنى الانسانى فتقلبه انساناً سوياً على مقتضى القالب القطري والنموذج الالهى بدون علاج من كتب الاخلاق ، ولا رياضة من قانون الفلسفة ، ولو كنت واثقاً من صحة وجود اكسير الكيمياء الذى يقال انه يقلب المعادن ذهباً ، لقلت ان هاتين العقيدتين تشبهانه من حيث استيلائها على جوهر الانسان ونفي التلونات العارضة عنه ، وسبكه سبكا جديداً على مقتضى قانون ليس فى قدرة العقل الحوم حول تفاصيله .

من وحد الله فقد اعتقد ان « لا اله الا الله » ومن اعتقد ذلك رسخت فى ضميره عقائد تتبعها وانجلى عنه او هام لا تنفق معها . اما ما يرسخ فى ضميره من العقائد التى تتبعها فتبينه بان لا معبود الا الله ، ولا محي الا الله ، ولا مميت الا الله ، ولا رازق الا الله ولا حارم الا الله ، ولا نافع الا الله ، ولا ضار الا الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وان لو اجتمعت الانس والجن على ان ينالوا احداً بخير فلن يستطيعوا ذلك الا باذن الله وتقدير الله ، وان اجمعوا على ان يصيبوه بشر فلن يطيقوه الا بقضاء الله وحكم الله ، وان كل ما دون الله وجود حائل ، وظل زائل ، وما يشاهد من افعال الناس وحركاتهم مما ينسبه قصر النظر اليهم ، فهي نسبة مجازية ، وامور اصطلاحية . اما هم فى الحقيقة فآلات منفعة ، وحوادث متصرفة ، لا يملكون لانفسهم نفعا ولا كسبا ، ولا يستطيعون لغيرهم شراً ولا ضراً ، مملوكون لقدرة لا تحدّ بحد ، ولا تقاس بحد ، فامثل الملوك فى ابهتها وتعاظمها ، والقادة فى تكبرها وتغشمرها أمام هذه القدرة المحيطة بالاكوان ، التى لا تحدّها الاذهان ، الا كمثل الضعفاء فى مسكنها ، والبسطاء فى خيالها وعجزها

لو عقد الانسان فؤاده وعقله على هذه العقيدة ، وابعد عنه شياطين التأويلات وبالسة التحريفات ، نزلت على فؤاده من عالم الكمال الالهى صفات عالية ، وخصائص سامية ، تستدعيها الحالة التى آلى اليها ذلك الفؤاد من التجرد والصفاء كما يستدعى المازوم لازمه ، وكما يطلب الموصوف صفته ؛ واول ما يهب عليه من عالم النفحات القدسية عاطفة الاستقلال والحرية ،

تنزل عليه هذه العاطفة من اعتقاده ان لا معبود ولا نافع ولا ضار ولا رازق الا الله وان لا حول ولا قوة الا بالله ، فيحسن انه والكل سواء فما الملوك في قصورها ، والكبراء في ثروتها ورياشها الا مثله مربوبون مملوكون لا يملكون لانفسهم حياة ولا نفعا ، فيسقط من ذهنه صنم الوهم الذي يخيفه منهم ، ويدعوه للتحكك بهم ، لثقتهم انهم آلات منفعة لقوة الله وتأثيره ، واشباح تروح وتجئ بأمر الله وتسخره ، فيرى انه حر ليس لأحد عليه سلطان ، في أي أمر كان ، وانه والعالمين في مستوى واحد من حق الوجود ليس لأحد عليه ميزة في الحقوق الانسانية ، وان القانون الذي يجب ان يشملهم هو جميع أفراد نوعه هو قانون العدل والمساواة ، لا قانون التمايز والمحابة ، ويتحقق ان ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع للقادة المطلقين والسادة القاهرين الجبارين ، هو تسامح الناس في حقوقهم الشخصية وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تريهم ان قادتهم من طينة أرقى من طينتهم ، فتراه مسوقاً سوقاً اضطرارياً لان لا يسلم بتحكم روح على روحه ولا بعدوان أحد على حقوقه ، فلا يرضخ لمسيطر يميل لتسخره في اهوائه ، وتصريفه في شهواته . هذه الروح المستقلة تدفعه بطبعها لمعاداة كل من يعارضها من بني نوعه سواء كانوا من المدعين للوصاية الروحية ، المنتصقين بالوظائف الدينية . او من الذين يريدون اغتصاب السلطة الدنيوية ، وصرف الامة الى أحكامهم الاستبدادية ، فهو من هذه الجملة من أعداء المتألهين ، واشد اضداد المستبدين ، من أي قبيل كانوا وبأي صبغة ظهروا ، فلا تذله ما يبذله الملوك من كواذب الالقاب ، وجواذب الوسامات ، ولا تأسره ما يأتيه به مدعو السلطة الروحية من فواتن الاوهام ، وخوادم الاحلام ، لما يرى فيها من العدوان على استقلاله ، والذهاب بحريته وكماله .

تخيل أمة يكثر في آحادها الموحدون الصادقون ثم انظر كيف تقدم فيها تانك السلطان الضارتان ، سلطة الملوك المطلقين ، وسلطة الرؤساء الدينيين ، وهما السلطان التان نخرتا عظم الانسانية ، وبلغتا من هضم حقوقها الى زعم ان لا وجود لها مع وجود رؤسائها ، وان حياتها فانية في حياتهم .

نعم تنعدم هاتان السلطان وينعدم معها ما يتبعها من نقض في نظمات الحكومة ، وجور في قوانينها ، وامتيازات بين رعاياها ، واستئثار من طائفة منها بالسلطة الروحية ، مدعية حق

الهيمنة على ارواحها وعقائدها ، مما دعا ويدعو الى امور تستفز العواطف الساكنة ، وتوقظ
الفتن النائمة ، وتجبر الى كراهية السلطة ومجافاة الدين بالكلية هربا من اولئك المفتصين ،
وحالة العالم كله يشاهد بما نقول

هذا وحده اثر عاطفة الاستقلال التي يشعر بها الموحدون بحكم عقيدتهم ، وأعظم به
من اثر . اما ما ينشأ عن التوحيد من عواطف اخري فما لا يستقل باستيفائه كتاب ، كماطفة
الشم وكبر الفؤاد التي تنتج من اعتقاد الموحد وتيقنه بان لا رازق ولا حارم الا الله فتراه
ابي الفؤاد عزوف النفس لا يداهن للملوك ولا للامراء ، ولا يتقرب الى الاغنياء ، لتيقنه ان
الذي اعطاهم قادر على ان يعطيه اضعاف ما عندهم ، ان اراده لذلك ووقفه له ، فان هم به خاطر
رغبة الى الصعود لتلك المراكز الدنيوية وجه وجهه شطر من بيده الاعطاء والمنع راغبا اليه
ان يهبه من القوة والاهلية ، وان يوقظ في ذاته من عوامل النجاح في مراميه القصية ،
ما يذلل به صعاب الحوائل ، ويسنى له منال الوسائل ، فان نال مناه ، وبلغ مداه زاد بالحق
يقينا ، وفي مذهبه تمكينا ، وان اخفق سعيه ، واكدى جهده ، اتهم الوسائل التي استعملها ،
واستقل القوى التي بذلها ، فزاد في وسائله تكميلا ، وامد قواه تنشيطا ، حتى يبلغ ما قدر له
وهو على الهمة ، كبير الفؤاد لم يلق به الجهل الى مداحض الذلة ، ولم يدهوره الطمع
الى مزاق الحسة .

تخيل امة يكثر فيها امثال هؤلاء الموحدين ترها افخم مظهرا ، واكبر مخبرا من
اية امة عصرية ممن وقرت في نفوس آحادها عاطفة الاعتماد على النفس والثقة بالذات
كالانجليز والالمان والامريكان مثلا فان هذه الامم استمدت هاته العاطفة من النظر في
نواميس الحياة نظرا مقصورا عليها اما اولئك الافراد فتنزلت عليهم هذه العاطفة من جانب
الكمال الالهى الاقدس ، فلا جرم ان التاثت هذه العاطفة لدى الامم العصرية بشيء من
النقص والجور والشره والمزاحمت الجنونية القاتلة لكثير من العواطف القلبية ، ولا غرو ان
نشأت تحت سمائمهم التوضويون والمدميون وغيرهم . اما الأولون فتراهم مع تتمهم بتلك العاطفة
عاطفة الشم وكبر الفؤاد متراحين متعاطفين ، جمعهم الحياة برباط من حب خالص وود
وثيق العرى لاتحاد وجهتهم في طلب الكمال الالهى ، لا لقيام امرهم على النفع الدنيوى .

هؤلاء لا يتزهون عن امراض المجتمعات الحية فتصيبهم لقحات من التنافس على اعراض الحياة ، وفوائن السلطة والجاه ولكنك مع ذلك لاتعتمد فيهم تلك الاربحية للرحمة ، وذلك الميل للتصافي والحب ، فلا يضع بينهم فقير ولا يهضم لديهم حق ضعيف ، وإن ضاع فقيرهم او هضم حق ضعيفهم ، فهما ضياع وهضم يعدان رحمة اذا قيسا بما يصيب ضعفاء سواهم من الامم التي فيها عاطفة الاعتماد على الذات مرتكرة على قوانين الحياة الحيوانية

هذا كله ولا تنس عاطفة الشجاعة والعزة التي هي من أخص صفات الموحدين وهي تنبع في افئدتهم من اعتقادهم انه لا ينفع ولا يضر الا الله . نعم متى اعتقد الانسان ان الانس والجن لن يصلوا اليه بأذى لو حماه الله ، وانهم لن يصيبوه بحسنة الا اذا بعثهم الله ، سقط من عينه كل صنم يقيمه الوهم في ذهنه ، فتراه لا يخشى الا الله ولا يرجو الا الله ، ولن يموت الا اذا أماته الله ، وهذا موقف قد أمر به الله ، فما الذي يؤخره عنه غير جيئات الوهم ، وسطوات الجبن ؟ هذا تفصيل موجز لبعض الخصال الكريمة التي تنشأ من عقيدة التوحيد نشوءاً طبيعياً ولا احيلك في نظر ذلك بالحس الا على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم وحدهم المثال الكامل الذي يليق ان يتخذ حجة محسوسة على ما نقول

من هنا ترى ان عقيدة التوحيد تهب على الروح الانسانية بأدب الهى يقيم الشخص على صراط الحق ويبعثه للسير فيه بعثاً ذاتياً ، ويحليه من الصفات الصالحة لعمارة الأرض وحماية الجامعة بخلائق تمجز عنها التريبة وتعيادونها أساليب التقويم والتهذيب المعروفة .

هذا الأدب لا يقتصر على تأدية الانسان لارق مظاهر الكمال الدنيوى فقط بل يؤديه لاسى منصات الرقى الروحاني ايضاً ، لان الروح الانسانية لا يحجبها عن مشاركة عالمها الذي تنزلت منه ، ولا يمنعها عن المتاع بجمال مشاهد ومعاينه الا ما استدعاه هذا الجسم من صفات الحيوانية ، ولوازم الحياة البهيمية . هذه الصفات واللاوازم التي اكتسبها الانسان بتلبسه بهذه المادة كالهلع والجزع ، والبخل والشح ، والخوف والجبن ، والحسد والحقد ، وغير ذلك من الصفات الذميمة المستوعبة لحيوية اكثر الناس والمستولبة على مجموع همهم والمآنة لهم عن السكون الى ذاتهم ، والطمأنينة الى ارواحهم سببها نقص ايمانهم بالخالق الحق ، فان الهلع والجزع صفتان معناهما اظهار الحزن من فقد الصبر عند المصيبة ، وقيل

هما بمعنى وقيل ان الملح افحش الجزع ، فهاتان الصفتان ليستا من صفات الكاملين قال تعالى « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين ، الآية . » وكذلك البخل والشح والحقد والحسد والخوف والجبن صفات خسيصة لا تحل الا قلوباً جاهلة خلت من الايمان الكامل لأن مدارها كلها على الشؤون السافلة ، والامور المنحطة ، ومن كان يؤمن بالله ايمانا كاملا ويرى انه الفاعل الحق والمؤثر الفرد ، فلا يحقد ولا يحسد ولا يخاف ولا يجهن ، ولا يشع ولا يبخل ، فيخلو فكره من الجولان في هذه الصفات وما يلزمها ومتى خلا فكر الانسان من الرتوع في قدر هذه الصفات الخسيصة وتوابها التي يقضى فيها نافصو الايمان اعمارهم الثمينة جال بطبعه في عالم الحقائق وسلك من باحاتها طرقا سلكها قبله الانبياء والصالحون فيمر في اثناء سيره على عوالم الجمال والكمال بطريقة طبيعية لا صناعة فنزداد علاقته بالعالم الروحاني متانة ، ويزداد الاتصال بينه وبين حقائقه احكاما فيرتقى فيه ارتقاء تدريجيا كما يرتقى جسمه في عالم المادة فتكون روحه في عالم القدس تتلى وتتمتع ، وجسمه في عالم الحس يكافح ويجهاد كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وكافة المرسلين والصدّيقين مع اختلاف في الرتب وتباين في الهمم كما لا يخفى

من هنا يرى قارئنا ان (لا اله الا الله مفتاح السموات والارض) كما جاء في الخبر النبوي ، فهي مفتاح السموات لأنها تؤدي الشخص الى الكمال الروحاني في ابداع مجاليه وممانيه ، وهي مفتاح الارض لأنها أقوى عامل كما رأيت لتربية ملكاته ، وتهذيب مواهبه وتأديته الى أرقى مظهر من مظاهر الحياة الارضية

اما عقيدة التنزيه وهي اعتقاد ان الخالق اعلا من ان يحجبجد أو يصور بصورة ذهنية ، فأثرها على النفس من اكبر الآثار واعجبها ايضاً واليك شيئاً من التفصيل

قلنا ان الانسان مفطور على العقيدة بالخالق جل وعز لسببها بحياته الشخصية وعواطف فؤاده الداخلية ، وقلنا ان هذه المسئلة مستولية على سائر مشاعره واحساساته استيلاء غير محدود فمقله وفكره وخياله وذاكرته مسخرة لها مشغولة بها شغلا يعرف بعض آثاره من احوال الامم قديمها وحديثها ، وإن مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان خليقة بان تقف في مهبط فكره ، وتكون دائماً حيال خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان

بمدركاته فيها شطحا استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال ، ولا غرو بعد ذلك ان اصبح لكل امة في صفات الله تعالى وذاته كلاماً ينافي كلام جاراتها ، ولماذا لا تكون هذه العقيدة بعد ذلك تابعة لنمو المدارك وسعة العقل ، فيصلح اللاحق غلط السابق ، وينقح الابناء ما تسامح في اعتقاده الآباء وينتهي الحال بالناس الى النظر لاصحاب الاديان نظراً للمحرفين المؤولين ، المتذبذبين المتلاعنين ، ولهم الحق في هذا النظر

جاء الاسلام ساداً هذين البابين الهائلين باب الفكر في ذات الله وباب اعمال الخيال في ادراكه ، مقرر ان كل ما خطر ببالك فانه بخلاف ذلك ، منذرا بالهلاك والنبور كل من يتجارى على التطفل على الحوم حول هذا الحمى المنيع ، او التطلع لاكتشاف هذا السر العزيز لانه ليس من اختصاص هذا العقل العادي الوصول اليه ، والاشراف عليه . الا تري ان هذا العقل يرقى كل يوم نحو الكمال ، فلو اطلقنا للعقل حريته في الفكر في ذات الله وشؤونه العالية وسمحنا للخيال ان يأخذ حظه من هذه المجالات السامية ، اصبحت عقائد الدين كمقائد العلم عرضة في كل جيل للتحويل والتغيير ، وكفى بهذا مسقطاً لمهابتها من نفوس الآخذين بها ، ولو تركت بلا تحويل ولا تغيير لكانت بنفسها ادل الادلة على انها افكار بشرية ، وخيالات ذهنية ، صورها الجهل ، وزينتها الاهواء ، ولأصبحت بذلك في واد وعقول اتباعها في واد آخر ، اذ يستحيل على الانسان ان يعقد ما لا يعقل او يحترم ما يجزم انه وهم باطل وخيال من الحقيقة عاقل ، كما هو حال اتباع اكثر اصحاب الاديان اليوم .

قلنا ان عقيدة وجود الخالق امس ما يمس حياة الانسان الشخصية فهو يبحث عن صانعه الحكيم طلباً للطمأنينة على ذاته ، وغيره على حياته ، لانه لا يستطيع ان يدرك له وجوداً ابدياً ، ولا حياة فيها جزاء عادل على الحسنات والسيئات ولا ناموساً عادلاً سائداً على الكون والكائنات حفيظاً عليها ، ومرافقاً لحركاتها وسكناتها ، ولا قدرة شاملة وحكمة كاملة وضمت هذا الكون على قواعد الحكمة وحسن التقدير ، الا باعتقاد وجود ذات اولية متمتعة بكل الكمال ، ومتصفة باقصى ما يمكن من صفات الجلال . ثم قلنا ان هذه العقيدة لما كانت امس المقائد بحياة الانسان فهي اكثر مدركاته تسلطاً على مداركه ومشاعره وقواه ، ثم قلنا وان مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان خليقة بان تقف في مهبط فكره وتكون

دائما في مضطرب خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان فيها بمدركاته شطحا استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال . ثم قلنا بعد ذلك جاء الاسلام فسد باب الفكر وباب الخيال دون هذه العقيدة ، وحال بين شهوات العقل وبينها حيلولة لا يصح اسلامه الا بها فكيف يمكنه الصبر على هذا الفصل بينه وبين اكبر شئ يؤثر على فكره وخياله ؟ نقول ان الذى يصبره على ذلك ويثبت فيه هو ما يشعره بسببه من الكمال المعنوي الحقيقي الذى ينبع في فؤاده ، والنور الذى يشرق على سرائره فيملأه سعادة وغبطة . والانسان مغرم بالكمال ، ومشغوف بالنور والسعادة . واذا أردت معرفة طرف من ماهية تلك اللذة وكيفية نشوءها فاليك :

الانسان ما انساق الى الفكر في ذات الله والطيران في اجواء الخيال في تحديد صفاته وشؤونه الا بما يجده من اللذة المعنوية في ذاته من جراء التحسس على علم ما لم يعلم ولو وهما . وقد عودنا انه متى عدم الحقيقة ولذتها قنع بالخيال وتلهم به وربما غلا فقهر نفسه على اعتبار خياله حقيقة ، وهو يعرف هذا الضعف من نفسه ولا ينكره

كل منا يشعر بلذة العلم الذى يمس مصلحته من اى جهة كانت فتراه يرتاح لسماعه او لاستنباطه ومتى حصل له منه شئ طار به فرحا وترنح له عجا وودعه في صميم فؤاده ، لاسيما لو كان ذلك العلم ماسا بما يشعره من الحاجة الدينية وما يرمي اليه من المقاصد الروحية ، وقد تحمل هذه اللذة بعض الناس على هجر اهله وبلده اكتفاء بها عن كل محبوب ، وتفضيلا لها على كل ماؤوف

ما منا احد الا وقد شعر بهذه اللذة العالمية سواء كانت فيما يتعلق بمصالحه الدنيوية او بعماميه الدينية ومطالبه الروحية ، وهو امر معقول لدى الكافة لا يتردد في حصوله احد لأن اللذة نتيجة سبب معلوم وهو العلم ، ولكن ادعاؤنا حدوث لذة ونور وسعادة بمحض صدقوى الفكر والخيال عن الجولان في موضوع العقيدة وبمجرد القناعة بها كما هي بدون تحديد ولا تعريف ، امر لا يسلم لنا الا بدليل منير .

نقول اذا كان سبب اللذة المعروفة لنا هو العلم فان عقيدة التنزيه اكبر درجة ممكن ان يبلغها الفكر البشرى من درجات العلم ، فلا عجب ان كانت لذتها اكبر لذة معروفة عند البشر .

اما كونها اكبر درجة من درجات العلم البشري فلا لأنها تتعلق بصفات الخالق الاقدس من جهة كونها صفات غير محدودة، وكالات غير محصورة وان اردت ان تعرف كيف ان التنزيه اكبر العلم فاليك :

قلنا ان التنزيه هو ان تنزه الخالق عن كل ما يشاكل خلقه وان تعتقد ان كل ما خطر ببالك فهو بخلاف ذلك . ولما كان الفكر والخيال عاملين دائبين ورام استكناه المجاهيل واستنباط المساتير ، باعثن للعقل على مجاراتهما في تجوالهما فسيأتيانك من جهة هذه العقيدة بمحصول ويحثانك على اعتقاده فان لنت غير مسلم فرحت بنتيجة كدهما واعتقدت ما اتياك به من العلم حتي ينهك منه على ضلالك او يرتقي فكرك وخيالك درجة فيهدمان من ذاكرتك ما بنياه اولا ويقيان لك عقيدة جديدة وهلم جرا ، او يجمدان بك على عقيدة راسخة رسمية من قبل الطائفة المسيطرة فلا تستطيع ان تتعداها وهما وان كنت قد فقها فعلا . واما ان كنت مسلما منزها عاملا بواجب التوحيد والتنزيه واقفا بقواك العقلية موافقها الحق على حسب التعليم القرآني يحصل بينك وبين تلك القوى الادراكية فيك ثورة داخلية يكون نتيجتها من العلم العالي ما يحبك ويسعدك . ولجل تجلية عقيدة التنزيه كما هي في جلالها ، وتصوير ما يحدث في المعنى الانساني من الاخذ والرد فيها حتى يطمن الضمير على حقيقةها نصف لك هيئة المناظرة التي تحصل بين القوى النفسية في سر الانسان :

(العقل) انا نمتقد بوجود الخالق سبحانه وتعالى ولكن ما هو وكيف صفته ؟

(الفكر) لقد سألت عما يجب ان يسأل عنه وسابذل لك اقصى قواي في الاشراف

بك على احسن ما تتوق اليه ، وساعتضد بالخيال

(الخيال) لييك وسمديك اني معك حيثما تذهب فان عجزت عن الطيران بمقتضى

طبعك طرت وحدي وصدقتك فيما احدث

(عقيدة التنزيه) كفوا عن هذا الجدال فانتم ومن في الارض والسموات جميعا اقل

من ان تصلوا الى الله من هذا الطريق طريق المشاعر الحسية ، والعوامل الجسدية ، فان

سلطانكم مقصور على عالم الشهادة واشيائه وليس الله تعالى بما يشابهه او يشاكله حتى تقدروا

على الوصول اليه من هذا المسلك

(العقل) وما هو اذن وكيف الوصول اليه ؟

(عقيدة التنزيه) هو اكبر من ان يحيط الوهم بسراقات كماله واعلا من ان يصعد التصور الى ممارج مجده وعلائه ، قدرة لا تحد بمحد وحكمة لا تنتهي لغاية ورحمة دونها كل نهاية ، وصفات كمال لو أردت تصورها بهذا الفكر القاصر فلن تصل لشيء منها لان فكرك مصوغ على قالب هذه العوالم المرئية المحدودة واقيسته منزعة من عالم الحس المتناهي فهما صعدت فانت في عالمك هذا لا تتمدها والله تعالى اعلا من ان يقاس بالحدود والهيئات او يدرك بالمعلومات والآلات

(العقل) اذن فكيف يعتقد الانسان ما يجهل ؟

(عقيدة التنزيه) اني اقول لك ان حقيقة الله اكبر من ان يصل اليها العلم واجل من ان يصورها الفكر وأعز من ان تحوم حولها المدارك . وصفاته أعظم من ان تحصر او تحد ، أليس هذا اكبر درجة من درجات العلم واقصي غاية من غايات قوة الادراك ؟

(العقل) العلم في عرفنا ان نعلم حدود الشيء وصفاته وعلاقاته بغيره اما هذا النوع الذي تذكره فلم نصلح على تسميته علما

(عقيدة التنزيه) ان ما اصطليحتم على تسميته علما أليس قابلا للتحوير والتبديل والزيادة والنقصان حتى فيما تدعونه علوماً تجريبية ؟

(العقل) نعم وهذا من أخص صفات العلم

(عقيدة التنزيه) أفتريدون ان يكون شأن العقيدة كشأن العلم من حيث قبولها للتحوير والتبديل على حسب درجات العقل ورقى المدارك ؟

(البقل) لا ! لا يليق ذلك فان فيه خطا من كرامتها

(العقيدة) اذن فليس لنا الا امران اما تناولها بآلاتنا القاصرة وعقولنا المحدودة وتمريضها للتحوير والتبديل على نحو ما عليه عقائد الامم المبجلة واما وقوف العقل عند حده والافرار بعجزه المطلق عن تناول ما ليس من عالمه ولم يوث وسيلة الصمود اليه

(العقل) اذن كيف يثلج الصدر بالعقيدة وتطمئن الخواطر لها

(العقيدة) الاعتقاد على النحو الذي ارسمه لك لا يكاد يخالفك فيه اكبر ملحد فضلا

عن انه احسن ما يثلج عليه صدر المؤمن لانه مستند على الحس
(العقل) كيف ذلك ؟

(العقيدة) لا تشعر بضرورة وجود قدرة ابدعت هذا العالم المدهش وتلك القدرة
كبيرة الى ما لانهاية ؟

(العقل) هذا امر بديهي لا يحتاج لجدال
(العقيدة) ألا ترى ان هذه القدرة المبدعة دائمة العناية بمبدعاتها ومواصلة الامداد
والترية لها

(العقل) كيف ينكر الحس عاقل ولكن الملحدة يسمون هذه القدرة نواميس
طبيعية

(العقيدة) اذا كنت تنكر عليهم تسميتهم لهن نواميس طبيعية فلماذا تنكر انك ايضا بتقليدهم
في تصورهما بصورة ما والحكم على صفاتها بحكم يناسب حالك ؟ اذا كان الملحدة قد جاروا
بتحديدهم تلك القوة فلماذا تريدان تجور انت ايضا من جهة اخرى ؟ الا ترى انك لو اكتفيت
بالعقيدة الفطرية وهي الشعور بوجود قدرة لا تحد ابدعت هذا الوجود على مقتضى الحكمة
والعدل وأقلعت عن تحديدها وتصويرها على قدر وسائلك القاصرة ، وكان اكتفى المحدث من
جهة أخرى بشعوره الذي لا يمكنه ان يخالفك فيه مطلقا لانه شمار هذه الانسانية امام هذا
الوجود المعجز لأن الانسان لا يستطيع ان يدعى مطلقا وجود هذا الوجود بلا قدرة عالية
قلت لو كنت اكتفيت انت بما تشعره بالفطرة من وجود تلك القدرة واكتفى هو ايضا ولم
يسمها نواميس اما كان ذلك داعيا لاتحادكما في العقيدة وتأخيكما عليها ، ولكنك لم ترض
بالوقوف مع الشعور الفطري فقامت تصور وتحكم ولم يقف هو ايضا في مركزه بل أخذ يجمل
 ويفصل حتى سماها نواميس طبيعية ، فنشأ بينكما خلاف موهوم ما كان لينشأ لو وقفا عند
حدكما ولزمتا مقامكما . اما ثلج الصدر واطمئنان الخواطر فهو من لوازم التنزيه وصفاته فان
شعورك بقدرة عالية متولية أمر الكون والكائنات على دستور العدالة والحكمة والعلم وانها
كما تولتك وانت نظفة وربتك تلك التريية الجينية ثم هدت امك لتربيتك وساقها
للعناية بك حتى كبرت وترعرعت هي نفسها التي تتولان الآن وتبعثك بالدوافع التي وضعتها

فيك الى كمال أنت مستأهل له وان لم تنته بعد اليه ولم تشرف عليه . شعورك بانك مقود بتلك القدرة التي لا تحد ولا توصف والتي لا يستطيع ان ينكرها احد يجعلك هادئ الضمير تلج الصدر خالياً من جيشات الشبه وسطوات الشكوك ، وهل الشبه والشكوك تطراً الا على محصولك العلمي وقضاياك العقلية ولكن هذه العقيدة التي لا اسمح لك فيها بالحكم عليها بفكرك القاصر وعلمك الناقص وأريد منك ان تدعها فطرية طبيعية كما هي ، كيف يطرأ عليها الشك وليست من قبيل معلوماتك المتحولة وقضاياك المتغيرة ؟

الا ترى متى بعد هذا ان التنزيه ارقى درجة من درجات العلم وانه اوجب لأن يطمئن اليه الخاطر وينشرح له الصدر وادعى لان تجتمع الامم كلها عليه وتتآخي فيه تآخياً خالصاً لتساوي الكل في الشعور بموضوعه شعوراً فطرياً . وانه اعدل طريق يسلكه الانسان امام حاجته للعقيدة وارتياحه لها

اما النور الذي يحل بالصدر والسعادة التي تقاض عليه من حلول عقيدة التنزيه به فلا أن ردع القوة الفكرية والخيالية عن الجولان في اكبر موضوع يؤثر عليهما وياقافهما عند حدما دون الخوض في مسائله يستلزم حدوث انقلاب غريب في دستور مملكة الانسان الباطنية واتجاهات قواه الداخلية . فانه بردع تينك القوتين عن الجولان في هذه العقيدة المستولية على مهاب مشاعر الانسان ومسارب مداركه كما اثبتنا ذلك قبل قليل فتنقطع عن شياطين الأوهام والخرافات التي تلتصق بالدين زورا مادة البقاء فتنجلى عن النفس بحكم الضرورة وهذه الشياطين كما لا يخفئك قوى تسويلية تضليلية تحل بالنفوس المستعدة لها كما يجذب الميكروب الى البقعة التي يجد فيها غذاءه فيفرخ فيها ويتكاثر حتى يخرج ذلك الشيء عن اصله بالتحلل . كذلك النفس الوهامة المخرفة تنجذب اليها تلك القوى الخبيثة فتفرخ فيها وتنمو وتستدعي ما هو افكك بالحياة منها ولا تزال بضمير الانسان حتى تحلل فضائله او تمسخها وتصرفه في شؤونها واهوائها الى ان ينتهي وجوده على حال من الاحوال . ولكن حلول التنزيه في القوادر من جهة العقيدة وهي الجهة المتسلطة على سائر عواطف النفس واميالها يقف بالنفس موقف الطهر ويحميها من فوائك الصفات الحسيسة وخوانس القوى الشريرة فتدع الانسان لقواه الطبيعية ومواهبه الفطرية وهي اولى القوى بحق قيادته واهدى الادلة

عن انه احسن ما يثلج عليه صدر المؤمن لانه مستند على الحس
(العقل) كيف ذلك ؟

(العقيدة) لا تشعر بضرورة وجود قدرة ابدعت هذا العالم المدهش وتلك القدرة
كبيرة الى ما لا نهاية ؟

(العقل) هذا امر بديهي لا يحتاج لجدال
(العقيدة) ألا ترى ان هذه القدرة المبدعة دائمة العناية بمبدعاتها . مواصلة الامداد
والتربية لها

(العقل) كيف ينكر الحس عاقل ولكن الملحدة يسمون هذه القدرة نواميس
طبيعية

(العقيدة) اذا كنت تنكر عليهم تسميتهم لهن نواميس طبيعية فلماذا تهم أنت أيضاً بتقليدهم
في تصورهما بصورة ما والحكم على صفاتها بحكم يناسب حالك ؟ اذا كان الملحدة قد جاروا
بتحديدهم تلك القوة فلماذا تريدان تجور انت ايضا من جهة اخرى ؟ ألا ترى انك لو اكتفيت
بالعقيدة الفطرية وهي الشعور بوجود قدرة لا تحد ابدعت هذا الوجود على مقتضى الحكمة
والعدل وأقلعت عن تحديدها وتصويرها على قدر وسائلك القاصرة ، وكان اكتفى الملحد من
جهة أخرى بشعوره الذي لا يمكنه ان يخالفك فيه مطلقا لانه شمار هذه الانسانية امام هذا
الوجود المعجز لأن الانسان لا يستطيع ان يدعي مطلقا وجود هذا الوجود بلا قدرة عالية
قلت لو كنت اكتفيت انت بما تشعره بالفطرة من وجود تلك القدرة واكتفى هو ايضا لم
يسمها نواميس اما كان ذلك داعياً لاتحادكما في العقيدة وتآخيكما عليها ، ولكنك لم ترض
بالوقوف مع الشعور الفطري ففقت تصور وتحكم ولم يقف هو ايضا في مركزه بل أخذ يجمع
ويفصل حتى سماها نواميس طبيعية ، فنشأ بينكما خلاف موهوم ما كان لينشأ لو وقفتما عند
حدكما ولزمتما مقامكما . اما ثلج الصدر واطمئنان الخواطر فهو من لوازم التنزيه وصفاته فان
شعورك بقدرة عالية متولية أمر الكون والكائنات على دستور العدالة والحكمة والعلم وانها
نظفة ورسك تلك التربية الجينية ثم هدت امك لتربيتك وساقها
التي تتولان الآن وتبعثك بالدوافع التي وضعتها

فيك الى كمال أنت مستأهل له وان لم تنته بعد اليه ولم تشرف عليه . شعورك بانك مقود بتلك القدرة التي لا تحد ولا توصف والتي لا يستطيع ان ينكرها احد يجملك هادئ الضمير تلج الصدر خالياً من جيشات الشبه وسطوات الشكوك ، وهل الشبه والشكوك تطراً الا على محصولك العلمي وقضاياك العقلية ولكن هذه العقيدة التي لا اسمح لك فيها بالحكم عليها بفكرك القاصر وعلمك الناقص وأريد منك ان تدعها فطرية طبيعية كما هي ، كيف يطرأ عليها الشك وليست من قبيل معلوماتك المتحولة وقضاياك المتغيرة ؟

الا ترى معي بعد هذا ان التنزيه ارقى درجة من درجات العلم وانه اوجب لأن يطمئن اليه الخاطر وينشرح له الصدر وادعى لان تجتمع الامم كلها عليه وتتآخي فيه تآخياً خالصاً لتساوي الكل في الشعور بموضوعة شعوراً فطرياً . وانه اعدل طريق يسلكه الانسان امام حاجته للعقيدة وارتياحه لها

اما النور الذي يحل بالصدر والسعادة التي تفاض عليه من حلول عقيدة التنزيه به فلا أن ردع القوة الفكرية والخيالية عن الجولان في اكبر موضوع يؤثر عليهما واقفاهما عند حدهما دون الخوض في مسائله يستلزم حدوث انقلاب غريب في دستور مملكة الانسان الباطنية واتجاهات قواه الداخلية . فانه بردع تينك القوتين عن الجولان في هذه العقيدة المستولية على مهاب مشاعر الانسان ومسارب مداركه كما اثبتنا ذلك قبل قليل فنقطع عن شياطين الأوهام والخرافات التي تلصق بالدين زورا مادة البقاء فتنجلي عن النفس بحكم الضرورة وهذه الشياطين كما لا يخفئك قوى تسويلية تضليلية تحل بالنفوس المستعدة لها كما يجذب الميكروب الى البقعة التي يجد فيها غذاءه فيفرخ فيها ويتكاثر حتى يخرج ذلك الشيء عن اصله بالتحلل . كذلك النفس الوهامة المخرفة تنجذب اليها تلك القوى الخبيثة فتفرخ فيها وتنمو وتستدعي ما هو افثك بالحياة منها ولا تزال بضمير الانسان حتى تحلل فضائله او تمسخها وتصرفه في شؤونها واهوائها الى ان ينتهي وجوده على حال من الاحوال . ولكن حلول التنزيه في القواد من جهة العقيدة وهي الجملة المتسلطة على سائر عواطف النفس واميالها يقف بالنفس موقف الطهر ويحميها من فوائك الصفات الحسيسة وخوانس القوى الشريرة فتدع الانسان لقواه الطبيعية ومواهبه الفطرية وهي اولى القوى بحق قيادته واهدى الادلة

لارشاده وهدايته

عقيدة التنزيه تفعل بالنفس من التطهير والتنقية وتممرها من ارواح السكينة والحياة الصحيحة ما لا يفعله العلم الطبيعي الذي يزعم اليوم انه يحل محل الدين في قيادة الانسان وتخليصه من اسر الخرافات الاعتقادية التي حملها لنفسه ومسخ بها فطرته . يقول علماء الطبيعة والانسان ان الخالق قدست صفاته وهب الانسان مواهب جليلة ومنحه بمزايا نيرة وركبه مادة ومعنى على صورة قابلة للترقى والتهديب ووضعه في وجود مناسب له من كل وجه وصالح لصقل ملكاته لما بينهما من الارتباط والمناسبة ، ولكن الاديان وكهاتها قد كانت ولم تزل عتبة كوثوداً في رقيه بما تفتحته سبيل له من مجال الخيال والالوهام وما تلتطخ به فطرته من الضلال والاحلام وما تصرفه فيه من الاعمال التي تقسديكيانه وتمسخ طبيعته فتجعله مملوكا للاهواء مستعبداً للاساطير فجاء العلم الطبيعي بعد ان فاز على رؤساء الاديان ونجا من مغالبتهم لتخليص هذا الانسان الضعيف من ايدي مستعبديه ومضليه بخلع كل تلك الكسف المتراكمة على فؤاده ولبه من عقائد باطلة واوهام عاطلة وتجريد فطرته عما يقف بها في احوال النقص وينمساها في اقداء الرجز فتخلص مواهبه من قيودها وتستقيم ملكاته على مناهجها ويزداد على نسبة العلم والعرفان الذي يعطي له رقياً ورفعة .

هذا ما يزعمه العلم الطبيعي المصري ويرجوه ويعمل عليه فاذا كانت النتيجة ؟ كانت تخليص الانسان من اسر الاهواء حقيقة ولكنه جارف مره من عاطفة الدين ايضاً فضج العالم منه ضجة لم يزل دويها يمترق الآفاق للآن يسمعا اصحاء الآذان والافئدة وان انكرها الصم المفتونون قال (فيرنس جياترت) في كتابه النعمة الحاضرة « ان العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة اكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد اثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعداها بتعويضها لها باصول ثابتة ابدية لدين حسي جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للانسانية رشدتها ، وقد فقدت شعرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ اوسع مما كانت فيه قبلا . وفي الواقع ماذا يفيد الانسان علمه ييمض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الاحاد المتجدد المؤلم الذي يحجرنا اليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة »

« انهم ينصحون كل انسان بان يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفتنوا الى ان هذه

النصيحة المزدوجة تحتوى على تناقض بين حيث ان المذهب الحسى لم يترك للانسان مجالاً في غير المسائل المادية المحضة .

« ان الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس اهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة الى الابد ، وان جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك لدى اهل اليسار والبذخ . وهذا الاحاد الآخذ في النمو يسوق جميعاتنا بباطفة المساواة الى حالة ثوروية دائمة . واصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الازمنة الماضية . والحكم الاستبدادي بدل ان يتشبع في بعض الافراد اضحى منتشراً بين الملايين فكل ديموقراطى يتنى ان يبلغ الرتب العلية ، وترى الشعب لما أحس انه خلص من اسر الواجبات الروحية التي تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية اعطى لماطفة الأثرة فيه كل الحرية وصار يعتبر ان ماله من حق المساعدة في ادارة شؤون حكومته وسيلة لنيل ما ربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ولقد رجونا ان نداوى مصائب النوع الانسانى بالكنوز المادية التي القيت بين ايدينا من منذ قرن من الزمان ، كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظيمة ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكشفات الا نشر حتى حب المال في الطبقات السحيقة جداً .

« فأى قانون اخلاقى يكفى لكبح جماح اهوائنا وادخالها الى مجاريها الطبيعية المعتدلة لقد ذهب عنا الكمال المعنوي ولم يبق فينا الا خوف مبهم من شيء غير مدرك . لان العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس ، فترى الذين لا احساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم في ارتكابهم الجرائم وبهذا فقد اصبحت الشهوات غير واقفة عند حد »

« ان تحت هذا السلم الذي اقتضاه الخوف العام لاحقاداً تخنم اختماراً بأشد مما كانت في اى زمن من الازمان فان جرائم القوضيين وافلاس المالين وانتحار الاسر باجمعها والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس والجنون الذي لا ينتظر الا سنوح الفرص واصحاب الاثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم اجناسنا ناشئ من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لاحداث الوحدة والاخاء بين احتياجنا

الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب ،

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ملقبة اظلمها على عالمنا . ويزعم الانسان في غروره ان حرية الاثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانشرح حتى صرنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسمى لنيل امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعى لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهي اليه وبذلك فقد اصبح الانسان بين هذا المذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفاً بأنه امام الحياة اضعف مما كان في أى زمن من الازمان »

وقال العلامة (كاميل فلامريون) ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لا يجوز لنا ان نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضينا به واصبحت عقولنا المتشعبة بالأثرة لاهم لها الا اغراضها الذاتية اليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » « وان من التناقص بين المؤلم ان ترى ان الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للانسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا الى المدرجات العالية اهبطت انسانيتنا الى اخس الدرجات . ومن الحزن ان نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم ، تنطفئ حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » انتهى

اذا علمت هذا رأيت ان الصراط الالهى الاعدل والمخرج من كل هذه الفتن المزعجة المجتاحة هو الاسلام فانه المنهاج الوسط بين افراط الاديان المحرفة وتفريط العلم الطبيعى أفرطت الأولى في اسر الانسان واطلق كهانها لانفسهم عنان الحرية في اسر العالم وتسخيرهم لأرادتهم فنارت الانسانية في وجوههم وقارعهم بالحديد والنار حتى خلص العالم منهم فجاء العلم ولكنه في طرف التفريط فازال عن النفوس اعز مطلوباتها وسعى في اقناعها بإمكان قيامها على الصراط الحيوانى مقصوراً على الطين ولذاته والحس ومقتضياته ، منكرآ لها الروح والخلود والثواب والعقاب وعالم ما وراء المادة فاستراحت اليه هنية واستنامت له برهة ثم احست بما افزعها وازعجها فقامت تنشد مطلوباً عزيزاً وتطلب مفقوداً غالياً . وما هو ؟ هو

الاسلام لانه حاصل على ارقى ما تتوق اليه النفس من مطالب روحية وكالات نورانية وعواطف قلبية . وحال باقصى ما يتمناه العلم من معاداة الخرافات ومجافاة الظنون والوقوف بالنفس موقف الطهر عن اعتقاد الاوهام واقتفاء اثر الخزعبلات وتسليم قياد النفس للقادة المضلين والهداة الغاوين الخ الخ مما يطلبه العلم ويجهده نفسه في تقريره لان عقيدته التوحيد وهي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله وعقيدة التنزيه وهي ردع الفكر والخيال عن الحوم حول تصوير الخالق وتكييفه وما يقتضى ذلك من الادب النفساني الباهروما يتبع ذلك من البعد عن الظن والتقليد والاعتقاد بلا دليل الخ الخ مما هو من قواعد هذا الدين القيم، كل ذلك يجعل المسلم أشد حيلة لنفسه من أى عالم او متعلم على الاسلوب الحديث فان المسلم يعتقد انه مسؤول عن كل شيء وعن أقل زيغ في الدنيا والآخرة لا في الدنيا وحدها كما هي عقيدة طلاب العلم الطبيعي فهو بالضرورة اكثر احتفاظاً منه بنفسه . لا تقل فلم لا نرى المسلمين كما تصف ، فاني اقرر ماهية الاسلام من انه الصراط الالهى الاعدل الذى سيرث العلم والاديان معا . اما المسلمون فلنا عليهم كلام آخر .

اذا تقرر هذا فقد ظهر لك باجلا الادلة ان الاسلام الذى عنوانه لا اله الا الله محمد رسول الله ، وحليته التوحيد والتنزيه بأخص معانيهما هو الدين الحق الذى سيؤوب اليه المفرطون والمفرطون معاً . أما المفرطون من أصحاب الأديان فانهم يلاقون من انفسهم ومن الوجود كل يوم حرباً عوانا وقد رأيت وترى انهم يقولون في كل صقع ويضولون في كل جهة وایس هذا الاضمحلال عرض يزول بل هو مستند على موانع طبيعية تمنع من بقاء اديانهم لمخالفتها للعقل وللطبع معاً . واما المفرطون من اصحاب العلم الطبيعي فلا يمكنهم الثبات في وقتهم مع الحس وقد أريناك انهم أخذوا يجأرون ويصيحون بفقد العقيدة . اذن فلا بد من دين يتفق عليه الطرفان ويكون وسطاً بين الافراط والتفريط وكتابه محفوظاً من التحريف والتخليط وتاريخه معروف مشهور . ولا دين فيه هذه الصفة الالهية غير الاسلام الذى جاء يدعو الناس اليه محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذى قال الله فيه « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون » « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »

﴿ الرقى المادى والشكوك فى الدين ﴾

نحن بعد ان جلنا بالقارىء هذه الجولة يحسن بنا ان نسأل انفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرقى المادى والشكوك فى الدين ؟ وما هذه العلاقة الاكيدة بين العلم بالكون والاحاد ؟ لو كان هذا شأن امة من الامم لقلنا ان له سبباً عرضياً استدعته حالة من أحوالها الخاصة ولكنه يشاهد فى جميع الامم على حد سواء (الا الامة الاسلامية) واطهر مثال لنا ما نشاهده باعيننا من الاوربيين فانهم اصبحوا من ترك العقائد بحيث لانستطيع ان نتخيل امكان رجوعهم اليها وقد علقو رقيهم كله على تركها وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعشه الجمل ومادته الماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الاديان الموجودة هي حوادث تاريخية استلزمها أدوار خاصة وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟

ان كان لا هذا ولا ذاك ، فهل فى الرقى المادى شىء من السحر يعترى النفوس فيلقطها عن مطالب ارواحها ويعميها عن رؤية كالاتها ؟

ان كان كذلك فما هو ذلك السحر فى نفسه وما منشأه وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن ان يوجد على سطح الارض مدنية مادية متحدة بكملات روحانية ويكون الانسان بينهما مغموراً فى نعيم روحه وجسده متمتعا بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين وموقوفاً على المحرومين والمستضعفين ؟

وان كان من الممكن جمع مدنية مادية مع كملات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك فى قشور هذه المدنية الاوروبية قد خلعوا أئنة الدين ، واملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العدل ان نصمهم كلهم بالماية والطيش فان منهم المتعلم الذى يفخر به معلموه ، والسمح الذى هام به محبوه ، والاربحى الذى يحمده قاصدوه ، فما الذى امال اعناق هؤلاء الى

الهوى ودفعهم الى الردى ؟ واذا كان لا مناص من ان يكون الرقي المادى يقابله عدم الدين وقد رأينا بوادره في اخواننا الاقربين فانتظر اذن حيناً من الدهر لا تصادف فيه راءكاً في محراب ، ولا داعياً الى غير شراب ، لان المدينة الصناعية آخذة في الانتشار ومتسربة الى سائر الامصار ، وانك ترى انها تعدت من كبار الافراد الى من يليهم ومن يليهم الى من ونهم حتى دخلت الى قرى الفلاحين ، وكادت تطرق الباب على صغار الحراثين ، فان كان كما قلنا في المدينة شئ مما نسويه سحرأ فقد قرب الوقت الذى ندعو فيه الى الدين فلا يجيبنا غير الصدى ، ويذهب كل ما كتبناه في الحث على التخلق به سدى

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لادراك سرها ، والوقوف على حقيقة أمرها ، لنعرف مكان الداء وحقيقة الدواء تفادياً من التعب في غير متعب ، وهرباً من الذهاب في غير مذهب ؟

ما هي المدينة وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ما هي الشهوات الجثمانية وما هي الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية ؟ هل السبب في ذلك عدم الايمان ؟ فما هو الايمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل في العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في ايتاء الروح حاجتها وتهدة النفس في جيشانها ؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الارضية وتكتفى بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهي بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد ما بنيت عليه من الاركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الامر بزوال الدين وانتهاء سلطته ، وقيام العقل مقامه في اداء وظيفته ؟ يمكن ان يقال نعم ، وان يقال لا .

ان قيل نعم فما هو العقل وما هو الدين وما حدود سلطانها على النفوس ؟ هل هما يتنازعا ان الانسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب منهما دون الآخر ، ام لكل منهما دائرة نفوذ خاصة يؤثر على انسان من قبلها ؟ فما هي جهة سلطة العقل وما هي جهة سلطة الدين ؟

وان قيل لا . تقول : اذن ما هذا الامر الذي نشاهده ؟ لماذا نرى كل من ازداد علماً بالكون وباللامم من اصحاب الاديان سواء الاقدمين او المحدثين يشكون في العقائد ويتهاونون في

أمرها ، ولا يزالون كذلك حتى يتركوها بالمرّة ؟

ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من اسباب اللهو والترّف ، وما تجلبه لهم من اللغريات على الخلعة والسرف . نقول : وكيف يقوم لامثال هذه الامم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ؟ عادٍ على كيان حواظها الاصلية ؟ هل ذلك لأننا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ ماذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال

« انكم سيمت عاداتكم فضائل ودعوتكم اضدادها رذائل وجعلتم ذلك قانوناً تحكمون به على الأمم والافراد فيذهب كل يوم حكمكم ادراج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها فتحكمون عليها بأنها بعيدة عن الفضيلة وترون فيها اضداد عاداتكم فتحسبونها رذائل فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشي . والحقيقة غير ما تحكمون وما تظنون .

« انكم تنظرون الى الربا فتظنونه رذيلة محتاجة (هذا قول المعارض) مع أن عليه تدور دائرة التعامل في العالم المتمدن كله وبه تتوطد الدعائم الاقتصادية فيه . وتلتفتون الى الحر فتعدونها رذيلة حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الأكبر لمالية الأمم المتمدنة ؟ وترون الى مسألة تكشف النساء وحضورهن في مجالس الرجال فتخالونه رذيلة مع أنه أهم الاسباب التي رقت الاوربيين واخذت بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سيمت كل ما خالفكم فيه غيركم رذيلة وهي في الحقيقة فضيلة وصرتم تثرثرون بها كل يوم حتى اعتادتها الاسماع ولم يعد لها تأثير .

« انكم تعجبون من كونكم مسحوبين من انوفكم الى تقليد الأوربيين والاخذ بعاداتهم وتذهبون في تحليل هذا الامر مذاهب الخيال والشعر فتسمونه سحراً او تسمونه روحاً وقد جعلتم التفيق بامثال هذه الكلمات مادة لكم في ابجائكم وكتاباتكم ادررون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد اثر اي قوة هو ؟ هو اثر قوة الفضيلة في الامم التي تحتكون بها لان الفضيلة جذابة خلافة تؤثر تأثير السحر على المواطنين والاميال فهي تجذبكم كل يوم اليها بقوتها الذاتية فترضخون لاحكامها بالفعل بينما تكون السننكم واقلامكم لائحة

تلك العبارات الاستفهامية والجل التعجبية اندهاشاً من كونكم مسحورين بالذائل ومجبرين على ترك الفضائل . فعليكم ان تبصروا وتجيدوا استعمال الروية ، قبل ان تقع على عاتق المهورين من كتابكم المسئولية ، مسئولية صد الشرق عن الاستفادة من خير المدينة »

هذا مايستطيع ان يقوله مجادل عنيد في مناسبة ماسقناه من النبذة التاريخية ومانساءنا عنه من ذلك المؤثر الذى يؤثر على العقيدة الدينية في عصور المدينة . وهو من الشبه الرائجة في أيامنا هذه على ألسنة بعض الناس ممن يستطيعون التعبير . وفي ضمائر البعض الآخر ممن لا يحسنون القول والقليل . فلا مناص لنا من حلها حلاً جلياً تفصيلياً ان شاء الله تعالى لانها من احاييل شياطين الشرق اليوم التى وقع فيها كثير من افراد النشأة الجديدة مسوقين اليها بتيارين : تيار سحر الزخرف الصناعى المنصب الينا من اوروبا وتيار القوة والنفوذ اللذين هما في جانب الغرب اليوم .

هذان التياران وان كانا في العادة دافعين هائلين للامم المستضعفة الى الانحلال ، الا انهما لا يبلغان غاية قوتها الا امام الامم الجاهلة الغافلة عن سر الحياة ، التى لا تسمح لها عماتها بالتفكر فيما بعد يومها الذى هى فيه ، وتوهمها وساوسها بان الحال لن يتغير عما هو عليه ، وان العالم قد طبع بطابع نهائى اى ان القوى يبق قويا الى الابد والضعيف لا يبرح ضعيفاً الى الابد ، ولا معنى لهذا الا اليأس بعينه وهو اشد درجات الكفر في مذهبنا .

فالعلم والحالة هذه يفتح للارواح باب الامل الواسع ويحلهم بساحة الرجاء المنعش فيطلبون الحياة بما لديهم من الوسائل فان اكثرت الوسائل طلبوها ولو بالتنى ، واحتموا بذلك من اليأس الذى هو طاعون الهمم ، وسرطان الشعوب والامم ، ولو لم يكن في حلولنا لهذه الشبه الا الالمام بشيء من اسرار الحياة لكفى به نتيجة عظيمة

﴿ حلول الشبه المتقدمة ﴾

﴿ تمهيد ﴾

لو اردنا ان نعالج كل هذه الشبه التى سردناها واحدة بعد أخرى لطال بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارئ مع قلمنا مذاهب بعيدة يصعب معها اشرافه

على مجموع المقال ، ويتعذر عليه الاحاطة باطرافه من أول جولة فنضيق الثمرة التي نقصدها بالذات من اشباع القول في هذا البحث . لهذا رأينا ان نحدد ميدان المناقشة في دائرة محصورة يستطيع القارئ ان يلم بمحيطها من اول نظرة ويدرك لها مركزا معلوما ؛ ولا حرج علينا بعد ذلك ان مددنا انصاف اقطارها الى حيث يقتضيه منا خطر الموضوع ، فانه مادام واقفاً في مركز الدائرة يمكنه ان يتتبع خطوات القلم الى حيث يشطح ثم يعود بنفسه الى النقطة التي خرج منها ليتجه منها حيث اراد بدون ان يخشى الشرود عن جوهر الموضوع .

هذه الدائرة التي نقول عنها هي عبارة عن بسط مقدمات اولية اساسية صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالحدود المرسومة للبناء ، لا نرى بدا من اقامتها ومن الله نستمد القوة والحول :

﴿ دستور الكائنات ودستور الانسان ﴾

لكل كائن في عالم الكون دستور يسير على موجهه في حياته ، وترتد اليه سائر محاولاته ، حتى ان الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بها ملائم لحوالها وان كانت لا تتمتع من خصائص الادراك والتمييز بما يشعرها به ويهديها اليه ، وليس دستورهما الا النواميس الطبيعية المسلطة على كيانهما حتى انك لو كلفت شخصا من اشخاص الجمادات او النباتات بما لا ينطبق على تلك النواميس اى على دستوره الخاص لقاوملك واعياك ، فاما ان تقلع عنه واما ان يذهب فقيد هواك . فاما الحيوانات الحاصلة من الحياة على قسط اكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها اوسع مجالا ، وابتعد اختصاصا وأناى مراعى واغراضا ، ولكنهنهما اتسعت مجالاته ، وتشعبت اختصاصاته ، فلا تعدى مراعيه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد مهما ارتقى وتهذب لان ترمي لما وراء حسها بأى وجه من الوجوه

اما الانسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لا تقف به عند المطالب الطينية ، بل تعداها الى باحات أخرى معنوية لا يحدها له الوهم بحد ، ولا ينتهي منه تصويره الى غاية . وكلما ارتقى في الفكر والشعور درجة اتسعت امامه تلك الباحات المعنوية درجات

كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة اليها حتى انه قد يصل من الالتذاذ بالمعاني لدرجة يضحي معها الماديات في سبيلها ويكتفى من بواث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغا لتلك المطالب العالية وجريا وراء أمانيه منها . وقد شوهد من احوال الانبياء انهم مع سمو مناصبهم ، واستطاعتهم للتنعم بالماديات فوق ما يستطيعه الملوك والقادة لتسلطهم على أرواح الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز ببقيات تقيم صلبهم ، ويلتفتون من عالم القدس وانوار الجمال الالهي لما هو اكبر من الدنيا وما فيها في نظرهم . واعظم مثال تقدمه لقرائنا حال سيد الانام محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان من السلطان على رعيته في درجة لم ينله عاشاق الملك ومؤسسو الممالك بحيث ان كل واحد من اتباعه كان يهون عليه ان يفديه بنفسه وأهله وماله ، ومع ذلك فقد ابت نفسه الشريفة كل ذلك النعيم الفاني ولم يصب من حاجيات بدنه الا ما يقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحاني الذي كان يشعر به مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار اصحابه وعظماء تابعيه في كل الاجيال على ان منهم من تبعه في هذه الخطة الشريفة فانغمر مما يتوق اليه في بحر من الفيض الالهي لو وضعت الدنيا بلذائدها في صدفة من اصدافه لما وازنت اصغر درة من درره المعنوية الكريمة .

نم ان تاريخ النوع البشري ليدل دلالة صريحة لاسيما لو استقرينا أحوال الامم المرتقية منه على ان دستور الانسان في حياته ، الذي يسيطر على سائر حركاته وسكناته هو غير دستور العالم الحيواني ولا هو ترق منه

الحيوان لاهم له الا خدمة الجسد ، واداء مطالب البدن يعيش ويموت أسيره وخادمه ، والانسان على الضد منه ، له مرام أبعد مدى ، واغراض اشرف مقصداً ، وهو طلب كمال يشعر به في صميم ذاته ، ويتضرم لاجله في لباب كيانه ، وان لم يستطع ان يصوره بصورة ، او يقف منه وهمه على كيفية

نم خلق الانسان مغرماً بالكمال ، ولهان به في كل حال فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسلم ، ولا ينقض ولا يبرم ، بل ولا يماكر ولا يداجي ، ولا يدلس ولا يحاجي ، وان شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل الا وفي قلبه نار

تدفعه لطلب الكمال ، وترعه عن الوقوف في الأوحال وان غلط في اختيار الوسائل ،
وارتكس بمجهله الى اخس المنازل

طلب الكمال صفة من صفات الروح الانساني ، ولازم من لوازم تركيه الروحاني
بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والاميال والقوى التي ركبت في هذا القواد
الخفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ماتعرفه من حال الانسان في جهله وعمايته ، وما تسمعه من غيه
وضلته ، وما اكسبته له التربية الرديئة من الصفات الحيوانية ، والاميال السفلية ، كالافعال
في المآثم ، والانفاس في اقدار الجرائم ، وارجاس الذمائم ، وانظر اليه بشراً سوياً خالصاً
من مؤثرات التربية المعوجة والوسط المفسد ، طاهراً من شوب التقليد والوراثات . تر
كائناً اعطى من القوى والمواهب ، ومنح من الملكات والبواعث ، ما لا يدخل في حسابان
حاسب ، ولا ينحصر في ابحاث باحث . ماذا ترى ؟ ترى ادراكاً لا تعجزه حقيقة ، وعقلاً
لا تكلمه معضلة ، وفكراً لا ترتد تموجاته دون غاية ، وتصوراً لا تنتهي قواه عندنهاية ،
وخيالاً ليس لمراميه دائرة تنحصر فيها ، وأمياً لا تنتهي لها مطالب . وقوى لا تعيها
الغائب ، وهو مع كل هذه العطايا في عالم لا تنتهي عجائبه ولا تفي غرائبه ، ولا تنضب
مادة آياته ، ولا تفيض أسرار مدهشاته .

تأمل في هذا الكائن المتمتع بهذه المواهب ثم قل لي اي مطلب يليق ان يتخذ له
غاية في حياته ، وأي مرمى يصح ان يجعله غرض محاولاته ، وانشودة ملكاته ؟ قلنا دع ما
تعلمه من حالة الانسان في الفساد والدنايا جانباً وقل لي بعدها أي طلبة تليق ان تكون مرمى
هذه الخلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا التركيب البديع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ،
ولا تقي هذه المنح والنحائز ؟

نم خلق الانسان وكل ما فيه يسوقه ويخزه لطلب الكمال والجمال ، بل ويهيئه ويدفعه
في سبيله دفع الجوع للجوعان ، ويسوقه سوق الظمأ للظمآن ! ولكن اين هو والاهواء
متغلبة والشهوات متألبة والعوامل التي سنطها على نفسه لم تدع له اختياراً
اي قلب لا يفتت كمدا وحسرة ، وأي حشاشة لا تذوب أسفاً وحزننا ، اذا علم الانسان

من حال بني نوعه واستعدادهم لأسمي منصات الكمال ، ما اتينا على طرف منه ، وانهم قد وهبوا من الملكات والقوى ما يدفعهم اليه دفعا ، ويهيئهم له تهيئا ثم يري ان اكثر هذا النوع المكرم قد شا كل البهائم في شرها ونهمها ، وضارع الوحوش في ضلالها وجهلها ، واشبه الضياع في ضراوتها وقسوتها ، وحاكي الشياطين في حيلها وخدعها ؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى والملكات عكسا سقط بهم دون عالم الحيوان ، فزوجوا بينهم ذمائم الصفات ، وخسائس الاخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم واحوالهم ، ورتبوا على اصولها قوانينهم وشرائعهم ، وجسوا انفسهم بذلك في مضيق لا يليق بكما لهم ، ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذي كان يلهم بفكر المصلح الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم فيجعله دأب الحسرة طويل الفكرة ، أسفا على ما آل اليه امر هذا النوع الكريم وقد كان هذا الاسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى ان مبدعه جل وعز خاطبه على لسان الروح الامين قائلا : « فلعلك باخع نفسك (اي مهلكها) على آثام ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . فرجع عليه الصلاة والسلام الى هذا الادب الالهي وعلم ان تلك حكمة بالغة ، وابداع لا يعلمه الا هو . فهو وحده المصرف للامور . العليم بصيور الشؤون ، واعقاب الاحوال سبحانه لا معقب لحكمه .

انظر الى هذه الفطرة الانسانية الكريمة والى ما تمتع به من قوى ومواهب والى ما تليق له من عاليات المراتب ، وساميات المناصب ، لو أسلمت وجهها الى الله أي لو تخلصت من شائبات التربية المفسدة ، وحررت من مؤثرات العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات الى غير ما خلقت له من الكمال والاعتدال ، ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التي تحجب عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجلالها الباهر ، وتأمل كما ينبغي ان تتأمل في تلك الغياهب الشيطانية التي تحول بين المرء وقلبه ، وتهبط به عن أوج مجده ، واشكر الله على ان هداك للاسلام ، وأقامك على منهاجه ، وهل الاسلام الا اسلام الوجه الى الله وخلع كل الوراثات والعقائد والمدركات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والقيام على صراط الاحسان في القول والعمل على ما يقتضيه قانون الخلقة

وناموس الحياة « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »
 اذا تأملت فيما قلناه ورأيت انك بينما ترى الانسان نوراً صرفاً وجمالاً خالصاً وكمالاً
 بحتاً اذا هو بعدم اسلامه اي بعدم اسلام وجهه لله ظلمة متكاثفة وقذراً محضاً ونقصاً
 يسفل فيه عن أخس الحيوان ، اذا تأملت في هذا وتعجبت منه ، فان أعجب منه بما لا يقدر
 ان الحد الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة واحدة قد تحل بصميم فؤاده فتمتلك
 سائر قواه فتوجهها الى مصاعد الكرامة ، ومعارض الجلالة ، فيخرج على اجنحتها الى الغايات
 القدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ، وقد تتخلى عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوى به الى
 اسفل من دركات الحيوانية ، ويغمره من عالم النقص الى اخس المنازل ، ويتركه من مداحض
 الأهواء في هوة ليس لها آخر :

هذه العقيدة هي الايمان بالعالم الروحاني واليك البيان :

— الناس امام هذه العقيدة —

الناس بازاء الاعتقاد بالعالم الروحاني ثلاثة اصناف : صنف يعتقدونها اعتقاداً ذوقياً فوق
 اقراره بها اقراراً برهانياً ، بمعنى انه لم يكتف باقامة الادلة على حقيقتها وجعل دينه مجرد حفظ
 تلك البراهين والثرثرة بها كتابة وقولا فقط ، بل صدقها بالحجة والبرهان ، وعمل بما تقتضيه
 من الاركان فذاقها ذوقاً ذاتياً فاتجبت فيه ثمراتها النورانية فسطعت في اعماق ضميره واقصى
 ثنيات فؤاده . ورجل لم يعتقدوها ولم يصح لديه برهان على حقيقتها فكشطها من ذاكرته ،
 ولم يمد يدها بباله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبين اموره على اصولها .

ورجل ثالث يعتقدونها بالوراثة عن آباءه وأجداده فاكتمى منها بمجرد وهمه بانه واحد
 من حملة أمانتها ، وفرد من الامة التي كانت تحمل علمها ، وتستضيء بمصباحها
 لا جرم ان لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستوراً خاصاً في الحياة يلائم مكانه من هذه
 العقيدة لا بد لنا من الاماع الى طرف منه تمهيداً لحل كل تلك الشبه المتقدمة لارتباطها بهذا
 الموضوع تمام الارتباط

❦ حال المعتقد بالعالم الروحاني ❦

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به في الدائرة التي تحددها له حواسه . أي لم يقصر عوالم الكون على محض ما تبصره عينه السكيلة . وما تلمسه يده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعه وذوقه ؛ وعز عليه ان يكون من الجمود والغلظ بحيث يجزم بأن هذا الوجود الذي لانهاية له لا يشتمل الا عليه وعلى ما يمكن ان يحسه فقط ؛ وانف تصوره ان يحكم على نفسه بأنه والحيوانات في مستوى واحد لا يمتاز عنهم في شيء مطلقا كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعي ؛ وابتى فكره الطموح الجوال ان يزعم ان هذه الطبيعية المدهشة لا يصرفها ويحركها الا نواميس طبيعية محدودة لا علم لها ولا اختيار ولا ارادة . وان كل هذه البدائع المحيطة بها من كل جانب ليست الا مقتضيات تلك النواميس وتنتاجها ؛ وتعاضى عقله ان يقبل تلك التعليلات الطبيعية التي جاء بها اولئك الذين ذهبوا بصائرهم ، وطمست أقنعتهم لعلهم بأنها ثمرة الفكر ولا يخفاه كلاله حده . وعجزه عن ادراك كنه الذرة البسيطة فضلا عن الاحاطة بالكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر

علم صاحبنا كل هذا ثم نظر الى تاريخ النوع الانساني نظرة فرآى ان العقيدة بالعالم الروحاني قديمة وعامة في سائر الامم فصعب عليه ان يزعم ان النوع الانساني عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموساً في بحار الخيال . وواهما في اكبر مشكلة تغنيه وتهمه ثم ألقى بنظرة اخرى على تاريخ الانسان ومر على احوال اولئك الرجال العظام الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب في سائر الاجيال من لدن القدم لليوم ، وحدثوا اكبر الحوادث الاجتماعية وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فراحهم كلهم مجمعين على وجود عالم روحاني فوق هذا العالم الجسدي ، ودعوا الى الاعتقاد به كافة الناس فحدثوا بهذه العقيدة اعظم القوارع الاديوية التي كان ولم يزل لها اكبر اثر في حال الانسان واخلاقه . فرآى ان مجرد حال أولئك الانبياء والرسل ان لم يكن هو وحده ادل الادلة على وجود ذلك العالم فلا اقل من انه يستلقت اليه النظر ، ويوجه عليه الفكر ، ويميل بالعقل الى ترجيح وجوده وينحسب اليه المتاع بشهوده .

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ثم عاد الى نفسه فرآى ان الحياة الارضية دار آلام واحزان وقرارة اكدار واشجان ومحلة بلايا وارزاء، تارة في النفس والمال وأخرى في الاخوان والآل، وان حوادثها سلسلة من ادوار واطوار، لا تنتهي حلقة منها حتى تبتدى حلقة أخرى، والانسان بين تلك الحلقات في حرب عوان وضراب وطعان ضد نفسه واهله وبني بلده واخوان وطنه وعموم نوعه، وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها وهو من معمعان هذه المعركة الدائمة في تيار يجري به الى حيث يجهل، ويجول به في كل جدول . يجتهد ليقف لحظة او يرتاح هنيهة فيرى ان في وقوفه الهلاك المعجل والشقاء المسجل فلا يسمع الا الاستسلام لدفع ذلك التيار فلا يزال يقذف به من جانب الى جانب حتى ينتهي به الى غاية حياته او يصدمه في احدى جمحاته صدمة توقف حركاته . ربما يكون هذا الرجل في اثناء دورانه هذا قد جاء باولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه وصار حظه من الحياة لا يفترق عن حظه وكثيرا ماتمزقوا امام عينيه فيكون المم مضاعفاً وحزنه وأساه ليس يسهل على الواصف .

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال فتحقق ان الحياة على هذه الصفة عبثاً ثقيلاً . بل بلاء وبيلاء وشراً مهولاً يجدر بالانسان معها ان يحسد القارة في وكرها . والمثلة في مسكنها . والحمامة في عشها . بل والحجارة في جبلها . والرمال في سهلها . وبينما هو يفكر في هذا الشأن ويتتس من حالته ويجأ الى قيوم الوجود ليهديه في حيرته ، وينعشه من وهدهته ، اذا بصوت جهوري يرن له من أعماق قلبه . ويصعد اليه من لباب معناه تالياً عليه قوله تعالى : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً » فلم عندها انه مستودع أمانة جليلة . وحامل سر عظيم ؛ فهم يتعرف تلك الامانة ويدرك معنى ذلك السر ولكن اين العرفاء اين الادلاء اين المرشدون ؟ اين الهادون الخيرون اين الحكماء الروحانيون ؟ فينما هو يجأ الى الله بهذا القلب المنكسر واللب المنذعر واذا بصوت كالاول صعد اليه من غيابة سره تالياً عليه قوله عز وجل « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس » فرمي بنفسه بين يدي أولئك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام رجاء ان يأخذوا بيده ليقفوه من هذا الدوران

زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

اذا عجبت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد في الدنيا مع هذا السعي فيها ، قلنا :
الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني يعلم تبعاً لذلك انه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ؛
وخليفة الله عز وجل في أرضه ؛ وانه قد منح من القوى المختلفة ذات القابليات العجيبة .
ما لا يحصره وصف الواصف ، أريد من هذا انه كلما ازداد تنوراً بعالم الروح ، واستشراقاً
لأنواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛ ويرى بالحس ان
تلك القوى لم تخلق فيه عبثاً ، ولم توضع في ثنيات فؤاده جزافاً ، بل خلقت لأغراض يجب
ان تسعى اليها ، ومرام لا تنفك تتطلع لها ؛ فيكون الذي يعتقد بالعالم الروحاني والحالة
هذه مجبراً على اعمالها فيما خلقت له ، مسوقاً الى توجيهها الى مراميها التي طبع عليها ،
عملاً بشروط خلافة الله في أرضه ، وقياماً على صراط العدل الذي هو طريق حياته ونجاته
وبناء على هذا فيكون دأبه على اعمال قواه واستخدام مواهبه على النحو الذي صورده عليه
مبدعه بقدر شغفه بكمال ذاته ، وكفاه بالصعود بها الى العوالم التي يتوق اليها . لانه يعلم انه
لا كمال الا بأدائها ، ولا صعود الا بالنهوض بأعبائها .

هذا سر تلك المهم العلية ، والعزمات القوية ، التي تسوق اصحاب العقائد الحققة الى
جلال الاعمال في هذا العالم الارضي مع زهدهم وتقاهة الطينيات في نظرم
الرجل من هؤلاء لا يستثمر الطبيعة لينال منها لذة . او يصيب منها وطراً ؛ فان ما
يشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للدنيا وما فيها . ولكنه يستثمر الطبيعة لكونه
يمتد انه آله من آلات الحياة ، ينشرها حيث يصل اليه امكانه ؛ وانه شعاع من نور
الكمال خلق ليكشف الغم ويقشع الغياهب ، وانه عامل من عوامل الحق ارسل ليقارع
الباطل حيث كان وأنى وجد .

أنا لا أدعي ان جميع افراد الامم ذوات العقائد الحققة هم على هذا النمط من الكمال
وانما هذه الحال مخصوصة بافراد من تلك الامم يعدل الواحد منهم الالوف المؤلفة ممن
ليسوا على شاكلته . فاذا كان منهم مائة في أمة عظيمة فان ارادتهم القوية تستولي على
مجموع ارادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم الى حيث يريدون ويصبغونهم بنفس

صبيقتهم ولو تقليدياً وليس هذا بمجيب بل أثر من آثار قانون الموازنة ألا ترى ان من كان جسمه اقوى كان جذبه لمن هو دونه مناسباً لتلك القوة ؟ كذلك من كانت روحه اقوى جذب من هو اضعف منه لا محالة وحركه بحركته . ومن هنا ساغ لنا ان نقول ان روح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم اقوى الارواح التي ظهرت في العالم لتأثيرها في الارواح المحيطة بها تأثيراً لم يمهده له مثيل في تاريخ الانسان

❦ حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني ❦

حاله على الضد من سابقه بمعنى انه وقف من وجوده في الدائرة التي حددتها له حواسه وقصر الكون كله على ما تبصره عينه وتلمسه يده ويتأثر به ذوقه وسمعه وشمه . بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحبس بهما بواحدة من تلك الحواس فانكر وجودهما ، وأراد ان يعلل وجوده ووجود الكائنات على غير الطريقة الاعتقادية فاخترع اسما اتزعاها من حال الموجودات وعلائقها ببعضها وسماها نواويس طبيعية وزعم أنها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم انها هي التي ابتدعت كل هذا الابداع الباهر في ملايين لا تحصى من السنين ، وان ليس الكون وما فيه الا سلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدياوات فتعمل فيها النواويس المتسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية ، ثم تلبث ما قدر لها ان تلبث ثم تتلاشى وتتحطم بمصادمة كوكب آخر لها او بسبب آخر وهكذا الحال ابد الآبدين ودهر الدهرين

ولسكن كيف العمل وهو من ادوار الحياة مسوقاً بنفس التيار الذي كان يسوق صاحبنا المعتقد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحال التي وصفناها هنالك ! ويزيد عليها امر افظع عليه من كل ما سبق وهو اليأس من اختلاس !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولو اعجب الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهند المصقول ، ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلقه عليه وعلى أهله وإخوانه وبني نوعه ، ثم لا يرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل ان له منه معزياً ، ولا يتوهم ان وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، وياتد بانتظاره وتمنيه !

الهائل ، وينقذوه من أسر هذه الحلقات الموبقة ، ولكن من الذي يقصدهم وهم كثيرون ، ومن الذي يستمد من روحه واكثر تعاليمهم قد حرقها المحرقون ، وبدلها المبدلون ، فانه ليموج في متاهة هذه الحيرة واذا بالهام يذكره بهذه الآيات . « اننا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » فلم يسمعه بعد ان ظهر له وجه الخلاص ، وترامت له سفينة النجاة الا ان يقتصر بها من هول ذلك التيار الجارف ، ولكن هيهات كيف الوصول الى سلم السفينة وهو من موج احواله في هبوط وصعود ، ومن ثورتها في اضطراب يضع الرشد والحيل ، ويفرى بالبأس عن بلوغ الامل ، فينما هو على مهواة القنوط واذا بدا كرتة مرت به على هذه الآية « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فلم انه لن يحرم من معونة مبدعه الذي خلقه ووعد به الهداية ، وصوره على هذا الابداع وحاطه بحسن الرعاية ، فلم يزل يأخذ نفسه بادب القرآن ، ويستمد نور طه عليه الصلاة والسلام حتى هدأت تلك الزعازع ، وركدت هاتيك الزواجر ، وقد كان يظنها لا تهدأ ، ثم منحه الله كرامة السكينة في فؤاده بعد ذلك الجيشان الابليسي ، والسكينة مشرق النور الالهي ، ومهيبط السر الفدسي ، ومهب نسيمات الطمأنينة والراحة « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم » فازداد حباً في التأدب بأداب النبي الاعظم وتشبهاً بتعاليمه صلى الله عليه وسلم فقال على قدر ذلك قرباً من الحق الاقدم ، وتمتعاً بشهودا لجمال الاقدس ، وبصر ابنور الخالق ، وشعوراً بلذة الرضا والاستسلام والتذاذاً بذلة العبودية ، وهياماً بما يتظره في العوالم التي تلي هذا العالم « يهدي الله لنوره من يشاء » واكتسب ثباتاً في قوله وفعله ، ورزاقته في فكره ونظره ، وزايلته تلك الحمى الشيطانية التي كانت تدفعه وراء المطالب الكاذبة ؛ وتستعبده للكمالات الوهمية الكاسدة ؛ وارتفع عنه ذلك الطيش الحيواني ، وانزق الجنوني ، والحرق الشهواني الذي كان يلعب به لعب الطفل بالكرة ، ويستطيره استطرارة الريح للريشة ، فكان من الذين قال خالقهم فيهم « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . الآية » ثم كان من أثر تلك الحالة الكاملة عليه ان انفتح له من قبل عالم الجلال

والجمال نافذة عليّة يصل اليه منها نور يغمر فؤاده ، ويحميه من غاشيات الفتن المادية ، ومفسدات المطالب الجسدية ويحجب عنه أفاعيل الشياطين التي لا تقفأ تنصب الانسان العداوة والجفاء ، وتنصب له اشراك المكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم في حالة نعبطه عليها الاملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحانية العلوية والسفلية . وتخضع له نواميس العوالم المعنوية والمادية مما لها نسبة بحالته البشرية

هذا هو الرجل الذي يعتد بالعالم الروحاني اعتقاداً ذاتياً ، وعمل بمقتضياته عملاً حقيقياً ، ولم يكتف بالثرثرة به لفظياً ، فهو يعيش عبثة مباركة طيبة حاصلاً على سعادته ، وفرحاً بكمال حالته « ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون »

✽ آره في الوجود ✽

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم ينتعش فؤادهم بسبحات نورها سواء كانوا من المنتسبين اليها او من اضدادها بانها تغض من طرف الانسان عن الاحتفال بالعالم القاني وتبسط من حركته عن الرقي في مجال الكمال الصوري الجسداني وهو زعم لا أساس له من الواقع . وما يروى من ذلك عن بمض الانبياء فان صح كان ذلك خاصاً بزمانهم لحكمة يعلمها الله تعالى وهو امر لا يبنى عليه حكم فان تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام عامة وتاريخ امامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على ان اكبر الحوادث الاجتماعية التي بعثت الى الكمالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبواسطتهم . على اني لا اعني بالكمالات الصورية والترقيات المادية تلوين الالوانى وتزويق الالبسة والتفنن في صنوف المآكل والمشارب واقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن في الزينة والخلاعة كل مذهب . كل هذه الافراطات يجدر ان تسمى نفثات شيطانية ونزعات حيوانية لا كمالات انسانية ، وانما اعني بالرقى المادي المتاع بالمزايا العظيمة التي خلقها الله لنا في الطبيعة وصرف القدر الواجب من قوائنا في تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل ، ولا يعمدو على الشرف والعرض ، ولا يصرف الانسان عن الجمال الباقي الى الوهم القاني « قل من حرم

فيها اسرى الاغنياء ، وعبيد الاقوياء ، يستغيثون فلا يغاثون ، ويجأرون فلا يجابون ، ويتعصبون فيهنزمو ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلك الا العمل بمبادئ القوضى : يترصدون لقتل الملوك ، ويعملون على تل العروش ، وينابذون الأديان ، ويهزأون بالمعابد والكهان ، وينتظرون بالآثم الدوائر الجسام ، والخطوب العظام ؛ يشكو عقلاء هذه الامم من سوء الاحوال ، ومن ضياع العواطف الغوال ، ويذكرونهم بواجبات الكمال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يجيب ؟ القوم سكرى ، من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دن الشهوات والفتن ، فلا يفقهون حتى تنزل بهم القوارع تتلوها القوارع ، وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » والا فقد عرضوا أنفسهم لما حاق بالاولين من المكذبين : « فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم »

المعتقد بالوراثة

هو رجل وجد أبويه على ملة من المال فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ولم يعمل فيها فكراً بل قنع من الحياة ونعيم الوجود بما حصله له آباؤه من الرقي المادي فجعل هذا الميراث حظه من الدنيا ورام ان يبق في يديه كما ورثه ثم ينتقل الى أولاده وأحفاده لا ينقص شيئاً فاشبه في ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجتزئ به غير طامع في سواه ولم يدرك ان حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه او انماؤه حالة من الحالتين : اما عقيدة تعرفه انه هو وماله لله ، وان كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله ، فيسمى له اقامة لامر الله . وردعاً عن مناهى الله . فيكون كالمسلمين الاولين حيث انصبت الى خزائنها مالايات الامم بمحض قيامهم بخلافة الله . وأما ان يكون بلا عقيدة فيظن ان المال قوام الحياة ، وقيمة الانسان في الوجود ، ودستور الامم والشعوب ، ومفتاح السعادة والنعيم . . . فيسمى لطلبه بكل الوسائل والحيل كما هو حال اكثر أمم هذا العصر . هذان هما السبيلان لاستغلال المال واستبقائه . كما انهما السبيلان لايجاد كل مدنية واستمرارها . أما الذى هو لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فلا يصلح ان يكون مستقلاً في نفسه لان الارض لاحد رجلين : اما لرجل يعتقد

ان الارض لله فيأخذها صيانة لامانة الله وأداء خلافته وأما هي ارجل يعتقد انها جنته
ومأواه ، وليس له غيرها اله ، يتكالب عليها تكالب الضواري على فرائسها ، ويبدل في
سبيلها كل ما يملك من حول ومن حيلة

أما صاحبنا الذي يعتقد بالوراثه فليس واحداً من هذين الرجلين : انه ليس بمعتقد
لانه غير عامل بعقيدته ولا جاحد لانه مقر بقبح الجحود وبشاعته . فهو وسط بين الاثنين
وليس له الاتحمل أحد النيرين : فأما ان يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيجيبه بحياته .
ويصرفه بحركته ؛ وأما ان يقع تحت ضرس غير المعتقد فيميزقه ثم يزدرده مع ما يزدرد .
نعم العقيدة بالوراثه ما لم يعزها الذوق الذاتي لاتقيد صاحبها في الدنيا شيئاً ولا أندري
ماذا يكون نصيبه في الآخرة . لا تقيده في الدنيا لانه محروم من دافع العقيدة ودافع
الجحود معاً . لان المعتقد له من شعوره بأنه خليفة الله في الارض اكبر باعث على استغلال
الطبيعة واحياء مواتها والذهاب في الابداع فيحيا كل مذهب . وتاريخ آباءنا الاولين اكبر
شاهد ، وغير المعتقد له من يأسه من الآخرة اكبر سائق على التكالب على الدنيا والتتم
فيها بكل الوسائل الممكنة . أما الذي اكتفى من العقيدة بمحض تذكره ان أبويه كانا
مؤمنين . فلا يحس بأثر دافع من ذنبك الدافعين . فلا جرم لا يجد في نفسه لذة العقيدة
ونورها الذي يضيء عليه مسالك الحياة . ولا حى الجحود ويأسه الذي يسوقه لسكل ما
ينعمه في دنياه . وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة الا التمتع المؤقت بميراث آبائه فلا
يلبث ان تفشاه غاشية من صولة الامم الطامحة فتجعله لقمة سائمة وتذهب به الى حيث
ذهب الغافلون من كل الامم .

✽ الفضائل والردائل ✽

قد أكثر الناس في هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين وجلوا بهما في
كل مجال فنشأت بأزائهما شبهة قوية في الدين يكثر تردها على السنة المشككين . فيقولون
مثلاً : « انكم تدعون ان الفضائل قوام الامم وملاك الحياة . وان عدمها نذير التلاشي
ومقدمة الدمار فما بالكم ترون الامم التي ترعمون انهم أحط منكم في الفضائل او انهم

ينظر الى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو الى مقذوفات البلايات هوى بالارائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت الى ما بين يديه وخلفه فيرى صرعى هذا العالم الفاني يستثيرون الذعر من أعماق الصدور ويستجيشون الخوف من الفؤاد الصخر ! ثم يلتفت الى نفسه فيراها فضلاً عما هي عليه من الحال المقيم المقعد ، هداً لقارعة تذهب بانفاسه ، وترجه الى شق من الارض لا يقيم بمده رأساً ، ولا يحير جواباً ، تتسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الامر محيصاً ولا مفراً ، ولا يتصور دونه منجاة ولا مستقراً ، فكيف تكون الظلمة التي تلم بفؤاده والألم الذي يحل بمعناه ، والسكد الذي يستولى على لبه ، والنكد الذي يخيم على كيانه ؟

لا جرم ان كل هذه الأمور المزعجة تدفعه رغم انه لطلب المخلص في العالم المادي وتدفعه في ذلك السبيل دفعا قهريا فيتجه بمجموع قواه الى الماديات لتحسين حياته اتجاها جنونيا ، لا النفاتا كاليا ، فينال منها شأوا لا يستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ذلك لأن الله سبحانه خلق الانسان وقذف به الى الأرض وركب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما فوق ذلك من تسخير القوى الروحانية ايضا او بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو ان طلب الدين وحده ناله وان طلب الدين والدنيا معا حصاها ووجد من قواه ما يساعده على ذلك ، وان لم يرد الا الدنيا وحدها بلغ منه منها فأن منح الله معروضة لكل من طلب كما قال سبحانه : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . »

— أثره في الحياة —

تصنع ساعة من الساعات حال الذي يئس من وجود الآخرة ، وهب انك ممن لا يرى في الوجود الا ما يحسه بمشاعره القاصرة ، وادفع بنفسك في معمران الحياة وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذي يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق وتحيل مضاضة تلك اللحظة التي يخمد فيها الحس والشعور ، وبدس فيها الانسان الى اعماق

القبور ، بعد سكنى القصور ، تاركا مالا جمعه بعد طول التعب . وافلاذ كبد رباهم بالجهد والنصب ، واخوانا شاطرهم الحزن والطرب ، ومعهاد اوطار نال فيها الأرب ... قلنا تصنع ان تكون في هذه الحالة الحرجة ساعة من الساعات ثم انظر ما يلم بفؤادك من الم ووجع ، وما يحيط بمعناك من ظلمة وكرب ، ولكن لا تعجل بالخلاص مما أوقعت نفسك فيه بل انتظر قليلا . وتأمل في ثورة عواطفك تأملا طويلا . تر أن اليأس الذي خيم بفؤادك استحال الى حمى تدفعك لتتلمس عن الآخرة عوضا . وترعجك لترتاد عن الخلود بدلا . وتراك اندفعت اندفاعا قهريا لأن تحصل من لذائذ هذا العالم اقصى ما يصل اليه الأمكان وابعد ما يناله الجهد والعرفان . تراك تستسهل خوض الصعاب والعقاب . وتستهن اقتحام المخاوف والأخطار . جريا وراء المطالب الكبار . والرغائب الجسام . ولسان حالك يقول :
(واذا لم يكن من الموت بد * فمن العجز ان تكون جبانا)

وترى ان هذا اليأس نفسه قد البسك نفس الصفات التي تكسبها العقيدة للمعتقد من حيث الجدل لاستثمار الطبيعة ولكن مع هذا الفارق الجسيم : وهو ان صفات المعتقديكون سائقها اداء واجبات خلافة الله ، وتتميم نظام الوجود في اكمل معناه ، وتجليته في عالم الامكان باجل مجلاه ، والجري وراء الكمال الروحي باستعمال سائر قواه فيما خلقت له ؛ فيكون بذلك ساكن الفؤاد . مطمئن الجاش ، هاديء الضمير ، غير ممسب بحمى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصا من نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجيا من وخزات الشهوات وطغنيات الاهواء ، واما غير المعتقد فيكون مسوقا الى العمل والاقدام باغراض سافلة ، ومحفوزا الى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر الا في اتياء جسده غاية لذاته ، واقصى امنياته ، فيلازمه الشره اينما سار ، وينفصه النهم حيثما دار ، يطلب فلا يهجع ، ويأخذ فلا يشبع ، له في كل نظرة وخزة من شهوة ، وفي كل لحظة طعنة من رغبته ، يريد ان يحصل ما يؤمله ، فان ناله كان نيله سببا لزيادة همه وتفاقم غمه

من هنا ترى انه ليس بعجيب ان ينال غير المعتقدين مدنية زاهرة . وحضارة باهرة ولكن لا تنس ان بواعثها هو ما اصف لك ولذلك لا ترى فيها نصيبا للروح . ولا قسطا لكرائم العواطف . ترى ان الحق فيها مع القوة ، والحكم للسيف والفتوة ؛ الضعفاء

مغمورون في الرذائل قد سبقوكم الى باحات الرفعة والعظمة واخضعوكم لنيرهم ؟ » ليس حل هذه الشبهة بالامر الهين الا اذا اسسنا على قاعدتها الطبيعية . وذلك لا يتأتى الا بما قررناه آنفاً من ان الناس ثلاثة أقسام قسم يعتقد بالعالم الروحاني ، وقسم لا يعتقد به ، وقسم يعتقد بالوراثة فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحليلات الفلسفية ان لكل من المعتقد وغير المعتقد دافعاً يدفعه الى الرقى والتقدم ، وان رقى الاول يشمل الرقى الروحي والجسدى واما الثاني فرقيه محدود في عالم المادة فقط ، وقلنا ان المعتقد بالوراثة لا حظ له من أحد هذين الدافعين ، وانه لا يليق الا أن يكون تبعاً لاحد هذين الصنفين . والآآن نقول ان ذلك الدافع القاهر الذى يدفع المعتقد للتقدم للأمام هو (طلب الكمال) بمعناه الحقيقى . هذا الدافع هو مبدأه الذى يسير على مقتضاه ، ويجعله دستوراً في كل امر من امور دنياه . واما غير المعتقد الذى يرى نفسه مدفوعاً لتكميل بدنه واشباع حواسه فمبدأه (تنازع الحياة) لانه لا يرى سعادته الا في نيل أقصى ما يستطيعه من المال والجاه فتراه ينازع الناس فيهما منازعة اليأس المستميت بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ودافع تنازع الحياة دافعان عظيمان للحياة ، ودستوران كبيران للبقاء فهما من هذه الجهة فضيلتان طبيعيتان ، ولكنهما لعالمين مختلفين . اما فضيلة طلب الكمال فهي فضيلة العالم الانساني لانها تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره كما أريناك ذلك في الفصول السابقة ، واما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة العالم الحيواني بأسره لانهم عائشون بهذا الدستور وهي بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ولا يصح ان نعتبر عنها برذيلة الا باضاقتها للنوع الانساني لانها لا تليق به ولا تؤديه الى غايته التي خلق لاجلها . ومن هنا ترى ان للأمم الخيار في القيام على أحد هذين الدستورين لانها تحيا بكل منهما حياة طبيعية ولكن مع هذا الفارق الجسيم وهو ان الامة التي يكون مبدأها (طلب الكمال) تنال كمال الروح وكمال الجسد معاً كما حصل لا تباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . واما الامة التي يكون مبدأها تنازع الحياة فلا تنال الا كمال الجسد وحده كما قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »

❦ بيان لطبيعة هذين المبدئين ❦

مبدأ (طلب الكمال) الذى هو دستور المؤمن مرتكز مباشرة على الاعتقاد بأن الانسان جسد وروح ، وان روحه هذه هبطت اليه من عالم التقديس والجمال لتبتلى في الدنيا الى حين ، ولتتم بهذا التدلى ابداعا قدره الخالق لا يعلم سره الا هو ، وانها بعد اداء وظيفتها في العالم تعرج الى عالمها على جناح جهادها الحيوى الى حظائر النور الاقدس في عالم فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هناك الى ارواح عالية سبقتها بالكمال والايمان فتبقى معها بقاء أبدياً سر مدياً في نعيم مقيم ، وراحة لا يشوبها ألم . ولا يخفى على الناظر ان هذا ارتقاء في الشعور ارتفع به الانسان عن عالم الحيوان الذي لاحظ له من الوجود الا التكالب على اشباع كرشه وايفاء حاجة حواسه .

اما مبدأ الذى لا يعتقد بعالم الروح فهو (تنازع الحياة) لاطلب الكمال . وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الانسان لم يخرج عن كونه ارقى الحيوانات ولا فرق بينه وبينها في شىء على الاطلاق الا في كونه ارقى منها عقلاً واوسع ادراكاً واقدر على استثمار الطبيعة بما وهب من الآلات الجسمانية ؛ وانه ليس له من الحياة الا ما قدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة ، ثم اذا مات تحللت عناصره في الارض وذهب كل عنصر الى ما يشبهه من عناصرها ، وفي عقله وادراكه وذهب الى هوة العدم كما تذهب الدجاجة والهرة سواء بسواء ؛ وان الانسان لا مناص له من أن يكون مع معاشريه في حرب مستمرة ينازعهم الحياة وينازعونه اياها والغلبة في هذه الحرب تابعة للقوة المضلية والفكرية ، فمن كان أقوى يداً وعقلاً كان احق بثمرة الحياة دون غيره أما الضعيف في الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المعيشة الا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعد ذلك ان سئم الحياة وارسل نفسه الى عالم العدم . أما الصفات المحمودة والخصال الشريفة فليست مطلوبة الا لما تجر اليه من المنافع المادية والادبية في دائرة هذه الحياة وحدها .

اصحاب هذا المبدأ لا يوجبون البشاشة مثلاً لكونها خلة من خلال الكمال التي يشاكل بها الانسان سكان عالم التقديس وتهيئه لجوارهم متى فارقت روحه الجسد ، ولكنهم يوجبونها

استجلاً بالرضي المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدراراً للربح منهم ومزاحمة لمن يؤدي مثل وظائفهم .

وبناء على هذا فالفضائل والذائل لدى اصحاب هذا المبدأ دائرة حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيواني تقوم عليه طوا ئفه برمتها . ولها العذر في ذلك فانها محدودة القوي والمواهب محصورة العقول والممكات ، لا تشـعر بغير ماتحس به ولا تخيل صربي وراء ماتنظره . اما الانسان الذي لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهي تصوره عند غاية ، فاشد ما يظلم به نفسه ان يحشرها الى أدنى من عالمها . ويسلبها اشرف خصائصها .

هذا المبدأ الحيواني أى مبدأ (تنازع البقاء) يصلح لاقامة امر الطوائف الانسانية ، بل وييقنها للرقى والفلاح في السعادة الجسدية ، لانه لم يخرج عن كونه مبدأ طبيعياً تقوم به أشخاص لا يحصى لهم عدد من الكائنات الحيوانية ؛ ولكن فيه غبن فاحش على الانسان ، لانه بقيامه على هذا المبدأ لا يحصل الا الحياة الدنيا ثم لا يزال الهـم والكدر طرفة عين ، ولا يدعه الكمد والوحشة يطمئن الى شيء ، وكثرة المتحجرين في الامم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس على ما نقول .

اما مبدأ (طلب الكمال) فهو المبدأ الكامل الذى يليق بالانسان ويجدر به لانه يكسبه الحياتين معاً كسباً طبيعياً لان الكمال في ذاته الغاية القصوى التى ينتهي اليها كل شيء ويخضع لها كل شيء . فما من شيء الا وله كمال خاص خلق مسوقاً اليه فأما ان يحصله فيعيش على اكل صفة من وجود الخصاص ، واما ان تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط في كيانه حتي يلفظه الوجود الى تيهور العدم . ولما كان الانسان اكمل الكائنات وجب ان يكون كماله اكمل الكمالات ؛ فلا جرم انه متى تكمل امتلك سر نواميس الكائنات التى في عالمه فتخضع له خضوعاً اضطرارياً ، فتأتيه الدنيا بخدافيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بين يديه ، الم تر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نهض هو واصحابه يؤدون واجب الطاعة لله في طلب الكمال خضع لهم كل شيء وخافهم كل شيء ، وانحدرت اليهم سائر خيرات الارض انحداراً لم يره مثله في تاريخ الفاتحين . فانظر كيف انهم قاموا لمحض طلب الآخرة . فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والا عجب من ذلك انها هربت اليهم من اولئك الشعوب

الذين كانوا يعبدونها ويسجدون لها ، ولا يعرفون لهم كلاً سواها ، ورضيت ان تكون الخادمة الخاضعة لأولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ، ولا يحفلون بالنظر اليها في حسناتها وبهائها .

اما تلك الامم التي تجمل مبادئها في الحياة كمبادئ الحيوانات العجاء فلا يكون لها حظ الا في الحياة الدنيا ولا تكاد تنالها الا باتخاذها الهاً من دون الله ، وصنما لا ترى لها ملجأ سواه ، وناهيك بما في هذا من الاذلال لتلك الجبهة الانسانية الشماء التي لم تخلق الا لتعاضد السماء . .

اما لو علم الناس ان مفتاح السعادة الحقة هو طلب الكمال وان سبيله سبيل الله لما اذلوا انفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم اقتداتهم فقالوا سعادتي الحياتين معاً . والى هذا السر العمراني الكبير يشير الله تعالى بقوله . « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . »

﴿ المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة ﴾

الاسلام دين الله وهو الحقيقة المطلقة التي استودعها من عهد نشأة الانسان قلوب سائر الانبياء والرسل الكرام « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الخ الآية » ولكن كانت ايدي تلك الامم الجائرة تمتد الى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء ان يطبقوها على ما يناسب مقتضيات النقص الذي هم فيه ، ودام هذا الخلل آمداً حتي اقتضت الحكمة الالهية ايداع هذا السر الاقدس لخاتم انبيائه ونجبة اصفياه محمد صلى الله عليه وسلم في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد حماه الله من امتداد الايدي المحرفة اليه ، وصانه من عدوان العادين عليه ، وهو الى اليوم كما انزل يقيم الحججة على الغالي والمقصر ، ويشير المعتدل وينذر المنعذر ، ويشير الى الطريق الذي لا يضل سالكه ولا يخاف طارقه ، وهو طريق العدل المستقيم « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

الغرض الاصلي من الاسلام تخليص الانسان من قدر التربية الفاسدة ، واثار الوسط

الردىء ، ووضر الوراثة الساقطة التي تلم بمجموعها بفؤاد الانسان فتحرمه من سبجات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذي دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذي يقول عنه عز وجل : « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا . » هذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال ، هو سبيل الرحمة ، هو سبيل الهدى ، وان شئت التعبير باللمجة الجديدة فقل هو سبيل التقدم ، هو سبيل التمدن . وهو السبيل الذي ساره خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم بوحى من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وساره أصحابه من بعده فاصبحوا ملوك الارض وملوك السماء .

انا لا أريد بالمدينة الاسلامية والمدينة الحديثة مبلغ الرقى الصناعي في كليهما ، لا ولكنى اريد الروح التي ساقط اليهما واقامتهما على قطبيهما . والسبب الذى يجعلنى أفضل روح الاولى على روح الثانية ، هو لكون تلك مبدأها طلب الكمال باخص معانيه وهو المبدأ الجدير بالانسان . المناسب لما وهب من المنح الجسام ، لدفعه الانسان الى طريق الحق والعدل واكسابه حظ الحياتين معاً ، اما هذه (أي المدينة الحديثة) فمبدأها تنازع الحياة وهو المبدأ الذى بسطنا اثره فى الفصول المتقدمة وقلنا انه لا يناسب الكمال الفطري للانسان ، وان فيه غبناً عليه لعدم صلاحيته الا لنيل الحياة الفانية دون الباقية . على اننا لسنا اول الناعين على هذه المدينة نقص مبدئها فان عقلاءها انفسهم يشاركوننا فى هذا النظر وقد ثقلنا كثيراً من اقوالهم فى ذلك فى الصحف السابقة .

وربما يقول قائل : « ان كنت تنقم على من يدعون الى الاخذ باسباب المدينة الجديدة والسير على قوانينها فهل انت ممن يسهل عليه ان يبق كما نحن تتناولنا الحوادث وتتقاذفنا المثلث ، ونحن بين ذلك فى حال لا يرضى به من له مسكة من شعور ؟ الا ترضخ لقول القائل من اننا فى عصر لا مناص لنا فيه من تقليد المتمدنين فى جميع شؤونهم بدون شرط لنستطيع مجاراتهم فى الحياة وحفظ شخصيتنا بازاءهم ؟ » نقول اننا من يرى ان دون التمسك باصول المدينة الحديثة على علاقتها وبمحض الدعوة الاجالية اليها عقبات اجتماعية وحوائل ادبية ومادية شديدة المراس ، بحيث اننا لو اضعنا وقتنا فى محاولتها ومعالجتها لذهب تعبنا ادراج الرياح ولم نجن من وراء ذلك الا تجريء اصحاب الاهواء الى الجري وراء

شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديد وحجاب الاخذ بأسباب الحضارة . ألم تر انه من يوم ظهور الدعوة فينا الى لزوم التمسك بأداب المدنية الجديدة لم نحصل من ورائها غير الخسران والبوار ولم تفعل فينا الا تشجيع الشبان والكحول على الانطلاق في ميدان الاباحية والحرية البهيمية ، بحجة انهم طليعة النشأة الشرقية ، والسابتون الفيورون في طريق المدنية . وماذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعهم البقية الباقية :

اذا تقرر هذا فعندي ان تداعينا الى الرجوع الى مبادئنا الاصلية القويمة أضمن لحياتنا وأقرب لاصلاح أحوالنا من تلك الثروة باسم المدنية الحديثة التي رأيت من أثرها مارأيت . فان قيل : « هب انك غير واهم في قضيتك من امكان الرجوع الى الفضائل الاسلامية الطاهرة ، وهب اننا أصبحنا كلنا فضلاء اتقياء ، فماذا يفيدنا ذلك امام قوة هذه المدنية الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستعمار . »

نقول اما كوننا غير واهمين في ان الدعوة الى الفضائل الاسلامية تقيد فائدة عظمية في الرجوع اليها مهما قاومتها الاحوال السافلة التي وقعنا فيها ، فذلك امر ليس بعجيب ولا هو بدع في تاريخ الطوائف الانسانية . فاننا من المضانك الاجتماعية والارتباكات المادية والادبية في الحال التي تصلح لتدفعنا رغماً عنا الى طلب المخلص وارتداد الملجأ بكل الوسائل ولو درس الناس سر التفاف الشعوب بمخاديرها حول المصلحين لرأوا ان من اكبر أسبابها ما هم فيه من الاخطار التي تهددهم بالزوال والتلاشي ، فان الطبيعة الانسانية مجبولة على عدم الاتساع للفناء الا بعد نضوب مادة ما أودع فيها من المقاواة والمقاومة . ونحن بما نرانا فيه اليوم من الشعور بلزوم المخلص ، لا نظن ان بيننا وبين الاخذ بالفضائل الحقبة الا دعوة داع متعظ ، وارشاد هاد مهتد . وليس بعزيز على ان يتلافانا الله بنبوغ ارواح كبيرة تنشر الحياة حولها وتكشف عن الاعين والعقول تلك النعم التي انسدت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . اما الشك في أثر الفضائل امام قوة هذه المدنية فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لا أثرها على نفوس الآخذين بها . انا لا أعني بالفضيلة تلك الظواهر التي تبدو على بعض ضعفاء النفوس كاللين والبشاشة والانعطاف والخن الخ من الاخلاق التي يظنها الناس فضائل وقيسون الفضلاء على اصحابها فيشكون في آثارهم في بناء صروح مجد

الامة واعادة شرفها . وان لهم العذر في هذا الشك ما داموا لا يميزون بين الضعف الذي يؤدى للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسماحة وبين الفضيلة التي لاحد لسلطانها على النفوس .

انا ان قلت فضيلة فانما اعنى بها تلك الروح السامية التي تهبط على النفوس فتزعج اصحابها عن الوقوف في قدر النقص ، والخوض في حمأة الدنيا ، وتهيب بهم الى مسابقة الامم في مزايا الحياة ، ونعمة البقاء ، وليس بمعظم على امة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى في السنة الواحدة ما لا يرقاه غيرها في قرن من الزمان

ليس ما اقول به بالشعر ولا بالخيال فقد هبطت هذه الروح العالية على أصحاب المصلح الاعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الأعداء الألداء والصناديد الاقوياء والاضداد العتاة ما كان يكفي أن يزرع اليأس في قلوب أضعاف أضعافهم ممن ليسوا على منهاجهم فلا يعودون يذكررون النهوض ولا تمنيا ، ولكن روح الفضيلة قوة الهية لا يعرفها الا الفضلاء ، فلم تزل تفعل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرمة القليلة جذبت اليها العواطف والقلوب وانضمت الى امثالها بسرعة مذهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الاقوى على اكثر المعمور .

ان تعجب من هذا فاعجب منه رجل يرى هذا الأثر المدهش وينكر معه اثر الفضيلة او يشك في انها قوة لا تقف امامها القوى ولا تمنع انتشارها الحوائل « اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم الغالبون »

﴿ رجوع للمقصد الاصلى ﴾

يقول قائل لقد طفت بنا من شعب المباحث في مناح شتى وهطارح بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت في دائرة محدودة يحيط بها البصر من اول نظرة ويستطيع قارئك ان يشطح معك الى حيث اردت ثم يعود الى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، الا انك قسمت الناس الى ثلاثة رجال وقلت ان احدهم رجل يعتقد بوجود العالم الروحاني وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثاني جاحد به ، والثالث يعتقد ورائة عن آباءه وقومه فهو لا الى هؤلاء

ولا الي هؤلاء ثم فصلت المبادي الحيوية التي تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة فقلت : ان مبدء الاول (طلب السكمال) ومبدء الثاني (تنازع البقاء) والثالث لا مبدء له بالسكلية ، ثم سرت في تفصيل هذه التقسيمات ما شاء الله ان تسير ولكن بقي عليك امر اعظم خطراً واشد مراساً من كل ما سبق وهو اقامة الحجة اليينة على وجود ذلك العالم الروحاني ونصب الدليل الواضح المحسوس علم ان الذي يعتقد به ليس يضرب في يدها الخيال ولا يسبح في آل الوهم خلافاً لما يزعم اعداء المقائد ، وسباسة الاحساد ، نقول نعم بقي علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد لمغالق كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكنا ذلك السبيل يستدعى توجيه نظر قارئنا الي حقيقة رئيسية وهي ان نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم ، او زبدة فلسفة من الفلسفات نشأت في قرن من القرون ووقفت حيث هي بحيث ان من قرأ ذلك العلم او شارف تلك الفلسفة انكر الروح والخلود . كلا وانما ذلك الانكار حال يمتري النفوس المستعدة له فيسلب عنها اجمل صفاتها وهي الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحة لشياطين الشكوك والريب حتى ان الواحد من المصايين بهذا المرض ليشك في وجود ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان وقد حكي الله لنا الوصف المميز لهذا المرض فقال تعالى « ولو انا فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون »

ذلك الحال الذي يحل بالنفوس وينشب فيها ، فيلفتها عن ذاتها ، ويطوح بها في متاهات الشك ، ومحارات الشبه ، ويحول بينها وبين انوار الحق الواضحة ، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا وانما يحصل كما تحصل كل حال من الاحوال الانسانية بواسطة اسباب كثيرة منشأها التربية والمعاشر وروح المدنية التي فيها الامة ، ومقام دينها السابق من الضغط على العقول والافكار . او من الحرية والاطلاق الخ الح من الاسباب التي تشكل الطباع والاميال ، وتصيب الرجال في قوالب لا يقدر على بعضها اى علم من العلوم ومن ينتقد حال الأروبيين في القرن الماضي والقرن الحالي كان ولم يزل يرى ان الاحاد في بعض طبقات العامة اكثر منه لدى العلماء انفسهم مما يدل تمام الدلالة على ان الانكار لا يأتي من صفة العلوم وحدها بل من الاسباب الاجتماعية والادبية التي تعيش

الامة في وسطها ايضا .

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل ان تلك الاسباب الاجتماعية والادبية اشد
فعلا في احداث تلك الحال الاحادية من العلوم التي يقصد بها بث الاحاد والجمود

— كيف كان العالم —

(قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم)

نحن لانستطيع ان نخلى مقدمة هذا التفسير من الالمام بطرف من ذلك الحادث
الوجودى الجلل وهو بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم الى الامم كافة : لإنسها وجنها ،
ايضها واسودها ، وتقدم لذلك هذه المقدمة عن لسان اجنبي عنا
كتب المسيو (جول لا بوم) في مقدمة فهرسته الذى جمع فيه الايات القرآنية الشريفة
المتائلة تحت عنوان محمد ما ياتى :

« لاجل ان يفهم الانسان تمام الفهم اى دعوة من الدعوات يلزمه أولا الالمام بحال
الداعي في ذاته . ولاجل ان يقدر قدر دعوته يجب عليه ان يدرس الجهة البشرية التى وجه
همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصناها للمشرع العربى
مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

« حوالى ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم
متلبدا بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الوزيرغو) الآريين فى اسبانيا وفرنسا
الجنوية يصاولون الملك (كلوفيس) واولاده الكاثوليكين فكانوا من اجل ذلك يطلبون
مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان) ثم جبروا الى الدخول معه فى
حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون ان لهم
حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين

« اما فى فرنسا نفسها فكان اولاد (كلوفيس) هذا متفادين متسافكين وكانت الحروب
التى شبت نيرانها بين الملكة الوزيرغوتية (برونهو) والملكة الفرنكية (فيريديجوند) تهى
للتاريخ اشد الصحائف اثارا لاسى والكمند .

« اما فى انجلترا فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الارض التى احتلوها واستعبدوا

فيها ذرية (كيمريس) وهم اقدم المغير بن على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الامم علما وصناعة وقوة ، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكة .

« اما في ايطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد اهميته القديمة وكانت رومة وهي الشظية الاخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المنهشم (يعني مملكة الرومان) في حالة تمللها من استحالة امرها الى مركز ديني بسيط ، ترج وتضطرب كلما لم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة ايام كانت مركزا دينيا أصليا ، فكانت تهى نفسها لان تكون مركز البابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شارلمان) ان يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان ؛ ولكنها مع ذلك لم يسعها حمل نير (الهيرولين) و (الاستروغوتين) وامبراطرة المملكة الرومانية (واللومباردين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولا .

« اما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق اوروبا مقلقا جنوبها من اول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق . فكان (الاسكندينافيون) و (النورفيجيون) و (الدانياركيون) يتزاحون في الطريق الذى سلكه (الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا (تارس) و (مقدونيا) و (لومبارديا) و (ايطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة .

« في ذلك الوقت بدأ ظهور الاثراك من أعماق آسيا الصغرى وهي تلك الامة التي قصرت فيما بعد ممسكة اليونان على أسوار القسطنطينية .

« التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية في القرن الاول من التاريخ المسيحي لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال اوروبا في القرن السادس : تلك كانت مفاسد قيصرية مخنمرة ، اما هذه فوحشية حربية تلعب بالارواح وتتمرغ في الاوحال (١)

« اما آسيا فلم تكن أهذا بالاً من اوروبا في شيء : فمملكة (تيبث) و (الهند) التي

اقتبست منها الامم السائدة في اوربا الآن قرائحها وافكارها العامة ولغاتها ، والصين التي تعد مسائلها اغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار اغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

«اما السفح الشمالى من الهضبة الاسيوية العالية التي هي في حوزة الروسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الاطلاق . اما مملكة الفرس التي كانت احوالها مرتبطة باحوال الغرب خصوصا من لدن تجريدة الاسكندر المقدوني فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا اصحاب السلطة على آسيا الغربية .

«أما في افريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون انفسهم وهم اخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دائبين على امتصاص دم القطر المصرى وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجنة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم ايضا في الاقاليم الخصبية وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من افريقيا التي انتزعوها من أيدي (الفندين)

«والخلاصة كان جو العالم الارضي متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في اصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً وان كان وقتياً الا شئ واحد وهو الغنime وسلب الامم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع السكينة وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح الى روح أخرى بواسطة بعض اصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بنظرسة زعماء الهيمنة واستحالت الى وحشية محضة

«مع هذا كله كان هنالك ركن من اركان الارض لم يصبه لفة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة اهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن

مضطرب الامم التي كان يقال انها تمتدنة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في اوربا الا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللفظ الا في غاية الضعف والضؤولة . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة اخبار الانتصارات او الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، او رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها ، على ان ذلك الوادي الاخير كان يهم بلاد العرب جداً لان ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه ابناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين . ومما يشبه المسائير الدينية انها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماماً الا بعد ان انجلي عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم

« اما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة . اما الجهة الشمالية من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحملون بوجودها

ثم قال : قال المسيو (كوسان دوپر سوفال) في كتابه تاريخ العرب : « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين اما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم . وكان عرب سوريا دائنون للرومان . اما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه »

ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب احسن استعداداً من غيرهم لقبول اي دين من الاديان قال المسيو « دوزي » في كتابه « تاريخ عرب اسبانيا » : كان يوجد على عهد محمد « صلى الله عليه وسلم » في بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين اتباع هذه ادلايان أشد الناس تمسكاً بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفين ملتهم . نعم يندر ان تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الاقدمين ولكن ما وجد

فمنسوب الى اليهود وحدهم . اما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون ، وكان المتذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز ان تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء . اما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الاعظم من الامة الذين كان لكل قبيلة بل اسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء لهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق اخبارهم بالمغيبات اولوعولوا على فضحهم عند الاصنام ان قربوا لها ظلية بمدان نذروا لها نعمة . وكانوا يسبون أصنامهم اذا لم تنلهم . مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم . قال المسيو (كوسان دوبرسوفال : « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً الشمس ، فكانعان كانت تدين للقمر وللدبران ، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري ، وكان الاطفال من بني عقيد ينون لعطارد ، بنو طى يدعون سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية » . وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة افكارهم الدينية : قال (كوسان دوبرسوفال) في كتابه تاريخ العرب : « كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان اذا خلعت المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الاخيريون اذا مات أحد أقربائهم يذبجون على قبره ناقة او يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين ان الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهي نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائمة ساجدة تأتيه باخبار اولاده فاذا كان الفقيد قتيلا تصيح صدهاء قاتلة « اسقوني » ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له اهله من قاتلة بسفك دمه . »

قال المسيو لابوم بعد ايراده هاتين الجملتين من الاستاذين السابقين : « وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر اليها الا على انهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الاولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الاسرة عندهم بل القبيلة أيضاً . . . وهي نقطة تستلفت النظر — تهتم اهتماما عظيما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن — وهو امر اغرب من سابقه — ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا الى الالتفات بنوع اخص » : ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب

مغرمين بشرب الزاح

ريوجد من الشعر مايدل على انهم كانوا يفرحون ويمجبون به وبلعب الميسر . وكان من عوائدهم ان الرجل له ان يتزوج من النساء بقدر ماتسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له ان يطلقهن متى شاء هو ، وكانت الارملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الاب وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا وكان هنالك عادة افطع من كل مامر وأشدمعارضة للطبيعة وهي وأد الاهل لبناتهم . (أى دفنهن أحياء)

« هذا كله لايشير الى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية مسالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حبا جما ويمارسون فعاثل الكرم وبذل القرى . »
« الافراد الذين كانوا تابعين لامم ارقى من الامة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جداً ولا يظهر أنهم كفوا انفسهم بوظيفة الدعوة الى مللهم . فاليهود الذين كانوا متشبعين بالاثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الامة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالامور المالىة . ولئن شوهدهم انهم ادخلوا الى ملتهم بعض العرب ، فلم يكن ذلك الا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الاساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين ؛ تلك القرابة يستدل عليها ايضا بتساويهم فى حب الكسب ، وتأزيمهم فى الاستعداد لعدم الانفة من سلوك اي طريق من الحيل والمكر لنيل كسب او حطام . ولا ينتظر ان يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات ادنى ترق ادبى . اما المسيحيون فكانوا يفتدون شيئاً فشيئاً الى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرومانيين ولكن لم يكن فى حالهم نور يستلفت البصر تألقه ، وفى حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن ان يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد

« فى عهد هذه الاحوال الخالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد ابن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » انتهى

هذه هي الروح العمومية التي ارسل المصلح الاعظم محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم
لملاشاتها وتخليص العالم من غوائلها ، وقد رأيت باسان الاجنبي عن الاسلام انها كانت محتاطة
بالامم الداخلة في نطاق المواصلات العامة احاطة السوار بالمعصم ، وفاعلة فيهم الافاعيل
الحزنة بحيث تدل الرائي لأول وهلة ان بقاء الانسانية علي تلك الحالة يؤدي بها الى التلاشي
العاجل ، ويريه بطريقة جليلة انه كان لابد من صاخة كبرى تنزل على تلك الادمغة الجامدة ،
والقلوب الصلدة فتردها عن غيها ، وتكبحها عن جماحها ، وهذا ما حصل على يد رسول الله
صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وانام المصلحين

في اَبان استحكام هذه المضانك والثام حلقات هذه النوازل اشرفت سماء الرحمت
الالهية بسبحات الديانة الاسلامية وعهد الله الى الامة العربية في قلة عددها تأديب الطاغين
وارجاع الامن والطمأنينة الى العالمين وحفظ ما كاد يتلاشى من نتائج المعقولات السامية
والمعارف العالية فقامت بهمة قد استمدتها من روح الرحمة العليا وادت ما رسم اليها
فقسمت تلك الظلمات البهيمية وأرجعت لهذا النوع بهجة الحياة المدنية التي ذهبت بها من عجات
الفتن ومرهقات النوازل والحن . فهي اذاً مخلص العالم من أنياب تلك الداهية الدهماء .
والطامة الصماء وهذا أمر لا ينكره علينا من عنده مسكة من المعرفة بالاحوال الاجتماعية
وان كان لابد من الاستشهاد باقوال فلاسفة التاريخ ممن لا يهتمون بالحباة للاسلام فاليكم :
قال العلامة (دروي) أحد وزراء معارف فرنسا السابقين في كلامه على الامة العربية :
« وبعد ظهور (النبي صلى الله عليه وسلم) الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصداً
واحداً ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر تاج في اسبانيا الى نهر الجانج في
الهند ورفعت على منار الاشادة اعلام التمدن في اقطار الارض أيام كانت أوروبا مظلمة
بجهالات اهلها في القرون المتوسطة » ثم قال « انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم
من بين سائر الامم واتشعنت بسببهم (تأمل) سحائب البربرية التي امتدت على أوروبا حين
اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم
الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها بل اجتهدوا في توسيع دوائرها وفتحوا طرقاً جديدة
لتأمل العقول في عجائبها »

هذه هي الوظيفة التي اداها سيد الوجود صلى الله عليه وسلم للعالم بشهادة الناس اجمع
فقل لي يا بانيك بماذا تصف تلك الروح الطاهرة وبأي نعمت تعرف ذلك القواد العظيم ؟ اذا
كانت الآثار تدل دائماً وبغاية الامانة على مكانة المؤثر ومركزه في الوجود وكانت النتائج
تشير بالضبط الى قيمة المقدمات ففي أي زمرة تحشر تلك الروح المحمدية الطاهرة التي
منها انبعث ذلك النور الاعظم وبها وحدها حدث ذلك الحادث الجلل ؟ هل هي روح خطيب
مصقع ... ؟ كم ظهر في الوجود من يبلغ اذا قال خلب الالباب واذا خطب أسر الاسماع
مثل « سيسرون » في الرومان و « ديموستين » في اليونان وسحبان وائل وقس بن ساعدة
في العرب وغيرهم وغيرهم . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم ؟

هل هي روح شاعر ... ؟ كم اعتلا هامة هذا الكوكب من شاعر مطبوع اذا شعر
جسم الخيال وجسد خطرات الوجدان ونال سرائر النفوس مثل « هوميرو » في اليونان
« وفيرجيل » في الرومان وامرء القيس وزهير في العرب وكلهم كان له شعر أعذب من
السلسيل وافعل في العقول من الرحيق . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم ؟
هل هي روح فيلسوف ... ؟ كم نشأ في العالم من فيلسوف فتق بفكره غلف المساتير
وسبر بعقله اغوار القلوب مثل سقراط وأبيقور وزينون وغيرهم وغيرهم فما هي آثارهم وما
هي نتائج أعمالهم ؟

هل هي روح شجاع ... ؟ كم عاش في الارض من اقبال اذا اعتلوا صهوات الجياد
الصفافات ارعدوا فرائص الكتائب وأوقعوا الرعب في سكان المدائن . فما هي آثارهم وما
هي نتائج أعمالهم ؟

هل هي روح قائد محنك ... ؟ كم نبغ في الامم من قواد وكم أنجبت الشعوب من
انجاد قادوا الرعال والمقانب وقطعوا الصحاري والسباسب وأتوا من الجبل الحربية بما تعجز
عنه المدارك الهبرزية . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم ؟

هل هي روح عابد ناسك ... ؟ كم نجم في الامم من زهاد وكزوا عروش الملك
بأرجلهم وقنعوا من العيش بكلاً الارض وقطرات السحاب وكم ظهر فيها من عباد نصبوا
انفسهم ليلاً ونهاراً لترتيل الدعوات واستنزال العبرات . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم ؟

تتجسّد أعمال النبي صلى الله عليه وسلم في أربع حوادث مهمة لم تتم في الأمم كل واحدة منها إلا في قرون وهي (١) إبداله الوثنية بالتوحيد في أمة العرب بأسرها (٢) وتهذيبه لأخلاقهم (٣) وربط قبائلهم برباط الأخاء وجمعهم أمة وثيقة العرى (٤) وتكوينه لقانون كامل أدام للمدينة الفاضلة

هذه حوادث اجتماعية تحتاج إلى تدليل مقبول تطمئن إليه النفس وليس أمانا لأحد فرضين وهما إما التسليم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله حقيقة أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقد أنجز وعده ونصر عبده وأعز جنده . وإما فرض أنه ليس برسول وأنه وصل إلى ما وصل إليه بالتدبير وحسن السياسة .

إن مال مائل إلى الفرض الثاني ناقشناه المسألة وقلنا : ينبغي على أنه ليس برسول جملة أمور (أولاً) أنه مدعي النبوة كذبا (ثانياً) أنه تظاهر بما كان متصفاً به من الأخلاق والعبادة رياء وأنه استطاع أن يثبت على هذا الرياء طول حياته (ثالثاً) أنه استطاع أن يخفي حاله ذلك على كل أحد حتى أخص أصحابه وأخص نسائه (رابعاً) أن الله أيده ونصره وجعل كلمته العليا مع اتصافه بهذا الحال (خامساً) أنه مع اتصافه بهذا الحال أتى بعمل فاق به كل المرسلين فإنه ليس في تاريخ الانبياء انقلاب نشأ من بعثة رسول كالانقلاب الذي أحدثته البعثة المحمدية (سادساً) أن الأمة العربية من الغباوة بالمكان الأسفل (سابعاً) أنه مدع ولكنه أتى بما أتى به المرسلون من الكمالات

لنحص هذه الوجوه السبعة وجهاً وجهاً فنقول :

أما فرض ادعائه النبوة كذبا فلا يثبت أمام النقد . لأن النبوة أمر خطير وشأن جليل لا يقدم على ادعائه زورا وبهتانا إلا رجل مطبوع القلب فاسد الفطرة سيء النية جرى على الله . ومن كان كذلك كانت حياته كلها سلسلة جرائم وشبكة مآثم ، بعيدة عن الخير في كافة وجوهها مصروفة عن الفضيلة بسائر ضروبها فهل كان محمد صلى الله عليه وسلم في باكورة حياته من هذا الصنف من الناس ؟ أما شهد تاريخه بأنه كان من مكارم الأخلاق وطهارة الخلال قبل النبوة بحيث سماه ماصروه بالأمين لم تحفظ عليه جريمة ولم تعرف عنه خصلة ذميمة ؟ ومن كانت حياته الأولى كلها طهرا وصفاته غرا فكيف ينقلب بعد الأربعين إلى

ضدها أو ترتكس طبيعته الى نقيضها؟ هل تبدت سنة الخليفة؟ هل تحولت نوااميس الطبيعة؟
 اما فرض انه كان متظاهرا بتلك الخلال الكريمة والصفات القويمة رياء فاوهى امام
 الانتحان من الفرض الاول . لان الرياء صفة النفوس المنحطة وديدن اصحاب القلوب
 الخوارة وهى خصلة عارية وصبغة ظاهرية ان استترت حيناً تكشفته بعمده لا محالة
 بطبيعتها لان الرياء لما كان حباله لصيد او وسيلة لكيد فهو ثوب مستعار تفعل له النفس
 انفعالا مادام فيها امل للوصول اليه ويكون شأنه كشان سائر الصفات العارية من الثلاثى
 امام العوارض الفجائية والزوال امام المخاوف الطارئة . فصاحب هذا الحال يكون دائما
 مضطربا مذبذبا يكاد يظن ان نفسه تم عليه . ثم ان حوادث الحياة وطوارق الحدثنان
 وما جريات الاحوال كاشفات للغش فاضحات للتدليس فلا تجرد مرآيا بالزهد او بالشجاعة
 او بالكرم الا وقد فضح اشنع فضيحة امام الناس لا سيما ان كان متعرضا للحوادث يعالجها
 أو متصديا للخلائق يكافها . ومن ابعد الفروض عن العقل ان يدعي مدع امكان الثبات
 على مثل هذا الرياء حياة بأكملها لان المراءة لا تكون الا لنيل غرض فان حصل ذلك
 الفرض عاجلا أو آجلا ضعفت المراءة وشفث عما وراءها من التزوير لان نفس المرائي
 لا تكون عادة الا نفسا منحطة سافلة يستطيرها بارق الأمل ويزدهيها ظاهر النجاح فتفتضح
 سنة الله في خلقه ليطمئز الحق من الباطل

اما الفرض الثالث وهو انه استطاع ان يكتم رياءه على أخص أصحابه ونسائه فهذا
 الفرض اضعف امام التمهيص من سابقه لأن التاريخ دلنا أن كل صاحب مبدأ له أصحاب
 مثله فمن كانوا من اصحاب التدليس يكون لهم اخصاء على شاكلتهم يماونونهم على نيل بغيهم
 ويشاطرونهم المنعم من فضلاتهم . وقد دل تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان اخص
 أصحابه أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً كانوا على شاكلته من الزهد فى الدنيا والبعد عن زخارفها
 وقد تولوا الخلافة بعده بانتخاب الامة لهم فلم تقتنهم السلطة ولم تستخفهم ابهة الملك وما
 كانوا الا خدما لمن تولوا شأنهم يلبسون أقل مما يلبسون وياكلون أدنى مما يأكلون، يبيتون
 ركعا سجدا يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وهان ازواجه صلى الله عليه وسلم أمهات
 المؤمنين كن امثلة كمال وفضيلة وعلى غاية من الزهد والصلاح حتى لحقن به طاهرات ثقيات

فما هذا الرب الذي يبلغ هذا المبلغ وما هي اذن الفضيلة بعد ذلك ؟

اما فرض ان الله ايده ونصره مع اتصافه بهذه الصفات فهو اوهن من كل الوجوه التي مرت . ومتى عهد ان الله يؤيد المرائين المفترين ويمكنهم من التسلط على قلوب العالم عامتهم وخاصتهم لاسيما وهم متعالمون لقب النبوة وواسمون انفسهم بسمي الرسالة وهي أكبر حوادث الوجود الانساني خطارة . اذا ساع لانسان ان يفرض هذا الفرض فقد اتهم عدالة الله تهمة يستوجب عليها التعذير الكبير واساء النظر في النواميس الاجتماعية كل الاساءة ودل على مقدار غفلته عن نظام الكون ونظام الهيئات الاجتماعية . واذا ساع لاحدان يفرض هذا الفرض فقد شك في سائر الديانات لان الخالق ان ايد الباطل لهذه الدرجة فلا يمدان تكون سائر الديانات السابقة باطلة ولكن المعروف من رحمة الله ومن احوال الكون بما لا شبهة معه ان الله عدو المبطلين المفترين وان . لا ثبته والوجود وما فيه اعداء الداء لهم بل ان نظام الكون وما اودع الخالق فيه من علائق . رتبة بين العال والمعلولات وبين الاسباب والمسببات يأتى ان ينجح المبطلون او يفوز المفترون المدلسون . ذلك لان التدليس والافتراء وما شاكلهما صفات . منجحة لا تناسب الا النفوس الساقطة ولا يمكن ان تكون النفوس الساقطة طليمة للانقلابات المرقية بوجه من الوجوه . وقد نقل المسيحيون فيما نقلوه من اقوال عيسى عليه السلام في الانجيل انه لما قال لهم سيظهر بمدى انبياء كذبة فاحذروهم ان بعضهم سأل به أى علامة تميزهم فقال علامتهم ان الله لا يؤيدهم فافولك فيمن ايده الله ونصره واعلى كلمته واظهر دينه على الدين كله

اما فرض انه مع اتصافه بذلك يأتى باعمال تفوق ما عمله المرسلون فعجيب جدا . لانه لو تجاسر انسان وفرض ان الله ربما - اعد المفترين المدلسين فهل بمقل ان يساعدهم حتى يأتوا بما يفوقون به سائر الانبياء والمرسلين ؟ هذا هو التاريخ اما منا ناطق بأن مات محمد أصلى الله عليه وسلم في مدي ثلاث وعشرين سنة من اول رسالته الى يوم وفاته . من هدم الوثنية من جزيرة العرب بأسرها وتأسيس امة حية ركنية الرابطة قامت باجل عمل في العالم مما لم يتسن مثله لاي رسول سابق فهل يتصور ان الله يأخذ بيد المفترين حتى يعاوبهم على الانبياء والمرسلين ؟ متى عهدنا ان الله يملأ شأن الرذيلة ويحط بقدر الفضيلة ؟ بل متى عهدنا ان الله يرفع

التدليس على النبوة؟

اما فرض ان الامة كانت من الغباوة بالمكان الاسفل حتي راج فيها كل هذا التدليس فمن الفروض الساذجة فان التاريخ دلنا على ان رسول الله لبث بين ظهرائي اهل مكة نحو اربعين سنة وهو يدعوهم الى الله فلم يقبل الدعوة منهم الا نفر قليلون وكان الباقيون من تسلط الشك عليهم بحيث يقولون كما حكى الله عنهم (وقالوا ان تؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تقيجرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) وتأتي بالله والملائكة قبيلا. او ترقى في السماء ولن يؤمن لريك حتي تنزل علينا كتابا نقرأه... الآية). وقد كانوا من شدة الشكيمة والبعد عن العقيدة وتمكن الشك من قلوبهم بحيث قال الله عنهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون)

اما الفرض السادس وهو انه مدع وجاء بما جاء به النبيون من الكمالات والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة العبادات فن الفروض التي لا تثبت امام النقد فانه قلب لسنة الكون. اذ كيف يفرض انه، فترثم ينتظر منه الاتيان بشريعة تعدل شريعة ظهرت في الوجود لاشتمالها على اصول العدالة واحتوائها على روح القسط. متى عهدنا القلوب السافلة والنفوس المنحطة مصدرا لاثال الشرائع الكالحة والقوانين الفاضلة التي ترقى الامم وتحفظ كيائها؟

هذه فروض يتضيقها زعم من يتجاسر فيزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس برسول وقد أرينا مكانها من العلم فلم يبق أمامنا الا الفرض الاول وهو أنه رسول رب العالمين، وامام الانبياء والصالحين، وخاتم رسل الله المخلصين، وأنه أرسل رحمة للعالمين، بكتاب من عند الله مبين، سيكون كتاب الناس اجمعين، ولتعالمن نبأه بعد حين

مقاصد القرآن

القرآن وحى المهي نزل به الروح الامين على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيرا وبشيرا. وعقيدتنا مصدر المسامحين انه الكتاب الجامع لاشتات الحكم

ومتفرقات الاصول ، وان فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدمة وانه جاء بالناموس الاعظم لانكمال الحياتين الدنيوية والاخروية ، وانه آخى بين طبيعتي الانسان الجسدية والروحية ، وانه نزل للعالمين اجمعين ، ورعى في مصالحهم على قسطاس مستقيم . وقد ربيت على اسلوب هذا الكتاب امة قبل بضعة عشر قرنا فنالت به في مدى سنين قليلة ما لم يصل اليه غيرها في القرون العديدة وبلغت من بسطتي العلم والملك ما لم يتبها لغيرها في مثل ذلك الزمن القصير الامد .

لا جرم ان كتابا هذا شأنه لا بد من ان يكون راميا الى مقاصد ، ومتوخيا في تعاليمه دستورا ، ولا بد من ان يكون قد وعد واعد ، وبشر وانذر ، ورغب ونهر ، وبنى وهدم ، وقوى ووهن ، ووصل وقطع ، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة ادته الى المكانة التي بلغتها من نفوس الآخذين به قديما وحديثا . فما هو المقصد الاول الذي رمى اليه القرآن ثم ما هي تلك الاصول التي هدمها او بناها ، والامور التي وهنها او قواها ، وما هو ذلك الدستور الذي توخاه للوصول الى ذلك ؟

القرآن كتاب لا كالكتب ، وكذلك قد احدث من التأثير ما لم يحده كتاب . فان نظرت الى نظامه واسلوبه وديباجته فهو نسيج وحده . ليس بالشعر المقتفى ، ولا بالنثر المرسل ، ولا بالسجع المبتذل ، فهو نوع من الكلام لا ضرب له حتى ان القاري يرى الآية القصيرة في الصحيفة الكبيرة فيميزها عن سائر الكلام بديباجتها الخاصة .

وان شارفته من جهة ترتيبه وجدته مخالفا للكتب ايضا . فالمصطلح عليه في امر الكتب ان يكون للكتاب مقدمة ومباحث متسلسلة ذات مقاصد محدودة في فصول معدودة والقرآن الكريم ليس كذلك . فهو آيات مجتمعة ذات مرام متنوعة ومقاصد شتى ، فينماتلو آية وعظ اذا انت باية جهاد تليها آية فقه تتبعها قصة رسول ، وهكذا حتى عد هذا بعض مؤلفي الفرنج مثل (دوزي) الهولاندي و (كارليل) الانجليزي وغيرهما عيا وغاب عنهم ان القرآن ليس بكتاب منشيء او بحث فيلسوف ، فيحسب عليه تعديه لقانون الكتابة البشرية ، وانما هو وحي الهى نزل بحسب الجوادث على صدر رسول لا اثر له في تأليفه ولا دخل لقوته في وضعه . ولو كان هذا الكتاب على مثال الكتب الوضعية في الترتيب والتبويب في

لكان كتابا وضعيا وهو ليس كذلك . ولكن حظه مثل حظ كل كتاب فيطالع مرة او مرتين ثم يسأم بخلاف القرآن فانه قد يطالع مئات من المرات ولا يزال يخلو مع تكراره حتى لا يكاد يسلمه تاليه طرفه عين . ولونهل دوزى وكارليل ومن نحانحوهما من . وثلى الفرنج من فرات اللغة العزبية لعرفوا ان القرآن الكريم كتاب لا كالكاتب فيه كلام لا كالكلام ، لا يستطيع تاليه ان يزعم ان لا ترتيب فيه بل يرى ان الترتيب . هما كان فساطانه قاصر على الكلام البشرى ، يجل عنه هذا الكلام الالهى كما يجل البحر عن ان يحمد بما تحمد به الجداول ، وكما ان كمال البحر فى ان يكون رهوا متلاطم الامواج متقابل النيارات فكذلك هذا الكلام العالى كماله وجماله ان يتنزه عن قبول القيود وان يكون هو محيط ممان عالية تعب عابها وتتراوح اواذها لا تنتهى الى غاية ، ولا تقف عند نهاية ، ان واجهته واجهت اوقيانوسا مغنويا ، لا يشبه كلاما انسانيا ، ولا يشاكل كتابا وضعيا ، يفرق بين المرء واهوائه ، ويجمع بين القلب وشفائه ، ويسرى بين اطواء الفؤاد ، واحشاء السرائر كما تسرى الكهرباء بين ذرات المعادن فيفعل بالنفس فعلا لا يفتى وصفى له عن ان تراه فى نفسك

هذا الكتاب الكريم نهج فى تربية الانسان مناهج يجب تمييزها جملة ثم مشارقتها تفصيلا : فقد خاطب العقل ، وناجى العواطف ، وحاسب السرائر ، وآخذ الضمائر ، وادب الحواس ، وهذب اللبكات ، وعدل القوي ، وقرر العقائد ، ودعمها بما يناسب كلامها من براهين ، وحكى حال العالمين من حيث الدين وارى . مواقع البطلان من معقبات سائرهم ، وقاد الكتائب ودوخ الممالك ، ومصر الامصار وشيد المدينة الفاضلة وسن الشرائع الكاملة ، ووضع دستور الحكومة ، وصب الامة على قلبه المحكم ، ووضع للمعاملات ناه وسمها ، وشرع للبصيرة شرعتها ، وركب للافتدة علاجها ، وخاطب كل نفس على قدر وسمها ، واتى بذلك كله منشورا فى السور على النحو الذى اراده عز وجل بحيث ان بعضه يكمل بعضه الآخر ويوضحه او يرى وجهها آخر منه . وقد عولنا فى هذه الصفائف الموجزة على ان نأثي على مقاصد القرآن واحد بعد الآخر ناهجين نفس الاسلوب الذى نهجه وامرنا بانتهاجه ليتجلى للقارىء كنه المقصد السامى الذى انزل القرآن من اجله فاصابه ، وهو تربية الانسان تربية صحيحة وابرازه امام الوجود بشرا سويا ، حاصل على كمال طبيعته الجسدية

والروحية، متمتعاً بجمال حالته الصورية والمعنوية . وهو لاجل ابلاغ الانسان هذه المسكاة
 العملية عملياً فعلياً لم يتوجه اليها من قبيل النصائح المجردة ، والمواعظ العارية بل حاولها من
 كل مظاهرها العملية بادخال الانسان في مقتضياتها ولوازمها وتوريثه في متعلقاتها واسبابها
 ليندفع الانسان اليها اندفاعاً طبيعياً قسرياً ليكون في كماله الديني سائر اعلى منهاج كماله الجسمي
 اي سوقاً بنوياً ليس طبيعية لا يستطيع ان يتخلص من سلطانها .

معنى هذا الكلام ان القرآن في امره لنا بان تتدين بالدين الحق لم يتركنا عند هذا
 الامر نؤوله كما نشاء . بل علمنا كيف نبحث عنه وهدانا للاعلام التي نستدل بها عليه ، وعين
 لنا القسط الذي نستطيعه . ن ادراكه ، ونصب لنا ميزاناً نزن بها محصول الفكر والنظر في جميع
 ما ذكر . فكشف لنا من اسرار اللاهوت بقدر ما تحتمله فطرتنا ، وبين لنا من وظائف
 الرسل واحوالهم ما هدانا الي حقيقة الدين في ذاته والاسلام بمعناه الخاص . وسرد امام
 اعيننا ما اخترعه الناس وسموه ديناً ، ونقد لنا تلك الكتب الموجودة التي يدعي اصحابها انها
 غير محرفة ووقفنا على ما ادخل اليها مما ليس منها . كلنا على العالم في جملة وما هو . نقاد اليه
 من النواميس الاجتماعية وقسمه لنا على حسب وجهاته الى مسلم وغير مسلم واعطانا على كل
 قسم القسط اللازم للامام به من العلم من جهته . ووضح لنا خلقه الانسان في ذاته وما اودع
 فيه من قوى متعارضة ، وما ركب في طبيعته من عوامل متباينة لترقيه او تدليه ، وكشف
 لنا وجه التوفيق بينها وقيام الانسان منها على حال الاعتدال ، وما يناله بذلك من كمال دونه
 كل كمال . وبين لنا الوجود في ذاته وما ينبغي ان نعرفه من الجهة التي تربطنا به ، وذكر لنا
 الطبيعة ونواميسها ودلنا على ما يجب ان نعلمه عنها من الوجهة التي تمسنا منها تأثيراتها وتأثراتها
 وصور لنا حال الدنيا تصويراً لا يمكن لمن اراد ان يعيش فيها ان ينفك عنه . ورسم لنا
 الحياة بصورتها الصحيحة ودلنا على كنه الروح التي يجب ان تتوجه بها اليها . وخاطبنا على
 المدنية وبين لنا اصولها الثابتة وعرفنا بحقيقتها ، وما يجب ان يكون حظ الانسان منها ، وكلمنا
 على اللذات البدنية وما ينبغي ان يكتب في الانسان به منها وعين القدر الذي يحسن التوفيق
 عنده فيها ، ودلنا على ناموس الارتقاء الذي يبعث العالم الى الامام في المدركات والمكتشفات
 وأرانا ما يجب ان نكون عليه بين يدي ذلك الناموس من استسلام او مقاومة ، وسرد لنا

أصول العادات وبين لنا الحسن والقيح منها ، ثم نهج لنا أصول الشريعة ودعّمها على قواعد الطبيعة بحيث تدور عليها الادوار وهي كما هي لا يتخلل لها نظام ولا يمتريها انقصاص ، وقرر لنا شكل الحكومة التي يجب ان يرضخ لها المسلمون لا قامة . عالم العدل وتشبيد دعائم الامن ، ثم بين لنا ما يجب لدوام نظام الاجتماع من جهاد في سبيل اعلاء كلمة الله واثباته في تحقيق مرضيه وذكر لنا العبادات وما يجب ان نأخذ منها هداية لا نفسنا وعلاجاً لقلوبنا حتى نستقيم على جادة الرحمن ونكون من حزبه قولاً وعملاً ، وشفع ذلك ببيان ما نحن مرتبطون به من العالم الذي وراء هذا العالم ودلنا على ما لانواع العبادات من العمل لتلك الدار وبين وجه علاقتها بها ، وما ينبغي على أعمالنا في هذه الدار من الجزاء العادل في تلك المستقبلية . كشف لنا سبحانه وتعالى كل ذلك في آيات متعددة اوردها على صور شتى وفي قوالب مختلفة مودعاً كل صورة وجهاً من وجوه الحقيقة وجاعلاً في كل قالب رسماً من رسوماتها . كل ذلك في مناسبات تقتضيها ومقتضيات تستدعيها ، ضبطاً لقوى الانسان ، وحيطة لمواهبه ، وابقاء عليه من ان تتشذر مواهبه في اعقاب المطالب وتوزع . مكاته في أذيال الخوائج فيعيش الانسان عمراً مديداً ، لم يمشه رشيداً . ثم ينجلي عن هذه الحياة وقد حمل قدر الاوزار الى عالم القرار .

سنعقد لكل شعبة من شعب هذا الادب الالهي فصلاً نودعه زبدة ما يرمي اليه العلم المصري تتبعه بما قرره فيه الكلام الالهي مع الدلالة على أسرار تلك الاصول وابواب تلك المفاهيم لتجلى للقاريء ماهية وظيفه هذا القرآن والغرض الذي أنزله الله من أجله ، وما ينبغي على العمل بما فيه من كمال للانسان وحياته له ليكون هذا العمل بمثابة دليل يستدل به على اغراض القرآن الاولى ومرامييه الرئيسية

كيف نبحت عن الحقائق

على الاسلوب القرآني

الانسان من هذا العالم المدهش في بحر من مجاهيل لا ساحل له . وقد دفع اليه ضعيفا قاصراً وحكم عليه بان يعيش فيه بل بان يستغديه فاحتاج للعلم بما يتعاق به منه ، والعلم لا يسمى علماً الا اذا كان حقاً ، فاضطر الانسان بحكم فطرته ان يبحث عن الحقائق التي تمس حياته

الجسدية أولا ليتمكن من حفظ شخصه . فلما أمن على جثمانه وتيقظت فيه قواه الروحية رأى ان محض الظمأينة على جثمانه من عوادي الجوع والجو ليس بشيء امام ما يهدده من عوادي الهرم والشيخوخة والموت فاختار يبعث عما عسى ان يكون له بعد الموت من حياة وعدم فاداه ذلك الى البحث عن خالقه وصانعه وأوصله ذلك الى كل ما يسمى عند أهل المال دينامن البحث عن صفات الخالق والرسل والوحي والفضائل والرياضات النفسية الخ وهو يرى نفسه في حاجة كبيرة الى ادراك وجه الحقيقة من كل ذلك . فوالى البحث واعمل الفكر فاختلعت الاحزاب وتفرقت المذلل لان لكل أمة سرايم ترمي اليها لا تتفق مع ما ترمي اليه جاراتها ولكل طائفة من طوائف الأمة مصالح توحى اليها ومآتها ، فقويت طوائف الرؤساء الدينين ووسموا انفسهم بحفظة الحقائق وورثه المعارف وقام الانسان على هديهم عمرا مديدا من حياته الاجتماعية الطويلة . ولم يزل كذلك حتى جاء دور الفلسفة اليونانية وسادت مذاهب قادتها واحد بعد واحد من سقراط فأفلاطون فأرسطو فأبيقور فذنينون واكمل منهم مقالات واسعارا ودعواها مباحثهم لاستجلاء الحقائق ودام الحال كذلك حتى جاء يروز رئيس الشاكين ومؤسس دولة الادريين فقرر بطلان كل تلك الاصول التي دعم عليها أوثك الفلاسفة مذاهبهم واقام الشك قاعدة لمذهبه . وزعم انه لا يمكن الوصول الى الحقيقة بهذا العقل القاصر ، وان الانسان في حكمه على الاشياء انما يحكم باهوائه ، ولولا ذلك لاتخذ الناس كلهم على حقائق اولية ثابتة . فكان ان سئل عن شيء قرر ما يلمه عنه مبتدئا تقريره بقوله يظهر لي غير جازم بصحة شيء أو بطلانه . واكن هذه الحركة الفلسفية الكبرى ركزت ريجها حين سقطت دولة الشعب اليوناني وعادت الظلمة الاولى للعقول . وزاد تلك الظلمة اغراق الرومانيين في البذخ والترف عقب فتوحاتهم الواسعة فارسل الله تعالى عيسى بالزهد في الدنيا والمهرب من علائقها ليعيد ردفعل اجتماعي في مصلحة الجمعية البشرية التي تجذبها الأمة الرومانية الى طرف اللذات البدنية والعلائق الدنيوية غير حاسبة لما يستتبع ذلك النطرف من هلاك الطبقة المحرومة من المال . فاتبع عيسى عليه الصلاة والسلام نفر معدودون ثم اجتهد خلفاؤه من بعده في نشر درغمان الاضطهادات التي قامت في سبيلهم حتى ساعدهم الجد بان تولى مملكة الرومان الملك كونستنتان الذي تولى بعد عيسى بثلاثة قرون وكان مسيحيا فامر بهدم الهياكل الوثنية واجبار الناس بالسيف

على التنصر فدخل الناس في النصرانية افواجا حاملين معهم عقائدهم الوثنية التي جدوا عليها وكانت ممتزجة بهمجهم فدخل في النصرانية ما ليس منها فانعكست الامور الى اضدادها وحل البذخ محل التقشف والمظنة مكان الاستكانة حتى صار رئيس الكنيسة الذي كان يجب ان يكون كميسى شظفا وزهدا لا يفترق عن الملوك المترفين في المأكل والملبس والمسكن فتشعبت الاحزاب وتوالى المتكلمون في الدين ممن عدوا مبتدعين وابعدوا وقتلوا كالمجرمين وما كان اكثرهم الا من المصلحين المريدين تطهير الدين . فداد الحال ظلما حالكا لا ترى فيه للحقيقة وجها حتى ارسل خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ناهجا للناس في وسط هذا الخلل المرتبك والضلال المشتبك شرعة للبحث عن الحقيقة لا يضل سالكها ولا يهتدى تاركها وجعل لها قسطا حكيما لا يختل توازنه ما دامت الحقائق موجودة .

فظر الانسان على ان يبحث على امرين : امر دينه وأمر دنياه . فهو يبحث في أمر دينه يريد ان يهتدى نفسه لحقيقة روحانية تطمئن اليها . ويبحث في أمر دنياه يود ان يعيش على اكل وجوه المعيشة بالاستفادة من خيرات الوجود وقواه . وقد سمي الاوروبيون اليوم الامر الاول بالفلسفة والامر الثاني بالعلم الطبيعي . وقد سموا الاول فلسفة ولم يسموه بالدين لانهم حكموا على الاديان بانها لا توصل الى حقيقة وانها ليست الاحشوا من افكار المتقدمين قدست تقديسا وهميا لا تفيد اليوم في قيادة النفس المصرية اقل فائدة . ثم قالوا ان الفلسفة يجب ان تكون حسية عملية بمعنى ان كل معقول لا يؤيده الحس يجب ان لا يعد حقيقة بل يلفظ الى عالم الظنون . وقالوا في العلم الطبيعي ان كل نظرية لا تمد من العلم الا اذا اسعفتها التجربة وقواها الاختبار وكان لها اثر في مصلحة الانسان على هذين الاصلين قام الفكر المصري فسقط امامه كل مدركات الاديان المحرفة فان منهاج تلك الاديان في تقرير الحقائق الاولى الاعتماد على قول الرؤساء الدينيين واعتبار آرائهم مقررات لا يجوز التردد في حقيقتها . ومثل هذه الاصول يستحيل حياتها في هذا العصر . فتوهمت الفلسفة المصرية بالنظر لهذه الاصول انها اول . من خلص العالم من اصر التقاليد والظنون ، ولم تدر ان هذا القرآن قد سبقها بثلاثة عشر قرنا في تقرير تلك المبادئ واليك التفصيل :

تقول الفلسفة المصرية : الحق لا يتعدد ولا يتعلق بزمان دون زمان وقال الله تعالى
(وماذا بعد الحق الا الضلال)

تقول الفلسفة المصرية : الحقائق بحر لا ساحل له والانسان لم ينزل منه الا نذرا
يسيرا وقال الله تعالى (وما اوتيتم من العلم الا قليلا)

تقول الفلسفة المصرية : العلم رأس مال الحياة البشرية فيجب على الانسان ان لا
يقصر في طلب العلم وقال الله تعالى (وقل رب زدني علما)

تقول الفلسفة المصرية : ان الانسان خالق قادرا على استخدام الطبيعة في مصاحته
فيجب عليه ان لا يبنى في ذلك لان به ترتبط رفاهيته وراحته وقال الله تعالى (سخر لكم
ما في السموات وما في الارض جميعا منه)

تقول الفلسفة المصرية : العلم قوة لاتماد لها قوة اخرى وسلاح دونه كل سلاح فن
علم وعمل فاز على من لم يعمل سواء علم او لم يعلم وقال الله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون
والذين لا يعلمون)

تقول الفلسفة المصرية : المكتتاب العملي الذي يجب ان يستقي منه الانسان سائر
معلوماته هو كتاب الطبيعة ففيه من آثار العلم الالهي ما يصلح لان يهديننا الى الخائبات بالحس
والمشاهدة على ان الطبيعة مصدر حياة الانسان ومستودع مرافقه العيشية وقل الله تعالى
(قل انظروا ماذا في السموات والارض) و (قل سيروا في الارض فانظروا)

تقول الفلسفة المصرية : ماضى الانسان عن الحقائق وهي قوام حياته ومهب سعادته
الا الاستراحة للخيالات واعطاء الظنون حق الحكم على الاشياء . وقال تعالى (وانك ان
تطمع اكثر من في الارض بضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وإنهم الا يخرصون)
تقول الفلسفة المصرية : ان محصول الفكر والنظر يجب ان يعرض على النقد الدقيق
فما وافق منه الواقع فهو من الحقائق وما جافاها لفظ الى عالم الظنون والاهام . وقال تعالى
(قل هاؤوا برهانكم ان كنتم صادقين) وقال (ولا تقف . اليس لك به علم)

هذه خطة الفلسفة المصرية في البحث عن الحقيقة وفي الاعلام التي يجب على الانسان
ان يهتدى اليها ، وفي ميزان الحكم على محمولات الفكر والنظر ، وقد رأيت ان كل

وذلك قد سبقها القرآن إليه بالنص لا بالإنوِيل ، فلننظر الآن في محصول الفلسفة المصرية
الذي تأدت هي إليه بالجري على أسلوبها هذا في كل بحث من الأبحاث التي تمنى الإنسان
في معاشه ومعاده ثم لنقارنه بما كشفه القرآن لذويه قبل نحو أربعة عشر قرنا فنقول :

﴿ مسألة اللاهوت في نظر القرآن ﴾

مسألة اللاهوت أول أغراض الإنسان الروحية كما أنها أول رأيي الفلسفة العقلية . وقد
وقفت الفلسفة المصرية بأزائها . وقف التحفظ خشية من الارتطام في مثل ما ارتطمت فيه
الفلسفات السابقة من إيراد المقالات الطنانة التي مصدرها الخيال المحض حتى عاش الإنسان
معها عمرا مديدا وهو يعبد الها خياليا قدره بفكره القاصر وحكم عليه بمقله الماقص

تقول الفلسفة المصرية : أن مسألة وجود الخالق هي من المسائل التي لا تحتل كثرة
الأخذ والرد ولا يتسع فيها المجال للتمعق والزرثرة على النحو الذي عاينه أصحاب الملل . لأنه
ليس في المسئلة إلا امر واحد وهوان مجرد الأمل في الكون يضطر الإنسان للاعتقاد بأن
نواميس الخليفة عملت ما عملته مقودة بعقل وحكمة ولا يستطيع العقل مهما جمحت به
الكبرياء أن يدعي أن هذا الكون تنوعت ممالكه وتشكلات عوالمه اتفاقا ومصادفة . هذا كل
ما تسمح به الفلسفة المصرية من العقيدة بالخالق وهو ما يمكن أخذه إجماع الأمم عليه
كافة . وما عدا هذا فهو لدى الفلسفة المصرية من الكلام فيما ليس من وظيفة العقل ولا من
اختصاص النظر ، وهو مدعاة لأحداث التفریق بين الأمم لأن لكل أمة عقلا يخصصها ، فتى
أطلق للعقل حرية البحث في هذه المسئلة الكبيرة وهي ليست من اختصاصه إلا في الحد الذي
ذكرناه أدى ذلك لأن يكون لكل أمة عقيدة خاصة في حق الخالق ويتبع ذلك أن تظهر
الأمم بازاء بعضها العداء بسبب العقائد فتدعي كل منها أن الحق في جانبها دون سواها
وليس الحق إلا لمن وقف بتلك العقيدة عند حدها الطبيعي الذي ذكرناه آنفا ، وهو أخذ
الذي يمكن أخذه إجماع الأمم عليه .

هذا ما نقوله الفلسفة المصرية المعتدلة وقال تعالى (أفى الله شك فاطر السموات
والارض) . (ليس كمثله شيء) . (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما)

قرر الله تعالى أولا أن ليس في وجوده تعالى شك بمجرد النظر إلى السموات والارض وإلى ما فيها

من الاعلام. ثم سد على العقول طريق الخوض فيما لا يعنيه من التطفل على علم ما حجب عنهم
 يقال (ليس كمثله شيء) ثم قرر بالنص انه محيط بهم علما وهم لا يحيطون به علما. اراد بذلك ان
 يقب الانسان عند حده قانعا بما تهديه اليه البديهة من وجود المبدع الحكيم حيا قادرا عليما
 مختارا كما تدل على ذلك مخلوقاته جملة وتفصيلا. اما ما عدا ذلك من المقالات المستفيضة
 فليس من اختصاص العقل ولا من شغل المؤمنين. وكفى بالمومنين شغلا ان يتدبروا في صنائعه
 ومبدعاته ليستدلوا بها على لانهاية حكمته وقدرته الى هنا لا تصادف اثرا من دواعي الفارقة
 بين الامم متمدنها ومتوحشها، اما الخلاف فيأتي بعد ذلك اي بعد تخويل الخيال لنفسه حق
 بناء المقام فيجوس خلال المقولات ويجول في احشاء المكنات ويركب مما يؤثر على اهوائه
 شكلا خاصا. من الدين يطبعه بطابع امته ويورجه بعقبة عشيرته فتصبح الامم وقد تخالفت
 وافترقت. هل تخالفت على الفطرة والحقيقة؟ لا ولكن على محصول عقولها وخيالها فلا
 تزال الامم منشقة مفترقة مادامت راضخة لمحصولات خيالها، ولورجعت للفطرة الاولى
 لاتحدت وتآخت وسيكون ذلك الاتحاد والتآخي يوما من الايام على يد دين الفطرة وهو
 الاسلام كما ستراه (لن تعلمن نبأه بعد حين)

الرسول في نظر القرآن

(بحث تمهيدي في علم ما وراء المادة)

« ان جمعيات المباحث النفسية في لوندرة ونيويورك والمانيا وايطاليا وروسيا مؤلفة من
 طبيعيين وأطباء وكماويين وعمرانيين وفلاسفة والكل مهتمون غاية الاهتمام بهذه المسائل الجذابة
 التي طالما هزأ بها الهازئون . وقد تأسست في باريز نواد مخصصة للمباحث النفسية حصلت
 من علماء النفس الرسميين على مساعدتين مثل دارسو تفال وبوشار وميزير وبويسون
 ومتسكينوف وبيرييه وجيار وسللي برودوم الخ وبذلك فقد أصبح مستقبل هذه المباحث
 بملاحظة هذا القول الكبيرة سائرا على دستور علمي وماؤنا عليه من الخطأ »

جريدة الطان ٢١ يونيو سنة ١٩٠٥

قررنا في بعض كتاباتنا ان العقيدة بالرسول تستلزم حل مسألة ما وراء المادة وقتنا ان مجموع

فما ظهر من الابحاث في جميع فروع ذلك العلم في أوربا يكفي للدلالة على وجود الروح ووجودها في
والملائكة وعالمهم والوحي والنبوة ونحن اليوم متكلمون على موجز تاريخ تلك الفروع العلمية الهامة
ممنوعة لقادتها ليحصل لمطالعنا فكرة عامة على هذه المباحث الهامة للالحاد. وبما يشتملنا زيادة العناية
بهذا الباب ان بعض المجلات المصرية كانت كلما سئلت عنه حقرت من قدره وادعت ان الباحثين
فيه جماعة من «ختلى الشعور والمبارك». وهذه جرأة ينقبض لها صدر العلم وما حدا بامثال تلك
المجلة الى اصدار أمثال هذه الاحكام القاسية بلا محاكمة ولا بحث الا عدم شعورها بالمسؤولية
امام العالم القارىء المصرى فان المصريين لم يصابوا بعد الى تعقب السكاتيين ومطالبهم بنصب
الادلة على ما يكشون

نحن هنا سنلم بتاريخ هائل فروع علم ما وراء المادة التجريبي في جملته ثم ندع
لقارئنا الحكم على مقدار تأثيرها على تقوية الاعتقاد بالروح والخلود والوحي والرسول
الخ فنقول .

كل المعلوم التي سنذكرها كانت معروفة عندكم جميع الامم القديمة وكاوا يمارسونها
في معابدهم تحت صبغة تناسب مداركهم الدينية . وهى الا تموجودة في الهند وفي أكثر بلاد
الشرق الاقصى وانما جهاتها اوربا وحقرت من شأنها في القرن الماضي لانها كانت خارجة من حرب
دينية هائلة وحاملة على الاديان والروحانيات في صدرها غمراً لا تطأ ناره فلما هزأت تلك الزعازع
وشعرت الا فتدة بنقص مطلوبها من الروحانيات جاشت لطلبها فنشأت تلك المعلوم في اوربا ولكن
على شكل راق . وؤسس على الاسلوب العلمى الدقيق . وقد كتب الاستاذ كرومويل فارلى
رئيس مهندسي شركات التلغرافات الانجليزية الى العلامة الانجليزى الطبيعى «تدل» يقول لا :
«انا لندرس الآن ما كان قبل الفى عام الشغل الشاغل للفلاسفة . ولو ترجم رجل من العارفين
باللسانين اليونانى واللاتينى والوافيين على حقيقة المشاهدات الروحية ما كتبه رجال الماضي
لرأينا ان الذى يحصل الآن ليس هو الا طرفاً قديماً من التاريخ يدرسه رجال جرثوث
لدرجة تعلّى مقام أولئك العقلاء الا قدمين لكونهم استطاعوا ان يرتفعوا عن الاوهام الضيقة
التي كانت سائدة في زمانهم ويظهر لنا انهم درسوا هذه المسئلة بتوسع يفوق في اشكاله الكثيرة
المعلوماتنا الحالية فيها»

هذا الانتفاة من قادة العلوم الاوروبية للمباحث الروحانية يمهده الاخلافيون تلافياً لما كان يهدد الجمعيات المتقدمة من الانحلال تحت تأثير العلوم المادية . كتب الفيلسوف الفرنسي شارل فوفتي في كتابه « الوحي الجديد - الحياة » يقول « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الروح صارت منابع الاخلاق مهددة بالنضوب وأحست الجمعية الانسانية من نفسها بأنها قد دخلت في دور الفتن والانحلال الذي يمقبه عادة التلاشي والفاء . ولكن لما أشرقت في الاذهان هذه الفكرة الجديدة (فكرة المباحث الروحانية) وان لم تكن بينة الحدود إلا أن أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد في الافكار »

هذه المباحث لا يعتبرها قادة العلوم في اوروبامثبتة للروح والخلود فقط بل مرقية للعلوم الطبيعية جملة وتفصيلاً وفتحة للمدارك باباً جديداً لزيادة العلم بالوجود . فقد قام العلامة «لودج» الرياضي الانجليزي الشهير في مؤتمر تقدم العلوم الذي انعقد في سنة «١٨٩١» وتلا مقالة كان لها دوى كبير جاء منها مشيراً للمباحث الروحانية : «ان الحد الفاصل بين العالمين المادي والروحاني قد قرب ان ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره . وبهذا فسنصل الى ادراك سام على وحدة الطبيعة . وان الاشياء الممكنة لاحد لها كما ان الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية . وان الذي نعلمه الآن منه لا يساوي شيئاً بالنسبة لما غاب عنا علمه . ولوا اكتفينا بما اكتشفناه الآن واقتنعنا به نكون قد خنا أقدس الواجبات العلمية »

من هنا يتضح للقراء مقام هذه المباحث في نظر العلماء أتينا بها «ولدينا منها مثات» لنُدفع عن علوم ما وراء المادة تلك السمعة السيئة التي ألصقها بها في هذه البلاد بعض كتاب المجلات تسرعاً منهم في الحكم ودفاعاً عن المذاهب المادية التي يشخصونها في هذه الامة . وليعلم قراؤنا أننا انما ننقل اليهم علماً كما هو نافع لتأييد الدين نافع ايضاً لا يقاومهم على حركة العلوم الاوروبية فليس من العقل أن نكون مقلدين اوربا في مادياتها دون سواها . فمن أقبح ما نراه ان يتنادى فحول العلوم في اوربا بان المذاهب المادية قد لاقت حتفها على يد المذاهب الروحانية التجريبية ثم لا تزال نسمع في بلادنا من يعظم من شأن الماديين ومذاهبهم لحد يصورونهم فيه ملوك الافكار وقادة مرابي الافئدة

لنبداً بسرد تاريخ هذه العلوم الروحانية مبتدئين بها في ابسط أشكالها ثم مرتقين بها

«رويدا رويدا الي أرقى مظاهرها معتمدين في كل ذلك على شهادات اكبر علماء القارة المنعدنة»
نمن لا يختلف في فضاءهم اثنان فنقول :

اول ما ظهر من هذه العلوم في اوروبا مسألة السيل المغناطيسي الحيواني الذي
اكتشفه « مسمر » الالماني فانه قرر سنة ١٧٧٥ ان في الانسان سيالا مغناطيسيا لا يعرف
كنهه ينبعث منه بالارادة ويؤثر على الاشياء والاشخاص تأثيرا خاصا وأخبر انه عاجل به
الامراض العصبية فنجح . فلم يلتفت اليه أحد من كبار العلماء بل اكتفوا بتكذيبه رسميا
فثبت هو وتلاميذه حتى ظهر الطبيب الانجليزي «جس برید» سنة « ١٨٤٠ » فبرهن على
امكان معالجة كثير من الامراض بالتنويم المغناطيسى ثم لما والى المشتغلون به البحث فيه
ظهر لهم ان له فوق خصائصه الطبية خصائص روحانية تعد خارقة للمادة لمضادتها للقوانين
الفيزيوجية قال (ج . د ولان) في كتابه (المذهب الروحي امام العلم) : « ان النرشادر المركز
اذا أشعته للمنوم لا يحدث لديه اقل تأثير مع ان هذا المحلول اذا شمه الانسان في الحالة
الاعتيادية سبب له الموت حالا » وروي هذا المؤلف ان الطبيب الشهيرين « مارج »
و« اسكيرول » من مستشفى سلبترير في فرنسا أتيا باربع أوقيات من محلول النوشادر المركز
واشاه للمنوم بضعة دقائق . وتوالية وجربا ذلك جملة سرار فلم يشاهدا أدنى أثر من ألم
أوضحر عنده فشك أحد الاطباء الموجودين في وجود محلول النوشادر المركز فشبهه ونفسه
فمات لوفته .

هذه المشاهدات ليست مقتصرة على عدم الحس بل على امور أخرى هامة كالاخبار
بالمغيبات ورؤية الاشياء البعيدة والنفرذ الى ضمائر الحاضرين والبعيدون مما لا يكاد يعقل
لولا انه من المشاهدات المحسوسة الثابتة بالتواتر العالمى

روى الاستاذ « اكراف » مستشار قيصر روسيا ان امرأة العلامة الانجليزي
« دوسرجان » اعتادت على تنويم امرأة وارسال روحها الى المحل الذي تمينه لها فقالت لها
يوما وهي نائمة « اذهبي الى منزلي الذي كنت اسكنه قديما . فقالت النائمة - قد فعلت
وطرقت الباب بشدة » فقالت امرأة الاستاذ فذهبت بنفسى في اليوم التالى لاتأكد من
صدقها في تلك المسئلة وسألت عما حصل في تلك اللحظة فاجابني السكان بانهم سمعوا طرقا

شديدا على الباب فذهبوا اليه فلم يجدوا احدا
يقول الاستاذ «أكراكوف» عن هذه الحادثة وامثالها انها تثبت بطريقة لا تقبل
الشك بان للروح وجودا متميزا عن المادة .

❦ العقيدة بالرسل ❦

اتضح لقارئنا مما استعرضناه أمامه . من تاريخ علوم ما وراء المادة ومجموع ما حصله العالم
من تلك المشاهدات الروحانية الخارقة للعادة أمر لا يستهان به يوجب على أعصى الناس على
العقائد ان يعترف بوجود العالم الروحاني وشؤنه وكيف لا يعترف بهذه العقيدة وقد اعترف
بها أئمة الشكوك في اوروبا واميركا

مجرد هذا الاعتراف بالعالم الروحاني بصرف النظر عن أن تلك المدهشات الروحية
منسوبة لارواح الموتى او غيرهم يكفي لاعداد الفؤاد لقبول العقيدة بالرسل . فان الرسول
رجل بينه وبين ذلك العالم اتصال على نحو ارق مما يجربه المجربون في اوروبا بما لا يقدر .
ووجه الفرق ظاهر فان الاوروبيين انما يباشرون هذه التجارب باحثين مجريين تقودهم
الشهوة العقلية . فلم يصفوا نفوسا ولم يرضوا قلوبا ولم يجيعوا لهم كبدا مما عليه الانبياء من
السمو الخلقى والرياضات التعبدية فلم يصلوا من الاشراف على العالم الروحاني الا الى ما يناسب
درجتهم الدانية بخلاف المرسلين فانهم قد انكشف لهم هذا العالم باستعداد فطرتهم وبتخصيص
الله تعالى اياهم للرسالة وكانوا مع ذلك على رياضة دائمة وطهارة ملازمة وتوجه بالقلب
لا ينقطع الى من بيده الامر كله . فلا جرم كانوا يشرفون من عالم التقديس على مالا عين
رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وكانوا يتصلون من عمار ذلك العالم على
الارواح العالية والنفوس الزاكية بقدر درجاتهم من الصفاء النبوى

هذه العلوم الروحانية كانت نتيجةها في اوروبا ارجاع العقيدة بالرسل بعد ان زالت من
اوروبا بتأثير التعاليم الاوروبية . وهذا فيكتور هو جو شاعر الفلاسفة المعصرين الذي
كان يعتقد بمذهب استحضر الارواح قال في بعض كتبه كما نقلته عنه المجلة الروحية
الفرنسية في مجلد سنة (١٩٠٣) م «ان الفطرة المودعة في صميم الانسان بوجود الله تعالى
أتت اليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله جل جلاله) أما الديانة اليهودية

والصائبة والبوذية والمعددة والمأنوية والمحمدية والمسيحية فهي من نور القمر لان موسى وبوذا وزردشت واروفيه وكونفوشيوش وماني ومحمد وعيسى هم انواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويكسونه على من دونهم من العالمين فالديانات التي هي اقدار الشمس الالهية وظيفتها افاضة النور على الانسان في غياب حياته وظلمات بقائه » انتهى

ليست هذه العقيدة برسالة الرسل خاصة بأفراد ومدودين فان عموم الروحانيين اصبحوا يعترفون بها ويعترفون ضمننا برسالة خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم . من ذلك ما نقلته المجلة الروحية في مجلد سنة ١٩٠٣ من ملخص خطبة خطبها فيلسوف الاسبرترزم المفوه (ليون دونيس) في غرفة الزراعة بباريس تكلم الخطيب في اثناء الخطبة على وظيفة رجال القرائح الكبرى في العالم الانساني وعلى مكانتهم في هداية الخلق ثم قالت المجلة : « المسيوليون دونيس استعرض امام سامعيه كبار الوسطاء بين الملائكة والعالَم الادنى وهم من خلد لنا التاريخ اسماءهم وسرد من اولئك الرجال المسيح ومحمدا الخ »

ونقلت المجلة الروحية ذاتها مقالة لامسيو (سنكس) تحت عنوان (محمد) تقتطف منها ما يأتي : « ان الديانة الاسلامية احدثت رقيا كبيرا جدا في العاطفة الدينية في العالم وخلصت العقل الانساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان ذوى الصبغ الدينية المختلفة » الى ان قال : « أما الاسلام في ذاته فهو في نظرنا (على شرط تخليصه من كل التعاليم التي ألصقتها به الشعوب الطفلة ومن كل الشروح الباطلة التي شرحت بها أقوال النبي محمد) أكبر وأعظم ما يدركه الانسان من معنى الدين . وتعاليمه في العلاقات التي يجب أن تكون بين الانسان وخالقه هي أكثر التعاليم انطباقا على نوااميس الطبيعة وقوانين العقل الانساني » الخ

هذه النتائج في اوروبا مما لا يستهان به فان اوروبا هذه كانت قبل قرن من الزمان من اشد اضداد الرسل وأشياءهم . وقد توالى في القرن الماضي والذي قبله كتابات جارحة ضد هذه العقيدة وكثير منها خارج عن حدود الادب فرجوع هذه العقيدة ثانية عجيب جدا وأعجب منه السبب الذي أرجعها وهو علم ما وراء المادة العمل الذي ذكرنا لك طرفا

ومن هنا وأعجب من كل ما مر أن تكون نتيجة ذلك العلم هداية تلك العقول السامية الى
الايان برسول الله صلى الله عليه وسلم

أما كيفية أوتهم الى هذه العقائد فهي انهم لما رأوا من مجموع التجارب الروحية أن
وراء هذه المادة المحسوسة عالما عجيب الشأن بينه وبين الانسان علاقة ما وأن فيه عوالم
مدركة عاقلة مجردة عن المادة الكثيفة لكن هي أرواح الموتى والجن اوعالما آخر - لكن
كيف كانت فان النتيجة واحدة وهي وجود عالم ربحاني فيه ذوات روحانية . مجردة عن
المادة . لما رأوا ذلك راجعوا تاريخ العالم الانساني فرجدوا حوادثه الكبرى مختلطة بحوادث
ما وراء المادة فما من امة الا ولها أساطير وعقائد تقاسمت شؤونها الحيوية ورأوا الكتب السماوية
كافة جماعة تلك العقائد التي من هذا القبيل . معتمدا في الدين فتحققوا من هذه
النظرات انهم كانوا ضالين في دحض الوحي والنبوات والمجرات . قالوا : اذا كان أحد
الناس من ذوي الامانة والحساسة اذا وقع في خدر على حالة خاصة طلع من العالم الروحاني
على المدهشات فكيف ينكر على المرسلين وهم اولئك الافراد الطاهرون المكملون الذين
اعدهم الله بطبيعتهم للرسالة ان يطأوا على ذلك العالم بشكل أرقى بما لا يقدر فيأتوا من العلم
بما يميز على العالمين

هذه النظرية التي جمعوا فيها بين الواقع البعيد والتاريخ الماضي دفنتهم دفعا قويا الى
الاعتراف بنبوات سائر الانبياء ومن ضمنهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وهي نتيجة
كانت غير منتظرة وستحدث من النتائج ما لا يتخيل الآن تخيلا والله في خلقه شؤون
من هنا يرى قارئنا اننا في قولنا ان مجموع هذه الحوادث تؤدي بالانسان الى العقيدة
بالرسل لم نكل لهم القول جزافا وانما أتيناكم به من طريق القياس وهو قياس طبيعي بمبدأ
عن كل ظنة فانه لا يقال ان الاوروبيين كانوا يالين للعقيدة بالرسل فقادتهم هذه الحوادث
الى تلك العقيدة من قريب . بل الذي عرف عن قادتهم في القرون الاخيرة أنهم كانوا
اشد الناس اباة عن قبولها وأبعدهم عن الاعتراف بالوحي والعالم الرباني

اذا تقرر ذلك فقد اصبح الاعتقاد بالرسل والكتب والملائكة والروح والخلود والنبوات
والعقاب الاخرى بين ممابعن الاستدلال عليه في هذا العصر بالحس الذي هو اسلوب

المصريين وبناء عليه فقد قامت من الله الحجة على الناس وتحقق وعدة تعالى في قوله «كتب الله لا تغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز»

هنا يمكن ان يسأل سائل فيقول كيف كان ينكشف للرساين ذلك العالم وكيف كان ينزل الوحي عليهم وما هي الروح وكيف يكون الخلود والثواب والحساب الخ مما يدخل في هذا الباب . فقول كل ذلك لا ندره ولا يدره سوانا الا من طريق الكشف ومن ذاقه بالكشف فلا يستطيع أن يعبر عنه بأوضح مما عبر به الله عنه في كتابه فالمذهب الحق هو الاكتفاء بما ورد في القرآن من تلك الشؤون أما السعي في فهمها بهذا العقل الدنيوي الناقص فهو خروج عن دائرة العلم الانساني وضرب في متاهات الظنون والاهام

الاسلام

ما هو الدين الذي اتحد جميع الرسل على نشره وتخليصه من شوائب ما وضعه الواضعون فيه ، وما شرحه الشارحون له ، عند كل الامم وفي جميع الاجيال ؟ هو الاسلام ؟ هنا يجمل بنا ان نأتي على نص ما كتبناه باللغة الفرنسية مؤتمرا لاديان الذي قيل انه انعقد فيها سنة (١٩٠٦) في موضوع الاسلام فانه أبين لما نقصده من الكلام على الاسلام من كل ما كتبناه عنه واليك تلك المقالة :

لم اجعل غرضي من مقال هذا الا امرأ واحدا اذا فهم حق الفهم كان أشد في جذب الناس الى هذا الدين من كل البراهين المفحمة والمجيج الملمزة ، ذلك الامر هو ان الاسلام ليس بدين جديد جاء لأمة معينة وانما هو الدين الذي اوحاه الله الى جميع رسله فخرقه اتباعهم ثم انزل الى محمد صلى الله عليه وسلم اخيرا لاحداث اصلاح ديني عام لسائر الملل شرقها وغربها بعث الله به رسوله حين تعارف الامم واتصالها ليكون دينها العام الذي عليه يتم اتحادها ويصفو لديه تعارفها . ولذلك جعل قاعدته الايمان بسائر رسل الله من نعرف اسماءهم ومن لا نعرف اسماءهم وبجميع كتب الله بأى لغة كانت كما سيمر بك تفصيلا . فهم هذا الامر الخطير يفيد المسلم وغير المسلم . يفيد المسلم لانه يربه انه تابع لا لدين من ضمن الاديان المنزلة المتعادية ، ولكن للدين الاصلى الجامع لسائر الاديان . فهو بهذا الاعتبار يجد

في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل لانه يرى نفسه رجلا عاما لا خاصا متبعاً ديناً هو في نفسه دين السكل وجامع ارواح السكل في اكمل شكل واجمل حال . فمن كان كذلك فلا يتعامل على الاديان لانه امر بان يؤمن بها كلها وان يكون منها بالمركز الاوسط مكشفاً بما في كتابه من خلائعها ومن أدرك من الناس مقامه في هذا المركز الاوسط العام وشمرانه في مجتمع أميال الأمم وفي نقطة نلافى مراميها واتحاد أفتدتها في يوم من الايام فلا يهون على نفسه ان يميل عنه الى نقطة . تتطرفة ولو سيق إليها بقوة قاهرة

اما فائدة غير المسلم من فهم هذا الامر الجلال فهو لانه يسهل عليه المخرج من ورطته والخلاص من شكوكه وشبهه فانه مامن عاقل من عتلاء الملال الاخرى الا وشعر بان أيدي الخرافات قد امتدت الى اصول عقائده فيجد نفسه مضطراً للتأفف منها راجياً اصلاحها على اي حال كان فلو علم ان الاسلام انما جاء بالاصلاح العام لسائر الاديان البشرية لانه دين بمنزل مثل سائرها لكان التفاته اليه يشبه الامر الاضطراري . لانه كلما آله أمر بما يكرهه في دينه وظنه مجرداً عن أعماله نزع الى ذلك الدين الاصلاحى مضطراً لا مختاراً ولا يزال يدفع ويندفع حتى يقع في دائرته

لهذا جعلنا غرضنا من هذه الرسالة هـذا الامر الخطير في أظهر أشكاله تاركين الدلالة على فضائل الاسلام لغيرنا ممن في المؤتمر خوفاً من ان لا يلتفت لهذه النقطة أحد منهم

هذه النقطة التي حاولت تجليتها في هذه الرسالة هي اظهر ما في القرآن من خصائص الاسلام وهي السبب الاكبر في نهالك الامم على هذا الدين في كل جيل . لان الامم وان لم تدرك هـذا السر علمياً الا انها تحس به وتلمسه في الاسلام فتري فيه صورة عنائدها الصحيحة منقحة خالصة مما يثير الشكوك والشبه فتميل اليها بارواحها وتنقبأ أشد تعصباً لها من أهلها . ولا توجد هذه الخصيصة في اى دين من الاديان لان هذا المركز الوسيط ليس لواحد منها ولم يشرع واحد منها لان يكون ديناً عاماً اقترأها كلها بما طرأ عليها من التعريف على اطراف متناقضة لا محل للتوفيق بينها بوجه من الوجوه مثال ذلك : البوذى لا يهون عليه ان يكون نصرانياً (ولا حكم للنادر) لانه لا محل للصالح بين البوذية والنصرانية

بوجه ١٠. فالنصراني يقول ان عيسى كلمة الله وهو الاقنوم الثاني بعد الآب تجسد وعاش بين الناس وصلب ليفتدي العالم كله من خطيئة ارتكبها آدم في اول الخليقة ، ويمتد البوذي ان الاله فيشنو وهو احد اركان التثليث الهندي قد تجسد مراراً لتخليص العالم من الشرور وقد تجسد اخيراً في بوذا للمرة التاسعة . فكيف يمكن التوفيق بين صاحبي هاتين العقيدتين وبأي مرجح يقبل احدهما عقيدة الآخر ويترك عقيدته التي جسد عليها طول عمره .

ثم لا يمكن ان يكون البوذي يهودياً لان التوراة ، وجهة الخطاب الى بني اسرائيل ورافعة اياهم على سائر الامم وليس في نصوصها ، ايسمح بوضع بوذا الذي يحمله ، مئات الملايين من الاسيويين منذ اكثر من النبي سنة في وضع اجلال واحترام فيعز على البوذي ان يركب في نفسه رأى اسلامه كلهم هذا المركب . ثم لا يستطيع النصراني ان يكون بوذاً ولا يهودياً لعدم وجود محل للصالح في واحد من هذين الدينين بالنسبة له ولكن جميعهم يستطيعون ان يسلّموا بلا حرج لان قاعدة دين الاسلام هي الايمان بسائر الانبياء ومؤسسي الاديان ممن نعلمهم ومن لانعلمهم قال تعالى عن الانبياء (وان من امة الا خلا فيها نذير) وقال تعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) فيرى البوذي ان الاسلام لا ينكر عليه فضل بوذا بصفته مؤسس ديانة كبيرة وفي نصوصه ما يسمح بحسابه من الرسل العظام ، ويرى النصراني ان الاسلام يذكر عيسى بالتبجيل والاحترام ويضعه في مصاف الرسل الكرام وكذلك يرى اليهودي فيما يختص بنوسي عليه السلام . فيسهل على الجميع الاجتماع حول هذا الدين بلا كبير حرج لا سيما ان ادركوا انه جمع العقائد كلها بعد تنقيحها . وجعلها كلها ديناً واحداً لانها كانت كذلك في مبدئها (وماتفرق الذين اتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم)

لهذا السبب تم الكت الامم على الاسلام لرؤيتها فيه صورة عقائدها منقحة . وندرجة من هنا رأينا ان تجلينا هذه النقطة الخطيرة عامياً نظرياً فيفيد المسامحين والباحثين في الاسلام أكثر مما لو كتبنا في فضائله سفيراً كبيراً
قلت في تلك المقالة ما ترجمته بتصرف قابل :

لتمنذر شخصي الى بلاد اليابان للتشرف بالانضمام الى اعضاء هذا المؤتمر المجمل ولحبي الشديد في معاضدة حضرات اعضائه فيما هم بصدد رؤيت ان أبعث بمقال هذا الى حضرة رئيس المؤتمر ليتفضل على ترجمته الى اللغة اليابانية ، وبقراءته على حضرات الاعضاء وجمله موضوعا من المواضيع التي يتناقش فيها المؤتمر فاقول :

ان هناك امراً خطيراً يضع الدين الاسلامي في مستوى يعلو به عن سائر الاديان ، ويستلقت اليه النظرة تلافياً خاصاً ، ويجعله ديناً عامائيل اليه النفوس لا بقوة البرهان ومضاء الحجة وسلامة أصوله من الخلل فقط ، ولكن بقوة النواميس الاجتماعية القائمة للانسانية الى كمالها وتأثير الحركة الفكرية العامة التي تسوقها الى باحات النور والمدنية

هذا الامر الخطير الذي يستلقت الانظار وينبه الغافلين الى هذا الدين هو ان الاسلام كما نص عليه القرآن ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الاولي الذي اوحاه الله الى المرسلين الاولين رحمة للعالمين . قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بنيا بينهم ، ولو لا كلمة سبقت من ربك الى اجل . سمي لفضي بينهم ، وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم في شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا اعمالنا واكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير »

نص الله كما ترى بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرسل ليؤسس ديناً جديداً في امة معينة ولكن ليصلح سائر الاديان مما طرأ عليها بهداية الامم للدين الاصل الذي أرسل الله به سائر المرسلين « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

بناء على ما تقدم فقاعدة الديانة الاسلامية هي قوله تعالى : « وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا . قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آنا بالله وما أنزل

﴿١﴾ والينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى
وما أوتى النبيون (١) من ربهم لا تفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل
ما آمنتم به فقد اعتدوا . وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم .
صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم
ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون »

هذه هي القاعدة التي بنى عليها دين الاسلام وهي ان الاسلام ليس بدين جديد ولكنه
الدين الذي ارسل الله به كل رسول ثم حرقه المحرفون من بعدهم ، وان الديانة الحققة هي
ان يؤمن الانسان بجميع رسل الله من اولهم الى آخرهم لا فرق بين من ارسل لامته
ومن ارسل لغيرها ، وان يؤمن بسائر كتب الله اجمالا مما اوحاه الله الى رسله بأي لغة
كانت وفي اي زمان اوحيت

هذه الديانة العامة فضلا عن انها لا تثير في أية أمة من الامم حب الذات ولا الحقد
ستكون في يوم من الايام الديانة العامة اضطرارا لا اختيارا . لانه لماذا يكون الانسان
يهوديا ولا يكون بوذيا ؟ أو لماذا يكون مسيحيا ولا يكون برهميا ؟ وبأي مرجح يعتمد
الانسان ان موسى كان رسولا من الله الى بني اسرائيل وقد جاء بكتاب مبين ونور عميم
الى أمته ولا يعتمد مثل هذه العقيدة في بوذا وزرادشت وبراهما ومحمد وكل المرسلين الذين
تقدموا هؤلاء وجاؤا الى اممهم بكتب هادية الى الخيرات ونهجوا لهم سبلا موصلة الى
الكمال ؟ هل يعقل ان الله يرسل موسى إماما ورحمة الى بضعة آلاف نفس من بني
اسرائيل ويترك مئات الملايين من الصينيين واليابانيين وسائر الاسيويين والافريقيين
والاستراليين وغيرهم بلا علم ولا هدي ولا كتاب منير ، يهيمون في الظلمات ويعمهمون في
الضلالات بلا رشد ولا رسول كريم ؟ هل يتصور ان الله وهو الخالق المادل المتزه عن
الحبابة والمصانة يوحى حقائق الدين الى بضعة آلاف من الناس ويترك ربوات الملايين في الظلام
البهيم والفساد العميم ؟

(١) اي من نعلمهم ومن لا نعلمهم لان لكل أمة بعث الله رسولا كما قال تعالى « وان من أمة الا

﴿٢﴾ خلا فيما نذير »

كلا ! بل قال تعالى «وازن أمة الا خلا فيها نذير» وقال تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك . من هنا يتضح ان الله أرسل لكل أمة رسولا وكتاباً وجمعهم على دينه قروناً وأحقاباً . وهانحن في زمان أخذت فيه الامم تتعارف لتبادل الافكار والعلوم والمرافق الحيوية ، وأخذت نواميس الحياة تسوقها سوقاً الى وحدة العقائد كما وحدتها في المدركات العامة والعملية . من هنا حدث شعور عام بضرورة وجود دين عام . وكيف يمكن ان يكون للانسانية دين عام وجميع الاديان التي امامنا تكلف تلك الامم بالانخلاع من شخصيتها التي اكتسبتها في عشرات من القرون والتقصص بشخصية جديدة تعادى معها دينها السابق وتكفر بسائر أنبيائها وتمدهم كذابين مزدرين ، وتحتقر جميع مقدسيها وأقدميها . لاجرم ان أمثال هذه الاديان المحرفة لا يستطيع احدها ان يكون ديناً عاماً مطلقاً مادام لم ينظر لمجموع الانسانية كلها بنظر الملم بأحوالها المراعي للحكمة في تكليفها . على ان في محاولة هذه الاديان خلع من يتمسك بها من كل ما كان يعتقده قبلاً ودفنه للكفر بجميع ما كان فيه يعد جوراً وميلاً عن الحق الظاهر . لانه ما الذي يرجع للانسان ان يعتقد بعيسى ويكفر ببوذا مع العلم بأن الاثنين اسساديناً وجاءا باصلاح كبير واتبعهما خلق كثير وكانا سواء في الصلاح والتقوى وحب الانسانية ؟ وما الذي يرجع له ان يحترم الانجيل والقديسين النصارى ويحتقر كل ماله علاقة بديانة بوذا مثلاً ؟

لا شك انه لا مرجح يحمل الانسان لأن يعتقد برسول دون رسول وبكتاب سماوى دون كتاب آخر كونه أمة وأحيائها الا الجور في الحكم والميل مع الورثة والتقليد . فالعدل كل العدل ان يعتقد الانسان بكل رسول أرسله الله للامم مستدلاً على رسالته بآثاره وأعماله وتاريخ حياته ، فيؤمن بجميع رسل الله اجمالاً وبجميع كتبه جملة تاركاً التعصب للذييم والانحصار لاحد المرسلين دون الآخرين ، جاعلاً دينه قوله تعالى «آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون . من ربهم لا تفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون »

هذا هو الدين الحق العادل العام الصالح لان يجمع كافة الشعوب والامم وبؤاخي بينهم و يرضيهم جميعاً وينزع من قلوبهم العداوة والبغضاء والسخائم القديمة الموروثة بسبب

كفر بعضهم بانياء بعض واحتقار بعضهم لكتب بعض

هنا تنجم مشكلة تعوز حلا مقبولا وهي ان جميع الكتب الدينية التي بأيدي الامم معرفة بمبدلة وقد تولاهم رجال بالشروح والتأويلات حتي خرجت بها الاديان عن أصولها وصارت كلها متناقضة تسمح للملحد أن يقول : اذا كانت الاديان كما تزعمون وحيا من الله فلماذا تجدوها متناقضة متماكسة ، فاما انكم حرفتموها عن أصولها واما انكم كذبتهم على الله بنسبتها اليه لانه لا يقال ان الله ينزل على قوم ديننا يعلمهم فيه انه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله منزّه عن الجسم والجسمانيات لا تحيط به الافكار ولا الظنون ، ثم يوحى الى آخرين ديننا يقرر لهم فيه ان له ثلاثة اقانيم وانه ارسل ولده ليفتدي العالمين ، ثم يوحى الى امة اخرى بانه تجسد في جسد فلان وحل في جسم فلان الخ مما لا يمكن التوفيق بينه بأي وجهه من الوجوه

هذه معضلة لا يحلها الا أحد أمرين : اما الاعتقاد بأن هذه الاديان معرفة أو بانها ليست وحيا من الله ولكنها من افكار من وضعها من الاقدمين . أما القول بانها من موضوعات الاقدمين فلا ينهض به دليل لان أولئك الرجال الفضلاء الكاملين الذين دلت حياتهم على فضل وتقوى وزهد وعبادة ، الذين قالوا نحن رسل الله جئنا بدين الله يبعد ان يكونوا من الكاذبين المزورين ، لان التزوير لا يولد فضيلة ولا ينتج كمالا ولا تقوى . (انظر ما قلناه عن محمد صلى الله عليه وسلم) اذن لم يبق امامنا الا الفرض الثاني وهو ان هذه الاديان حرفت عن أصولها وان أصلها كلها واحد

ان وصلنا الى هذا الحد قلنا : ها هو رسول كريم أرسله الله رحمة للعالمين دلنا بتاريخ حياته من أولها الى آخرها في زهده وعبادته وتواضعه وبعده عن زخارف الدنيا على انه واحد من أولئك المرسلين جاءنا يقول عن الله تعالى «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما»

جاء هذا الرسول يقول عن ربه : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين

ما تدعوم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من يذنب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقمضي بينهم وان الذين أتوا الكتاب لفي شك منه مررب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم . الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير »

هذا الرسول الكريم أمرنا بالايمان بجميع الانبياء والمرسلين وبكتب الله اجمعين ، وجعل ذلك قاعدة ديننا وعمدة ايماننا ، ثم أمرنا بالخير كله ونهانا عن الشر كله وعرفنا سبل الكمال وأمانات فينا نزرعة الحق والتمصب الممتدة وشرع لنا . وس الاخلاق ونهج لنا طريق الكمالات . فاي ديانة غير هذه الديانة يمكن اتباعها والعمل بها في هذا العصر الذي كثرت فيه الشكوك على الاديان واصبح فيه علم اللاهوت عدواً لتلك الممالات التي يوردها اصحاب الملل في الله جهلا وتقليداً لفكار السابقين ؟

* *

بعد ما أثرنا الى هذا كله في ، التنا الى مؤتمر الاديان في اليابان اشرنا الى نقط أخرى اشارات موجزة وكلها نقط تستلقت الى الاسلام نظراً خاصاً وتوجه اليه الافئدة توجهها انظاراً واذلك انا قلنا :

(اولاً) الاسلام آخر الاديان الموحدة وهو بهذا الاعتبار اصبح له امتياز على سائر الديانات لان للاخير من كل شي . ميزة ليست لما تقدمه .

(ثانياً) صرح الكتاب بان محمداً رسول الاسلام آخر المرسلين وانه أرسل للناس اجمعين قال تعالى « ما كان محمد أباً أحدهم من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وقال تعالى « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » وهذا ما لم يصرح به كتاب منزل حتى الموجودة بين أيدينا الآن . فقد يؤخذ من كتاب بوذا انه ارسل لاصلاح ديانة البراهمة . وصرح كتاب موسي انه ارسل لبني اسرائيل . وكذلك كتاب عيسى صرح بأنه أرسل الى بني اسرائيل ايضاً . وهذا ايضاً مما يجب ان يستلقت النظار لدين الاسلام ونبي الاسلام ويجعل له ميزة على غيره من الاديان

(ثالثاً) لما كان الاسلام ديناً مباشراً الخالق لربط الشعوب أبيضها واصفرها واحمرها وأسودها بحا الله امتيازات الاجناس والعناصر وقضى على المصبيات ، وقرر مبدأ المساواة العام وصرح بان الانسانية كلها عائلة واحدة ابوها آدم وأمها حواء وأنها ما صارت شعوباً وقبائل للتنازع والتقاتل ولكن للتعارف وتبادل المنافع . قال تعالى مخاطباً النوع الانساني كله « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم »

(رابعاً) كتاب الاسلام لا يقصد بالنصح والارشاد أمة خاصة ولا شعباً معيناً وإنما يخاطب النوع الانساني بأسره لانه دين عام كقوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبيناً » وقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم »

(خامساً) القرآن الكريم فيما يختص بالتشريع والاخلاق وهيئة الاجتماع لا يحتوى الا على أصول اولية وقوانين كلية تاركاً الجزئيات لاجتهاد اهلها يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله . مثال ذلك قد آتانا الله فيما يختص بالشريعة مبدأي العدل المطلق والمساواة فقال تعالى : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » وقال تعالى عن مبدأ المساواة « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » ثم على المسلمين ان يكونوا لانفسهم شريعة عادلة مستمدة من هذين الاصلين وما مثلهما من أصول الاخلاق . من الكتاب والسنة مراعين في تكوين شريعتهم احوال الزمان والمكان والاحتياجات . وقد قام المسلمون الاولون بذلك في القرن الثاني والثالث من الاسلام وما وقفت حركة الاجتهاد الا للضعف الذي طرأ على الامة . على ان باب الاجتهاد مفتوح الى يوم القيامة لمن تتوفر فيه شروطه من العلماء العاملين والائمة المطلقين

(سادساً) التسامح الديني من اصول هذا الدين الحنيف وقد شيده الله على قواعد علمية عالية لا تدع لاحد الدين محلاً في نفس المؤمن . تلك التواعد العلمية هي تعليمه لنا بأن الحكمة الالهية قضت بأن النوع الانساني يكون مختلفاً في عقائده على حسب نقله ونظره .

قال تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك »
 ولذلك خلقهم » وان الانسان لا يستطيع ان يهdy الى مذهبه احدا الا باذن الله حتى ان
 الله قال لنبيه : انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء » وقال تعالى « أفأنت
 تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس
 على قلوب الذين لا يعقلون » وان لا احد له السيطرة على غيره في عقيدته قال تعالى « لست
 عليهم بمسيطر » « لست عليهم بمجبار » « لست عليهم بوكيل » فمتي علم المسلم ان اختلاف
 الاعم في الاديان شيء يريد به الله لحكمة عالية وانه تابع لدرجة العقول والمدارك وان الانسان
 لا يستطيع ان يهdy احدا الا باذن الله وان لا احد بمسيطر على غيره وليس له ان يكره
 احدا على الايمان انمحي اثر الحق الديني من صدره وحات محله رحمة عالية مستمدة من
 الرحمة الالهية فينساق الي معاملة اهل الاديان الاخرى الذين لم يقاتلوه ليخرجوه من دينه
 اودياره واهله بالعدل والقسط كما قال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين
 ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤم (اي تكتوتوا بارين بهم) وتقسطوا اليهم (اي تعدلوا
 معهم) ان الله يحب المفسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من
 دياركم وظاهروا علي اخراجكم ان تولوهم (اي ان تتخذوهم اولياء او احبابا) ومن يتولهم
 فأولئك هم الظالمون . » هذه الآية تمنع المسلمين من ان يتخذوا الذين يقاتلونهم ليخرجوهم
 من دينهم احبابا ولكن لا تأمرهم بان يظلموهم او يسيثوا اليهم ضد العدل بوجه من
 الوجوه قال تعالى « ولا يجرمكم شئ ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى »
 اي ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على ظلمهم بل اعدلوا معهم هو اقرب للتقوى . ووصى
 الله المسلم بالعدل حتي في مواطن القتال فقال تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم
 ولا تمتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

تقول هذا عدل الهى ونور رباني وحكمة عالية افاضها الله على هذه الامة لم تسبق بها
 امة من اأم الارض غابرها وحاضرها ومن كابر فليثبت .

(سابعا) قرر الاسلام حرية الاعتقاد وهو اصل مدنى لم يظهر فى أوروبا الا فى
 القرن الماضي بواسطة الثورة الفرنسية قال تعالى « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن
 * * *

« ومن شاء فليكفر » فكل انسان حر في ان يتخذ لنفسه الدين الذى يختاره بعقله وارادته .

(ثامنا) ليس فى الاسلام هيئة رئاسة دينية يسيدها الحل والعقد فى أصول الدين وفروعه وحمل الناس على اتباع ما تقرره على نحو ما عليه الحال فى الايمان الاخرى (تاسعا) الاسلام هو ان تبرأ الى الله من علمك وحولك وموروثاتك وما علمت وما تخيلت وما املت ، مسلما وجهك اليه ، مجردا روحك له . تاركا العلم وأصوله والفلسفة ومشاكلها والعادات وما أخذها والاديان وتخالقها والامم وتنايذها وأهواءك ومواطنها والوجود وما فيه ثم تتوجه بقلب خاشع وضمير صاف ونفس نقية الى قيوم السموات والارض ، فارا اليه من الاغيار ملتجئا الى جنبه من دعوى الانانية والاستقلال . معصما بحضرة من التلونات البشرية والاحوال ، راغبا اليه ان يوفقك ويهديك لمرشده ومراضيه فى دنياك وأخراك . هذا هو معنى الاسلام الذى قال الله عنه « ومن أحسن ديننا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن » وهو دين سائر الانبياء والمرسلين

هذا هو الدين الذى أرسل الله به سائر الانبياء والمرسلين وقد رأيت انه تطهير للنفس من سائر تقاليدها واوهامها وموروثاتها والفرار الى الله نقيبا خالصا من التقليدات والجمود . وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام (كل مولود يولد على الفطرة وانما ابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه) اى ان كل مولود يولد خالي الذهن من كل عقيدة وراثية ومن التقليد لمذهب من المذاهب ليس فيه أثر للتمصّب لشيء دون شيء وهذه الحالة هي التي يريد بها الله لاهل دينه ليتأهلوا بها لقبول النور وليكيلا يكون بينهم وبين الله حجاب من التقاليد والموروثات الباطلة ومن هنا سمي الاسلام بدين الفطرة وقد امر الله الانسان به فقال (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الذى فطر الناس عليها) اى ان هذه الحالة النقية الخالصة من كل الخرافات والتعصبات هي مبدأ الدين الفطرى الذى فطر الله الناس عليه . ومعنى بقية الحديث المتقدم ان الآباء هم الذين يتولون الطفل الصغير فيجعلونه يهوديا ان كانوا يهودا ونصرانيا ان كانوا نصارى ومجوسيا ان كانوا مجوسا وليس المطاوب ان يكون الانسان يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا ولا مقيدا نفسه بقيد لان الترقى يكسر كل قيد يفك الانسان من كل تقليد بل المراد ان يتقى الانسان نفسه من شوائب التقاليد كلها

على طريقة الاسلام التي مرت بك هنا، ثم يجعل دينه ديناً عاماً شاملاً لدين الانسانية كلها من غير تعصب ولا جود ولا انتصار لرسول دون رسول ولا لكتاب دون كتاب قال تعالى: « وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » اي ان ديننا هو ما قاله ابراهيم « ابنى وجهت وجهي للذى فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين » ثم ارانا الله كيف تتدين بدين الانسانية العام الذى ينمى فيه كل تعصب ويلين معه كل جود ويتآخى الناس عليه اخاء ليس بعده عدا وهو « قولوا آمنا بالله وما انزل اليه وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » هذا هو الاسلام الذى جعله الله دين رسوله وأصفياه ومقدمة لافاضة انوار عالمه عليهم . وهذا هو الاصل الذى نرجو ان يرجع اليه العالم كله لان الفطرة السليمة تتأدى اليه من تلقاء نفسها ويرضاه العقل بمجرد تصوره بلا تردد فالاسلام بهذا المعنى غير قابل للخلاف ولا للتأويل ولا للتعريف فلا يمكن ان تتفرق عليه امة الا اذا خرجت منه الى غيره وزعمت أن ما هي فيه هو الاسلام ظلماً وزوراً

(عاشرا) الاسلام عدو التقليد والجمود والتعصب للورثة قال تعالى « وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال اولو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا انا بما ارسلتم به كافرون »

قضي الاسلام على التقليد والمقلدين وسلبهم العقل والروية، وحكم عليهم بما هم اهل من الاحكام المزرية ونصحهم بالنظر في الكوز وتعرف اسرار الخليفة والطبيعة ليخرجوا من الجمود الذى هم فيه ويفكوا انفسهم من الأسر لرجال مثلهم او لكتب ألفها جهال الاقدمين قال تعالى « قل سيروا في الارض فانظروا » وقال تعالى « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور »

(حادى عشر) جاء الاسلام والناس في اهواء متفرقة وملل متشاكسة وعصبية قوية

فأتبع الرسول افراد يمدون على الاصابع كانوا يخافون ان يتخطفهم الناس حتى قال قائلهم : اترى يحىء علينا حين نعبد الله فيه لا نخشي غيره فانزل الله على رسوله قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بي شياً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » وقد تحقق هذا الوعد الالهى وانتشر ملك الاسلام الى اقصى الارض ثم وعدهم بعد ذلك بان هذا الدين سيظهر فى يوم من الايام على سائر الاديان وسيكون له شأن بين بني الانسان قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد »

هانحن فى انتظار ذلك الوعد وقد بدت بوادره وظهرت اشراطه وجاء العلم فاستل من الصدور السخائم القديمة واغرى الانسان بتلمس الحقيقة ولو من فم اعدى اعدائه. وهذا دين ان لم يدع اليه الداعي تمسسا له دعا اليه حبا فى الانسانية ورحمة بعباد الله لان به وحده تزول احقادهم وتناخى آحادهم وتزول من بينهم تلك التعصبات المذهبية الباطلة وينكسر ذلك الحائل الشيطانى الذى فصل اصحاب الملل وجعلهم اعداء متناذين . هذا هو الحق المبين « ولتعلمن نبأه بعد حين »

الاديان فى نظر القرآن

الاديان كما هى عليه اليوم بكتبها واساطيرها هي مجموع أقوال رؤساء المعبدة لها شرحا على الرحي الالهى او كتبوها بايديهم وزعموا انها وحى من عند الله . . ولو كانت وحيا كما يقولون لاتحدت جميع الاديان فى اصولها وفروعها لأن الى السبل واحد . ولا يعقل انه يوحى الى أمة خلاف ما يوحى الى الاخرى . ومما يدل ان تلك الاديان المتناذرة قد دخلها من التحريف ما فسد بها انك تجد كل أمة اتبعت عوائدها وموروثاتها وطبعت دينها بطايعها وزعمت ان اولياء الله واهل كرامته ممن تدعي انهم حفظة الوجود وحملة الانتقال ومصرفة الاءورم من أهل ملتها دون غيرهم كأن كل العالم لا يبدى بجانبها شيئا يذكر . وكان

الفضيلة والدين خلقا وقفا لها . هذا كله ، من اقطع الادلة على ان كل أمة لاتدين بالاسلام وهو الدين العام الذي رأيت في الفصل المتقدم تصوغ دينها على قالب أهوائها وتفسر كتبها على ما تقتضيه أهوامها . وقد علمت الفلسفة المصرية ذلك كله فقامت تدحضها كلها وتثبت بالادلة تحريف كتبها وتنجي على اهلها سوء حالتها وجمود قاداتها وتتلل بهم الى الخلاص من آصارها واطراح اوزارها والهرب بالنفس والعقل الى عالم الحرية لتنشق النفس نسيم الحياة بمعانيها المختلفة لتستقيم على الجادة المثلى وقد سبق القرآن الحكيم العلم الى نشر هذه الحقائق فقرر ان ايدى الرؤساء قد عبثت باصول الاديان فحرقها وان اقلام المؤولين قد عدت على قواعدها فبدلتها فقال تعالى عنهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله »

فان قال قائل : قد صرح الله عز وجل في القرآن بان القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب ووصفها بأنها انزلت هدى ورحمة ونورا في غير آية . بل دعا الله اهل الكتابين ليعيموا التوراة والانجيل ويسيروا على ما جاء فيهما . فكيف يتفق ان يكونا محرفين مع الامر باقامتهما ووصفهما بان فيهما هدى ونورا ورحمة ؟

نقول ان الله امر اهل هذين الكتابين باقامتهما ويريد بالكتابين الوحي الذي انزل على رسولي موسى وعيسى . اما الكتاب الذي يقول عنه اليهود انه التوراة فليس هو محض الوحي الذي انزل الى موسى لانه اشتمل على ذكر وفاته وذلك يدل على انه كتب بعده وقد اشتمل فيما اشتمل عليه على تاريخ المصريين والبابليين والاشوريين والفنيقيين والكلدانيين فهو ليس بالتوراة التي يعنها الله تعالى وان كان لا يخلو من آيات منها منشورة في اطواء تلك الاقاصيص المختلفة .

وكذلك الكتاب الذي يسميه الله بالانجيل ليس هو الانجيل الاربعة الموجودة بين ايدي النصراني اليوم لان الذي يريد الله تعالى هو الوحي الذي القاه الى عيسى لاترجمة حياته مكتوبة بايدي بعض تلامذته وان كانت تلك الكتب لا يخلو من آيات مما جاء به عيسى من عند الله

فاذا رأيت القرآن يقول انها انزلت رحمة ونورا فقد كانت كذلك ولكنه رجع فحكم

تجزيها في كثير من الآيات وهل تريد دليلاً على أنها محرقة من أن توراة اليهود تخالف
توراة النصارى وانجيل يوحنا يخالف انجيل متى وكلاهما يخالفان الآخرين في أكثر
من موضع؟ وهذا لا ينافي ما جاء من الأمر بأقامتهما فإن ما جاء في أثناء عبارات ذينك
الكتابين من بقايا الوحي يكفي لو اقيم في هداية الآخذين بهما إلى الإسلام والتصديق
بالنبي عليه الصلاة والسلام

أما كون القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتب فهو مجرد اثباته أن الانجيل والتوراة
وسائر ما نزل قبلهما كتب إلهية أوحيت إلى رسله الكرام وإن كانوا حرفوا وخرجوا
عن أصولهم

ولكن هل أمرنا الله بأزاء هذا العلم أن نحقر لهم أديانهم أو نسب كهانهم أو نحكم
عليهم بالمعذاب في الآخرة؟ كلا بل أمرنا الله أن نحسن إليهم وأن نعدل معهم وأن نجادهم
(إذا جادلناهم) بالتي هي أحسن قال تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين
ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظأهروا على إخراجكم أن تبرؤم وتسخطوا إليهم إن الله
يحب المقسطين»

الناس في نظر القرآن

الناس في نظر القرآن ثلاثة أقسام: (١) مسلمون وهم المؤمنون بجميع رسل الله وكتبه
وقائمون من الدين على طريق الفطرة والاعتدال (انظر فصل الإسلام) (٢) وأهل الكتاب
كاليهود والنصارى وهم الذين لهم كتاب سماوى (٣) والمشركون وهم الوثنيون والملحدة من
سائر الأمم. وقد جاء القرآن بأحكام عامة تشمل كل هذه الأقسام، وأحكام خاصة تخص
كل منها على حدة

أما تلك الأحكام العامة فهي أنه تعالى رب العالمين كلهم أى مربيهم ومثوليهم بالتهذيب
والتكميل فهو أن ارسل رسولاً لامة فانما يرسله لأفرادها كافة لا لأسرة دون أسرة. ولا
لبطن دون بطن. وقد خاطب الله الناس كافة طائعتهم وعاصيهم فقال: «يا أيها الناس قد
جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً» وقال تعالى: «قل يا أيها الناس انما بعثتكم

« على أنفسكم » وقال تعالى : « يا أيها الناس ان زلزلة الساعة شيء عظيم » الخ الخ فمن أجاب داعي الله خضع بالكرامة ومهد له أسباب السلامة كائنا من كان ، عبدا او حرا فقيرا او غنيا شريفا او وضيعا . ومن عاصاه وشاقه ابلغ له في الملامة وانذره بالندامة يوم القيامة كائنا من كان كذلك . ومما يدل على شدة عناية المولى بجميع عبادہ على السواء ان اكثر الكلام الالهي موجه الى الكافرين والمعصاة ترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيدا الي غير ذلك من اساليب الاستمالة والتقريب

فالمسلم المطلوب منه التخلق باخلاق الله يجب عليه ان ينهج هذا المنهاج في معاملته للخلق فلا يألوم نصيحة ولا يدخر عنهم موعظة ولا يهصر لهم في التربية والتكميل بالوسائل الممكنة على حسب الاحوال المناسبة قال تعالى « وادع الي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمتهدين » ومن تلك الاحكام العامة (المدل) فان الله شامل لجميع عبادہ في ظلال عدله فلا يظلم احدا لا فرق في ذلك بين مسلم وكافر . فن عمل صالحة للدنيا وجدها فيها ومن عمل صالحة للآخرة وكان مصيبا في الوجهة انتهى اليها وتمتع بثوابها : « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لذلك نرى من الناس من يكفر بالله وهو متمتع بخير الدنيا مغموور في نعيمها ومنهم من هو مؤمن به ولا يكاد يجد قوت يومه ، كل ذلك أثر من آثار المدل الالهي . فان الاول وان كفر في عقيدته فقد أحسن في ادارة أعماله واتقان أسلوبها قائما به الله على قدر اجتهاده . واما الثاني فانه وان آمن بالله حتى وصل الى مرتبة العديقين الا انه أهمل اتقان عمله فلا يجنى من وراء ذلك الا الدم والقافة قال تعالى « وكلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا »

هذا المدل الالهي سار بين الامم في مجموعها كما هو سار بين الاشخاص على انفرادها . فان الامة الكافرة ان جدت واجتهدت ونهجت نهج النظام والاعتدال في اورها وصات من الرفعة والسؤدد الي أعلى مقام ولا يمنعها الله بسبب كفرها ان تسود على امة مؤمنة اذا كانت لا تساويها في النظام لان الله منزعه عن المحاباة قل تعالى للمؤمنين « ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يفعل سوءا يحجز به »

﴿المسلمون في نظر القرآن﴾

المسلمون هم افراد الجماعة الاسلامية اوجب الله عليهم ان يكونوا اخوانا مترحمين متساعدين متعدين ، يألم كل منهم لآلم أخيه وان كان في اقصى مكان من الارض ويفرح لفرحه وان لم تكن بينهما علاقة ، يدا واحدة على الاعداء لا يهدأ لشعب من شعوبهم بال ولا يطيب لهم عيش حتى يأخذوا بيد اخوانهم ان اصابهم حيف او نزلت بهم نازلة ، معتبرين انفسهم ابناء اسرة واحدة وان كانوا متباينين في البلدان واللغات ليس لهم عزوة غير الدين فهو اصلهم الذي اليه يمتزون ، وعزم الذي به يمتزون ، لا يظلمون ولا يظلمون ، ولا يفسدون في الارض ولا يعشون .

الخلاصة ان القرآن يحتم على المسلمين ان يكونوا اخواناً تجمعهم وحدة الدين التي رباطها تقوى الله وتجنب عارمه بدليل قوله تعالى «الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين» لانه لا خير في اتحاد على باطل او في مناصرة على هوى . امرهم بالتواصي بالحق والصبر في مواطن الشدة فوصفهم بانهم «الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»

كتب عليهم ان يكونوا يداً واحدة على من عاداهم وان يتماونوا على كبت من ناواهم ولكن اذا كان مرماهم غرضاً شريفاً او غاية حقة . قال تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» وامرهم الله بعدم العدوان حتى في مواطن الحرب امام اعدى اعدائهم فقال تعالى «ولا تمتدوا ان الله لا يحب المعتدين» «فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين» «ولا يجز منكم شأن قوم (١) على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى»

فيجب ان يكون قوام وحدة المسلمين الكمال المطلق والفضيلة الصحيحة حتى مع اعدى اعدائهم الذين لا يراعون معهم عهداً ولا ذمة . فعليهم ان يهتدوا وعلى الله ان يكلمهم . قال تعالى : «لا يضركم من ضل اذا اهتديتم»

(١) لا تحملك عدوتكم لقوم على ان لا تعدلوا معهم ، اعدلوا هو اقرب للتقوى

وعدهم الله على هذه الخلائق العليا خلافته على الارض والتمكين لهم في الامم واعزاز
الكلمة وحفظ الحوزة فقال تعالى : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من
بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»
كمن الله هذه الأمة بهذه الخلال الكريمة وهياً لها السير على منهاج رسوله صلى الله
عليه وسلم فاستحقت منه هذه الشهادة العليا وهي «كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» وجدير بمن استحق هذه الكرامة ان
يكون علماً يهتدى به غيره وشهيدا على انحراف سواء وقد أيد الله هذه الكرامة لهم بقوله
«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس»

ثم خولهم بعد ذلك حق تأديب العالم وارجاعه عن غيه وكبت الجبارين الذين ادعوا ان
لهم مقاماً فوق مقام العامة وتخليص الامم من آصار التقليد والجمود والعبودية وعسارية
الظلم اينما كان حتى لا يكون هناك دين اعلى كلمة من دين الله قال تعالى : «هو الذي أرسل
رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»

هذا هو المطلوب من كل مسلم وقد توعده الله صدر هذه الامة بانهم ان لم يضطلموا
بهذه الوظيفة السامية وبحسنوا القيام بها استبدلهم بغيرهم ممن يقوون على تحمل هذه الاعباء
الجليلة فقال تعالى «فان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم»

هكذا فهم المسامون الاولون دينهم فنهضوا نهضة رجل واحد يحققون امر الله حتي
كنت تسمع كلمة الاخلاص يقولها الرجل في اقصى بلاد المغرب فيرددوها اخوه باقصى بلاد
المشرق، وبعد العالم ظهور الاسلام حادنا من الحوادث الالهية الكبرى بل عد كل مسلم
نفسه حادنا جللا وعاملا قويا من عوامل القدرة الالهية وردت الى هذا العالم لتؤدي عملا
كبيراً ثم ترجل الى جانب التقديس في الرفيق الاعلى

— ❦ —

❦ الكافرون في نظر القرآن ❦

الكافرون هم الذين لم يقبلوا هدى الله المنزل على خاتم انبيائه محمد صلى الله عليه وسلم.

وهم باذاننا اصناف (١) داخلون في ذمتنا ومحكمون بحكومتنا وهؤلاء

لهم علينا الحماية في المرض والنفس والمال والمعدل امام القضاء قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظهرُوا على اخراجكم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٢) وخارجون عن ذمتنا ولكن بيننا وبينهم عهد فنحن امامهم على الوفاء ما داموا مراعين شروط العهد قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » « واوفوا بالعهد ان العهد كازم هؤلاء » (٣) ومحاربون لنا وهؤلاء نعطيهم السيف مراعين في التنكيل بهم الرحمة وتقوى الله قال تعالى : « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب »

وان وقع في ايدينا اسرى منهم فيوجب علينا القرآن معاملتهم بالحسنى والرفق ومن كان ممن لا يدين بالاسلام من الناس عائشاً معنا في بلد واحد وهم لا تحت ذمتنا ولا مهادنين لنا ولا محاربين فنحن معهم على ما يقتضيه السلام من البر اليهم والمعدل فيهم

ورد في القرآن ما يدل ظاهره على ان الله تعالى يكيد للكافرين ليوقعهم في الضلال، ويستدرجهم باخيرات والبركات، ويفتشم بالاموال والبنين ليلقيهم في العذاب المهيمن، وانه يمدهم في النفي، ويبارك لهم في البغي، ليأخذهم اخذاً وبيلاً، وينكل بهم تنكيلاً، ويذيقهم عذاباً ثقيلاً كقوله تعالى « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » واولى لهم ان كيدى متين.

كل هذه الآيات يدل ظاهرها على ان الله يريد ان يوقع الكفرة في المعاصي ليستقم منهم والله منزّه عن ذلك وعن كل ما يورثهم الجور والمكر، والتحقيق في هذا الموضوع انه ليس المراد بامثال هذه الآيات ما يدل عليه ظاهرها والا لما بالغ لهم في النصيحة ولما كشف للكافرين من عباده ما عده لا عدائه من بلائه، ومن كان الايقاع بمدوء من مراده، لما فاتحه بما عده له من عتاده، والمشاهد ان الله لم يدع في كتابه اسلوباً من اساليب التذكير والموعظة الا اني به في ابلغ عبارة واشدها تأثيراً على النفس. وبناء على هذا فيكون المراد من هذه الآيات تأويل الزواجر بألوان. وثرثرة على النفوس وتنويع المواعظ في اساليب تأخذ باكظام الاهواء، وتدفع الاقعدة الى طريق النجاء، وقد نصح القرآن فيما تصدى اليه ابلغ نجاح فهو اكبر الكتب تأثيراً على النفوس

واشدها اثارة لحوامل الخير في الافئدة وسيكون ذلك صفته المميزة حتى تقوم الساعة

الانسان في نظر القرآن

الانسان اكرم الكائنات على الله، خلقه في احسن تقويم، وتولاه بالالهام والتعليم، وحلاه بالعقل الكريم، والقلب السليم فقال تعالى «انا خلقنا الانسان في احسن تقويم» واعده لشرف خلافته في الارض فقال تعالى (اذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) وهو وان كان مخلوقا من الطين الا انه منح من شرف الروح ما تقصر دونه الخواطر، وتعيان ادراكه المدارك، وناهيك بروح نسبها الله الى نفسه، واسجد لحاملها ملائكته، فقال تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)

بهذه الروح امتاز الانسان عن سائر عوالم الطبيعة وصار عالما وحده، حاصلا على القدرة في استخدام الوجود وتسخيره، وقد امد الله بما يناسب مطامحه من حول وقوة، ووطأ له اكناف الكائنات وذلها له. قال تعالى: «سخر لكم ما في الارض جميعا منه» وليكنه مع هذه المنح كلها ضعيف الجسد تؤلمه السمات، واهن الجلد تستفزه الخطرات، شديد الهلع تستظيره الهواجس. قال تعالى: «وخلق الانسان ضعيفا» ثم هو بين احد امرين: اما ان يمنح الي مادته، ويقف مواهبه على عبادة شهوته، فيكمله الله الى نفسه، ويأسره لبشريته، فتقلب مزاياه سرا، وتنعكس خصائصه وبالا، فيصبح نهما بالمطالب، شرها بالرغائب، حشواها به مطامع، وملء جوانحه حوائج، بيت اسير آماله، ويمسى عابد احلامه، فينسى ربه ويجهله ويتبع ذلك جهله لروحه وجسده لها في دائرة جسمانه، فينقلب حيوانا وليس بحيوان، ويكون امره على اقصى ما يبلغه العجب من التناقض والذبذبة فيتمص صفات متضاربة تجعله في دائرة بوضها وبال على جوهره فما بالك بمجموعها؟ فهو بين يأس لا حيد له، يشوبه امل يقيمه ويقعده، وشح يضرب به المثل، بجانبه اسراف يعرض ماله للخطر، وحب للحياة يستعبده للجن، بازائه اقدام يهجم به على التهلكة، وهو فوق ذلك بطر كفور كنود ساه لاه احق نزع عنيد الخ من الصفات السافلة واجدر بمثل هذا الانسان ان يصم نفسه بانه في احط منازل الخليفة، واذن، مراتب الكائنات قال

تمالي : « ان الانسان كفور » « انه كان ظلوما جهولا » « قتل الانسان ما اكفره »
 اما ان مال لجانب روحه ، والتفت الي سر ذاته ، ونقب عن قرارة انواره وعرف
 جهات قوته وضعفه ، ضمه اخق الي حزبه ، ونصره على الشيطان وجنده ، وادبه من
 قوته وحوله ، بما يجعله مظهرا من مظاهر سلطانه ، وعاملا من عوامل تصريفه . قال تعالى :
 « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » « فان حزب الله هم الغالبون »
 « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون »

الوجود في نظر القرآن

من الاسباب التي ضللت الانسان في مدركاته ، واقتضت ان يصدر علي الكون
 والكائنات احكاما طائشة خفيفة ، جهله بمظمة الوجود ونظامه
 هذا الجهل كما كان سببا في ضلاله في اموره الدنيوية والعلوم الطبيعية ، كان كذلك مدعاة
 لتضليله في احكامه الدينية

نعم ان من زعم بان هذه الكرة الارضية هي العالم اوله وآخره ، وان تلك النجوم
 الزهر ، والكواكب المتلألئة في السماء ما هي الا نقط لماعة اقتضاها نظام الليل واستلزمها
 جمال المنظر وان الارض هي كل شيء في هذا الوجود ، كانت احكامه على دنياه ودينه مناسبة
 لهذه الدرجة من العلم فيضل عن وجوه النفع المادي والادبي على قدرها .
 في هذه الدركة النازلة وقف كل اصحاب الاديان الناكين عن روح القرآن . وهي
 دركة كان فيها العالم كله قبل قرون عديدة ، فجاءت عقائدهم بالخالف والرسل والدين والنفس
 والاخلاق والشرعية مناسبة لها فلما بدا العلم الاوروبي قبل ثلاثة قرون انكر من الناس هذا
 الامر فوقع بين انصار القديم واعضاد الجديد نزاع ، فتمسك الدينيون بنصوص كتبهم واقوال
 شراحه ، وقابلهم العالميون بأساحة العلم وآلاته فانضمت الحكومة الى الاولين لانها كانت
 بيد المستبدن ، فاقوموا باهل العلم قتلوا تمثيلا ، وما زالوا يصاولون العلم والعلماء حتي جاء
 الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

تأيد العلم وعزت انه ساره وتقوضت دعائم الجهل وانهدت اركانه ، وأصبح الانسان

اخوف ما يكون اذا استشرف الوجود بعينه ، او سر على عوالمه بخياله . هنالك يجول به الفكر في مجالات ان لم يتدارك نفسه بالرجى المسرعة منها فجاء من رهبة الكون ما فجأه ففشى عليه . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

الى هذا القدر كبر الوجود في عين اهل العلم وتأدبت امامه نفوسهم فكم يكون مقدار الادب الذي اكتسبوه من وراء ذلك ولاحت آثاره في احكامهم على الخليفة والطبيعة والشريعة والخالق ؟

القرآن من اوله الى اخره يظلم من كبرياء الانسان ويقدح من انف الجبرية فيه ليريه نفسه كما هي ويهديه الى حقيقة ذاته ليتسنى له ان يدفعه الى ما اعده له من مقامات الكمال والرفعة

يعرف قراء القرآن انه مامن مرضع ذكر فيه العلم الا وشفع بما يرى الانسان انه منه في دور الطفولية وان امامه باحات لا تحد بالفكر ولا تدرك بالتخيل قال تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدني علما » « فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » « وكأين من آية في السموات والارض يمررون عليها وهم عنها معرضون » « وما يعلم جنود ربك الا هو »

مجموع هذه الآيات تكسب الانسان فكرة صحيحة على عظمة الوجود وعلى ان قد خبيء عنا اشياء لو كشفت الينا لما احتملتها طبيعتنا . ولوتأملت قوله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة ، الا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لرأيت ان هذا الحديث من العوامل التي كان لها اكبر تأثير على توسيع نطاق عقول المسلمين . لان الانسان متى اعتقد ان هنالك اشياء لم ترها العين ولم تسمعها الاذن ولا خطرت على قلب بشر ، فذلك الانسان يلقى في روعه حكم على الوجود يناسب عظمته فيردعه عن ان يحكم على عوالمه الخفية بمقاييس النافس فيتأدب في اصدار الاحكام عليه وعلى ظواهره . ويقف عند كل مجهول وقوف المعتد بأن فيه مجاهيل لم تخطر على باله

هذا الادب المكتسب من مطالعة القرآن هو الذي سعى العلم الاوربي قرونا في اشرابه في نفوس الناس لانه أصل كبير من أصول الادب النفسى وباعث قوى يسوق

لا انسان للتكلم في العلم وعدم الوقوف منه عند حد . وقد أيد هذا القول حال المسلمين من
تهاونهم على طلب المجهولات وتهاونهم على اكتناه الاسرار . ولو كانوا على قدم اصحاب
الاديان المحرفة الذين يزعمون ان الحقائق محدودة لتركوا كل اهتمام بالمجهولات وقنعوا بما
عندهم وصرفوا كل همهم في فهم كلام متقدميهم كما هو اليوم شأن الذين انحرفوا عن القرآن
وعم يزعمون انهم من أهله

(الدنيا في نظر القرآن)

ما من فيلسوف او شاعر او متأمل في الوجود الا وحقر الدنيا واشتكى منها لتوالي
آفاتها وتتابع حسراتها فلا لذة فيها الا وهي مشوبه بالمر ، ولا راحة الا وهي مصحوبة بتعب
فلم تصف للملك ولا عالم ولا جاهل . ولكن الناس مالكمهم ومملوكهم وعالمهم وجاهلهم ومؤمنهم
وكافرهم وان اتحدوا في هذا الذم الا ان طرائقهم فيها على غاية التناقض ، اتحدوا كلهم في
المقدمة واختلفوا في النتيجة . فمنهم المتكالبون عليها المتفانون في جمع حطامها . فكان ذلك
التكالب مؤديا الى التقاطع والتناوب وتعتمد الشرور التي تزيد دنياهم نقصا وحياتهم تنقيصا . وهو
حال شديد التناقض الواقعون فيه أشد الناس قدحا لانفسهم وعجبا من حالهم . ومن الناس
من عرف للدنيا هذا الحال فانقطع عنها وبذها ولم يعبأ منها الا بما يسد الخلة ويقيم الاود .
ولكن اذا كان القسم الاول شديد التناقض فالثاني مفترط لا يلبث ان يقع تحت سيطرة
القسم الاول لان الدنيا لمن غلب ولا غلب الا بمادة .

جاء الاسلام والناس على هذين المبدأين فاتي الاولين من انواع العبر بما يقتلع حب
الدنيا من انفس المتهورين في حبها ويربهم حقارتها ونقصها بمثل قوله تعالى « وما الحياة
الدنيا الا متاع الزور » « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو » « حتي اذا اخذت الارض
زخرفها وازينت وظن اهلها انا قادرون عليها اتاهها امرنا فاذا هم يبلسون » « واضرب لهم
مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيا تذروه الرياح »
اتي سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات ولكنه شفعا بما يجب على الحي ان يعمل في
الدنيا من سعي وراء الحصول على المادة حتي لا يقع اهل هذا الدين تحت اسر الالم المادية

« فقال تعالى « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وسمى المسال خيرا بما دام المقصود منه طلب الحق فقال تعالى « فان ترك خيرا الوصية » وسماه فضلا فقال تعالى « فانتشروا في الارض وابتنوا من فضل الله » والمال لم يكن خيرا وفضلا من الله الا لانه مكتسب من حل لا مأخوذ بقطع رحم ولا بمنافسة تجر الى خراب.

بهذه الحكمة العالية اشرب القرآن نفوس اهله خصلتين ساميتين اولاهما ترك الدنيا لشاقتها وثانيتهما اخذ ما يقيمون به اود حياتهم منها ويحميهم من الوقوع في اسر عبادها . ولا نرى دينا من الاديان حل هذه المسئلة على هذا النحو وقد ايد المسلمون هذا الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم واسسوا على قاعدته مدنية فاضلة قامت على اعدل صراط الفضيلة حتى قال الله فيهم « كنتم خیر امة اخرجت للناس »

لم يحرم القرآن اللذات البدنية المعدلة المقيسة على قابلية الطبيعة والجسم ، ولم يحجر عليه تناول الطيبات من الرزق قال تعالى « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

بل حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقول الباطل واعتقاده في ذات الله وجميع ما يؤدي الى النقص وفساد المروءة قال تعالى « قل حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » من هنا ترى ان القرآن لم يحجر الانسان عن نيل مدنية ارضية مادية ولكنه ارادها له مدنية كاملة فاضلة مراعي فيها شأن الروح والجسم معا . وقد حصل آباؤنا مدنية لا استطيع ان اقول انها مدنية كاملة كما خطها القرآن ولكنها افضل من مدنية اهل اوربا بما لا يقدر . واني لا اريد بالمدنية الرقي الصناعي بل اريد بها الروح العامة التي تسوق الأمة للحركة في مجالات الحياة وتضطرها بمواهبها الحيوية لسلوك هذه الجادة او تلك من جواد الوجود الانساني وتقيمها من الاخلاق والتزعات على حال من الاحوال

المدنية التي نالها المسلمون الاولون بهذا المعنى كانت افضل بما لا يقدر من مدنية اوربا المادية التي قادتهم الى اهمال حق الروح وصبغت اهلها بصبغة لا تتفق مع مراعي الحياة العالية وقد شهد بهذا فلاسفهم مما تقدم في بعض هذه الفصول

﴿ ناموس الارتقاء في نظر القرآن ﴾

اجمعت الاديان المحرفة على ان الانسان كان افضل مما هو عليه الآن ثم تدلي عن أوجه وسفل شيئاً فشيئاً ، وغالي أتباعها في ذلك حتى عدوا اهل القرون الماضية ارقى منا علما وصنائع ايضاً . وزادوا على ذلك بان العلم في حالة تدل وهبوط لا ترق وصعود . وقد فاجأهم العلم في الثلاثة القرون الاخيرة بصدد هذه المزاعم المسقطة بنفس . صدقوا الى الخضم الاسفل . فثبت العلم للناس ان النوع البشرى آخذ في التقدم والارتقاء ومتدرج في التكمّل والملاء وان ذلك التقدم منه اثر ضرورى لقانون طبيعي عام اسمه (ناموس الترقى) فاحتدمت الحرب بين الطرفين حينئذ انتهت بشيوع هذه الحقيقة الجليلة وصار لا وزن لما يقابلها من النظريات

جاء الاسلام قبل العلم باكثر من الف عام فثبت للناس ناموس الترقى بقوله تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علما » دل بذلك اهله على ان العلم الذى لدى الانسان الآن قليل بجانب ماخبيء له في المستقبل مما يثيره له الطلب ودوام التحصيل وقد دل حال المسامين الاولين بانهم كانوا يفهمون ذلك لما رؤي من تهاقمهم على العلوم والصنائع وسعيهم في ترقيتها والزيادة عليها وتغانيهم في اكتشاف علوم وصنائع بل واقطار جديدة لم تكن موجودة لزمانهم . ولو كانوا يمتقدون ان الانسان آخذ في الهبوط لكان حالهم كحال المتمسكين بالاديان الاخرى المحرفة . ويصعب على امة كالامة العربية ان تتقدم هذا التقدم الباهر في سنين معدودة الا اذا كانت مؤمنة بناموس الترقى .

﴿ الشريعة في نظر القرآن ﴾

اليونانيون والرومانيون والاعجم جاؤا بشرائع قامت عليها امورهم قرونا عديدة وجاء الاسلام بشريعة هي بين دفتي المصحف روحها القسط باخص معانيه « اعدلوا هو اقرب للتمقوى » « اعدلوا ولو على انفسكم »

قرر القرآن اصول الشريعة الكبرى وهى المساواة والعدل والحرية

فأما فى العدل فلا فرق فيه بين مسلم وكافر ولا بين عربى وعجمى ولا بين ابيض واسود

* «اعدلوا ولو على انفسكم»

واما الماواة فقد قرر القرآن من وجه عام ان كل الناس سواء «ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم» اما ما يتمايز فيه الناس عادة من الاخلاق والعقائد والمعلوم والاصول والثروة فهي امتيازات ذاتية لاساطان لها امام العدل الالهي

شرائع الرومان واليونان والحجم قررت عدلا وحقوقا ولكن هو عدل نسبي وحقوق وضعية قابلة للظمن . فقد كانت تميز الاغنياء عن الفقراء والاقوياء عن الضعفاء والعلماء عن الجهلاء في المقوبات المتشابهة .

كان قانون الصحابة هذا القرآن وما صحح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تدون الشريعة المستنبطة الا في القرن الثاني من طريق الاجتهاد وهي المعروفة بالفقه . وكان أولئك المجتهدون في الصدر الاول كثيرين وانما لم يبق منهم الا هؤلاء الاربعة ابو حنيفة ومالك والشافعي واحمد الا لكثرة اتباعهم ووفرة من نقل عنهم على ان واحدا منهم لم يلزم احدا باعتبار رأيه مقدسا بل امره بطلب الدليل ما امكنه لان الدين قد نص على ان كل انسان مسؤول عن نفسه

فقال ابو حنيفة «حرام على من لم يعرف دليلى ان يفتي بكلامي» وكان اذا افتي يقول «هذا رأى ابي حنيفة وهو احسن ما قدرنا عليه فن جاءنا بأحسن منه فهو اولي بالصواب» وكان مالك اذا استنبط حكما قال لاصحابه «انظروا فيه فانه دين وما من احد الا وماخوذ من كلامه ومردود عليه الا صاحب هذه الروضة» يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وقال الشافعي للربيع «ياأبا اسحق لا تقلدنى فى كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فانه دين»

وقال احمد بن حنبل «انظروا فى امر دينكم فان التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عيب للبصيرة»

يتضح للقارىء مما مر كله ان باب الاجتهاد ليس بمغفل وانا لنترجو الله ان ينشأ فينا

من العلماء المطلعين من يعيدون لنا ايام هؤلاء الائمة والله ولى المؤمنين

(الحكومة في نظر القرآن)

شأن القرآن بازاء الحكومة كشأنه بازاء كل الاحوال الانسانية لم يأت عليها الا بقوانين عامة صالحة لان تقوم عليها حكومة عادلة وترك للامة الخيار في الشكل الذي تختاره، وقد انتقل رسول الله الى جوارربه ولم يشر بكلمة عن الشكل الذي يجب ان تكون عليه الحكومة بعده وذلك لحكمة عالية فان لكل زمان وحال عوامل تضطر الامة للخضوع لاشكال من الحكومة تناسبها . وهؤلاء فلاسفة اليونان جعلوا الحكومة جمهورية وبذلوا وسعهم في تأييدها ولكنهم لم يستطيعوا ان يمنعوا انقلابها الى ملكية بعد زمان قليل . وكذلك كان حال الرومانين وغيرهم

فكان من الحكمة ان يكتفي القرآن بالتنويه بالقانون العام الذي يجب ان يكون قاعدة للحكومة العادلة وان يدع لذويه حرية انتخاب الشكل الذي يرونه صالحاً لزمانهم . ذلك القانون العام هو الشورى فقال تعالى « وامرهم شورى بينهم » فكل حكومة لا تقوم على هذا المبدأ الاقدس فهي حكومة مخالفة لسنة القرآن

(الجهاد في نظر القرآن)

التنازع سنة الكائنات الارضية ولولاها لما كمل نظام الوجود وقد تكفل علم العمران ببيان ذلك بالادلة الحاسمة وقال تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » وانت ترى بعينيك ان ارقى الامم هي اكثرها حروباً ، ما يدلك على ان الحياة الراقية لا تتم الا بالتنازع والغلب وما تسمعه من مؤتمرات السلام في مدينة (لاهي) فهو خيال ويقصد به ابطال الحرب بين الاوربيين دون غيرهم من العالمين لاعتبار بعضهم بعضاً اخوة . فمدنية اوربا ان كانت تحرم الحرب فهي انما تحرمها بين ابنائها لا بينهم وبين الشرقيين لانها ترى ان اغتيال الاوربيين لبلاد المسلمين من الحقوق الطبيعية الذي يجب ان تقبلس وتمتزم ويعمل عليها العاملون بالحيلة ودعوي الاصلاح أولاً فان لم تنجح الحيلة عمدوا الى الحرب

من هنا ترى ان الحرب ضرورية للنوع البشرى وان الامة لا تكون امة بل لا تستطيع

ان تعيش الا اذا هاجمت او دافعت لذلك جاء ذكر الحرب في القرآن كثيراً . والمقصود من الحرب عند المسلمين غرض أرقى من الاستعمار وهو تمكين الحق في الارض واعزازه بين الامم

اباحها الاسلام بل اوجبها في بعض الاحوال ولكنه حاطها من القوانين بما لا يوجد مثله في العالم الوضعي . فقرر (اولا) ان تكون لغرض شريف كالدفاع عن الحوزة او عن الدين لا هوى للملك ولا متابعة لاطماع رئيس (ثانيا) ان يكون العدل مع الاعداء حتى في مواطن الطعن من شعار المؤمن فلا يقتل طفلا ولا شيخا ولا مستسما (ثالثا) عدم الاسراف في استثمار الانتصار فلا يجرد المغلوبون من حقوقهم ولا تؤخذ اموالهم غصبا ولا تصادر ديارتهم وعوائدهم ولا يطلب منهم الا الجزية وهي قيمة كما قال العلامة دوزي الهولاندي في كتابه تاريخ الفرق الاسلامية تقل بكثير عما كانت تأخذه حكومات الامم التي غلبها الاسلام

فان قال قائل ان ناموس الارتقاء لا بد من ان يؤدي الانسان في يوم من الايام بما يكشفه له من اسرار العلم الى حالة من المدنية تزول عنها اسباب الحرب فلا توجد الحرب اصلا فهل يبطل اذ ذاك حكم الحرب من القرآن ؟

نقول ان القرآن لم يتكلم عن الحرب الا لا عطاها النظامات المادلة وحياطها بالقوانين الملائمة للكرامة الانسانية شأنه في ذلك كشأنه في سائر المحاولات البشرية التي تساق اليها الامم بحكم نواميس الاجتماع ، فاذا حدث كما يقال ما يستدعي ان تبطل الامم الحروب مضطرة بدواعي الحياة الراقية مددنا ايدينا الى ايدي مسالمتنا تالين عليهم قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، وان ارادوا ان يمدعوك فان حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »

(العبادات في نظر القرآن)

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

يتخذ الذين لا حظ لهم من الاسلام الا التعبد بظاهر الالفاظ آية « وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون » دليلا على صحة طريقتهم في الخمول والكسل والابتعاد عن الجد والعمل .

ونحن هنا لا نحتاج في الدلالة على بطلان مزاعمهم الى صرف الآية عن ظاهرها ولكننا فقط نطرح عليهم سؤالاً واحداً ونأخذ جوابه حجة عليهم فنقول : اليس العبادات هي طاعة الله فيما امر والانهاء عما نهى عنه وزجر ؟ ان قالوا نعم . قلنا وما معنى قوله تعالى : « ولا تأس نصيبك من الدنيا » ؟ يقولون ليس في هذه الآية ما يدل على لزوم الخروج عن حد الحاجة الضرورية من مأكل ومشرب وسكن وملبس . تقول نعم ونحن لا ننصح بالافراط في شيء من ذلك ولكن هل الضروريات الانسانية تقتصر فقط على حفظ الجثمان من العطش ؟ أليس من ضروريات الحياة الانسانية نشر العلوم والفضائل ؟ الامر الذي هو اول فرض من فروض الاسلام . أليس منها تسهيل المواصلات بين البلاد الاسلامية لتوثيق عرى التواصل والتحاب للذين همأوس من اساس الايمان ؟ هل من علو الهمة واباء النفس ان يقتصر الانسان على حفظ شخصه بالتمام كل والملبس تاركاً أمته في أخريات الامم علماً وصناعة وعملاً ؟ ان الله تعالى يقول « وانتم الاعوان » كنتم مؤمنين »

ان الذين يزعمون ان تلك الآية تدل على محض العبادة الجسمية اضالون مضلون اقدم شيطان الكسل عن العمل فظنوا انهم ينجون بعبادتهم من عقوبة تقريبطهم في جنب خصائصهم الفطرية وملكاتهم الملوية التي وأدوها في تراب الحماله .

كتاب الله بجماته وتفصيله يشهد بان الاسلام انزل لسادة الحياتين والاعتدال في مطالب الطبيعتين الانسانيتين فوق وآخى بين حاجات الجثمان والنفس وفي مش قوله تعالى « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » أكبر حجة على صدق هذه الدعوى البسيطة . وعلى هذا فيكون كل مغلب مطالب أحد جوهرية على مطالب الآخر غير متبع الاشقا واحداً من شقى الاسلام ويكون محشوراً في زمرة الذين يبكتهم الله في هذه الآية الكريمة « أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » ؟

لم يبع لنا الاسلام فقط السعى في اصلاح دنيانا بل صرح لنا كتابنا الكريم بان الله سخر لنا كل هذه الطبيعة لنستغل خيراتها ونستخدم قواها ونأخذ منها كل طيباتها على شرط الاعتدال والتوسط (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً . الآية)

هل يليق بالإنسان بعد هذا التصريح البين أن يغمط حق الإسلام في السوق التي السعاسة المادية في هذه الحياة الدنيا؟ ثم هل يليق بأمة يخولها كتابها هذه السلطة الواسعة أن تكون أقل أُمم الأرض استفادة من خيرات الطبيعة؟

رحم الله تلك الأرواح الطاهرة التي تلقت روح هذا الدين من سماء الحكمة الإلهية فتشربتها بلا تأويل فنالت من المعالي الحقيقية ما لو وصفها أمير الشعراء تخيلاً لرأى عباراته دون الحقيقة بمراحل. لم يمس على تلك النفوس الزينة بمض قرن بعد اتعاشها بهذه الروح السماوية حتى رأيناها مدت نفوذها لما نزل المحبوب على أمم كانت أبعد من عقاب الجومنا وأوسع في ميدان الثراء منها مجالا وبلغت من سعة السلطان ما لم تبلغه أمة في هذا المعمور ولا تسلم عما استلزمه ذلك الامتداد الهائل من علوم صناعية واكتشافات علمية ورحل جغرافية وغير ذلك مما جعل عواصم الدول الإسلامية منبعث أشعة النور العلمي والصناعي في آن واحد. إلى هذا يشير العلامة (سديو) المؤرخ بقوله: «إن العرب هم أساتيدنا ومعلمونا» كل هذا الجهد وراء الرفعة الدنيوية كان يمهده آباؤنا الأول عبادة لله تعالى لأنه امر بهما وحث عليها فكان العامل منهم لاقامة الجسور لا يفترق في نظرهم عن المهتمك في تشييد المساجد «إن المؤمن ليؤجر في كل شيء» (الحديث). «فهل من يبلغ غنى انصار الديانة الطبيعية من فلاسفة العالم المتمدن أن الإسلام قد سبقهم بثلاثة عشر قرناً إلى تقرير حقيقة العبادة وأرانا أنها ليست إلا السعى في تحسين حال الإنسان من حيث جثامه ومعناه» ومن جاهد فأبما يجاهد لنفسه إن الله لنفني عن المالمين»

﴿المعجزات في نظر القرآن﴾

ورد في الكتاب الكريم والسنة ذكر معجزات وكرامات كثيرة حصلت على يد أنبيائه ومرسله وصالحه الأمم مثل عدم احراق النار لإبراهيم ومثل انقلاب العصا ثماناً لموسى ومثل احياء عيسى للموتى ومثل نبوع الماء من بين أصابع نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام ومثل آتيان وزير سليمان بعرش بلقيس في مثل لمح البصر ومثل ما ورد عن الخضر في سورة الكهف ومثل اهل الكهف انفسهم إلى غير ذلك مما ورد ذكره في القرآن في مواضع ممتدة

القول الفصل في هذا كاه ان الانسان كما يتسلط بارتقاء قوته العقلية على قوى الكون
 المادية فيحدث من الاختراعات . الا يخطر بالبال فكذلك اذا ارتقت نفسه عن السفاسف
 وصفا قلبه عن غير الله وكان في درجة النبوة او الولاية حصلت على يديه مدهشات خارقة
 للعادة يكاد لا يصدقها رائيها فضلا عن سامعها . ولكن اهل البصيرة الذين لم يستعبدوا الحس
 في ذواته الضيقة يعلمون ان تلك الخوارق صورة من ذلك السلطان الذي وهبه الله للانسان
 على الكون والكائنات وانه متى سلك الانسان لنيل ذلك السلطان طريقته المثلى تأدي اليه
 الا درجة النبوة فانها ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم . اذا انتهى الانسان من الكمال
 الروحاني الى حد اهل القرب والمعرفة وخلصت قواه الروحية من علائق هذا الجسد الكثيف
 انكشف له الكون بقواه وعوالمه ورأى ان روحه في التأثير على مادته اقوي من يده عليها
 ورأى ان حواسه الخمس وحوله الذي كان يفتخر به قبل بلوغ هذه الدرجة لا يساوي شيئا
 بجانب ماله من السلطان بعد خلوص روحه من أسر المادة

هذه امور لا يجافها العلم ولا ينكرها العقل بل يرجعها النظر في احوال الوجود
 فلو أضفت اليها ما كتبناه في الفصل التمهيدى للمقيدة بالرسول ورأيت ان اهل اوربا اليوم
 وقفوا على حصة صالحة من اسرار الروح وتوصلوا الى استحضار قوة عاقلة مدركة من عالم
 ما وراء الطبيعة سموها الروح حصل لك من مجموع ذلك برهان حسي على وجود العالم
 الروحاني وعلى انه بجزر العجائب ومستقر الغرائب وان ما يروى عن الانبياء من المعجزات
 وعن الاولياء من الكرامات بالتواتر العلمي والنقل الصحيح امور حقة لا شية فيها

﴿ النسخ والمنسوخ من القرآن ﴾

النسخ لغة معناه الازالة ونسخ الله آية بآية اي ابطال حكم الاولى بالثانية كما قال تعالى
 « ما ننسخ من آية او ننسخها تأت بخير منها او مثلها » . وقد اتخذ اعداء القرآن هذا النسخ
 من المطاعن عليه واستدلوا به على انه كلام محمد لا كلام الله . قالوا لو كان هذا القرآن كلام
 الله لكان ثابتا لا تتغير احكامه بتغير الاحوال ونحن لرد هذه الشبهة نقول :

انزل الله الدين على الامة العربية لتأخذ بآدابه تفوسها وتروض بتماليمه اقتدتها فتقمص

روحه وتستشعرها فهو دين عملي حيوي . وليس في العالم فلسفة ولا مذهب يلين للانسان في جميع ادواره ويتنزل معه الي سائر اطواره الا هذا الدين .

وهذه امامك الاديان القديمة المحرفة في جميع قارات العالم قد هجرها الناس ووجدوا لا تقسمهم عن ذرا مقبولا في هجرها وهذه المذاهب الاصلاحية في اوروبا كالا اشتراك والفوضي وغيرهما كلها متطرفة لا يمكن العمل بها الا الاسلام فلا يستطيع احد ان يعتذر بعدم امكان العمل به بحجة مناقضة اصوله لمبدأ الحياة او لاحوال لزمان

هذا الدين الاسلامي يراعى الانسان في حالة ضعفه وقوته وجهله وعلمه وحربه وسلامه وغناه وفقره وكماله وتقصه الى آخر ما ينتابه من الاحوال البشرية المتناقضة التي تتغير بتغير الازمنة والامكنة والامزجة فهو الدين العظيم الذي تقتضيه الطبيعة البشرية او هو بلسان الشرع الدين الفطري الذي ينطبق على مطلوب الفطرة . واما كان كل شيء يتغير في الانسان وتنتابه الزيادة والنقصان جمل الله دينه الاخير صالحا لان يتبع الانسان في جميع ادواره لا أهوائه . ولو كان هو ديناً من ضمن الاديان المعروفة وكان في علم الخالق ان نبيا يظهر بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاءت أصول القرآن مقيدة محدودة ولزالت دولته بزوال رسوله واستعد الناس لاستقبال وحى جديد . ولكن شرع الله هذا الدين ليكون دين الانسانية كلها في سائر ادوارها وصرح بان رسول آخر المرسلين فكيف يقرر الله فيه اصولا مقيدة محدودة وقد عرفت ان الانسان لا يتقيد بقيد ولا يدخل ضمن حد وهو من تغير الحال وتلون المزاج على ما لا يحمله ابسط الناس علما ؟

مراعاة لهذه الحالة الطبيعية اقتضت حكمة الخالق جل وعز ان يراعى في تربية الامة العربية حالها من جميع الوجوه فقرر لها أولا احكاما على قدر حاجتها ثم نسخها باحكام اخرى البقى بحالها الذي تحولت اليه وهو خالق تلك الاحوال وسلطها على الانسان ؟

على ان النسخ سنة من سنن العالم الطبيعي ظاهرة في الجمادات والنباتات والحيوانات والانسان نفسه . فترى النوااميس الطبيعية تقتضي ان يكون الهواء مثلاً ساكناً في هذه الساعة ثم يحدث ما يغيرها فتتسخ هذه الحالة بريح تحدثها وامطار ترسبها وصواعق تهبطها الخ . وهذه الحوادث من النسخ في العوالم الحية اظهر منها في عالم الجماد ومما لا شاحة فيه

«ان الانسان اشد جميع الكائنات تغيرا وتحولا ولكل حال حكم كما لا يخفى ، افلا تكون من
حكمة الخالق جل شأنه ان يعدل له الاحكام على حسب قابليته في كل حال من احواله ؟
هذا التبديل والنسخ يصح في جهة ما يتعلق به من احواله الذاتية المتغيرة اما الدين
نفسه فهو ثابت لا يتغير ولا عذر للانسان في استبدال غيره به فانه أبسط ما يتصور
(انظر فصل الاسلام)

تطرف بعض الناظرين من المسلمين فحاولوا اثبات عدم وجود ناسخ ومنسوخ في
القرآن واولوا جميع الآيات الناصية على النسخ مثل قوله تعالى « ما ننسخ من آية او ننسخها
نأت بخير منها او مثابها » وقوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قال الذين
كفروا انما انت مفتري » وقوله تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا »
وعندى ان تأويل هذه الآيات الصريحة وانما لا اجل اثبات عدم وجود ناسخ
ومندوخ في القرآن تفسد ظاهر وقد جرى جمهور الصحابة على وجود الناسخ والمنسوخ
في القرآن وكذلك التابعون والائمة الاربعة وغيرهم ممن تقدمهم وتلاحم ولم يخالف هذا
السواد الاعظم الا نفر يعدون على الاصابع

﴿الولاية والكرامة﴾

الولاية في اللغة القرابة والاعانة والنصر ، والولى القريب والناصر والمعين وقد اطلق
الله لفظ الاولياء على احبابه المقربين لديه في مواطن من القرآن الكريم فقال تعالى «الا
ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون »
فكل مؤمن تقى هو ولى الله بحكم هذه الآية لغة واصطلاحا وقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم « كل مؤمن ولى الله »

ولكن عامة المسلمين يطلقون اليوم لفظة ولى على صنف من الناس تصدر على ايديهم
خوارق العادات وقد اختلف مدلول هذه اللفظة عند كل طبقة من طبقات الناس على حسب
اختلاف المدارك والافهام حتى صارت نطاق على بعض البله والمجانين وقد توسعوا في نسبة
الخوارق الى هؤلاء الاشخاص حتى رفعوها عن المعجزات والناس بتناقل هذه الامور

ولم شديد لا يتفق اكثره مع الحقيقة الشرعية . ونحن . موزون لك مذهب القرآن في
اسطر قليلة عليك :

القرآن اطلق لفظة ولي على كل مؤمن تقى ولم يزد ولم يرد في احاديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما يزيد على هذا المعنى شيئاً جديداً . اما الكرامة التي يكرم الله بها اوليائه
فلا يشترط ان تكون من الامور الخارقة للعادة فان من الكرامة ان يوفقه للطاعات وان
يهديه لاكمالات وان يزيده كل يوم علماً وعملاً وهدى وان يهدي به نفوساً حائرة وافئدة
ضالة . وما يشاهد لدى بعضهم من كشف المغيبات او تخلف بعض الكائنات عن طبائعها في
بعض الاحوال على يديه فذلك من الكرامات ايضاً وهي احوال تلازم بعض المنفرعين للعبادات
والرياضات من اهل الفطر السليمة والنفوس الكريمة . فان الجسد متى انحط سلطانه واسطة
الرياضة اشرق نور الروح وظهرت دولتها ومن كانت روحه اغاب عليه من جسده غلبت
عليه خصائصها وخصائصها الحكيم على المادة ونواميسها فحدث على يد ذلك الصالح امور
خارقة للمادة لا يريد لها وبما تستر من اجلها . وهذا لا ينكره الا من ينكر الروح وسلطانها
وخصائصها ومن كان كذلك فليقرأ فصل ما وراء المادة من هذه المقدمة

هذا ما يقال من امر الولاية والكرامة على مذهب القرآن اما ما وراء ذلك من دفن
الصالحين في مدافن خاصة ورفع القباب عليهم وايقاد السرج بجانب اضرحتهم وترتيب
الخدم لهم ونذر اندور باسمهم وتقريب الفرايين اليهم والاستغاثة في الملمات بهم والتمسح
بمقاصيرهم راءلاء قبورهم ووضع العنائم والبراقع فوقهم فمن اشد مناعي الشرع وهي مما لم
يحدث في الاسلام الا بعد المصدر الاول بقرون عديدة وهو من افظع البدع التي بدل
المسلمون بها اكرم اصول هذا الدين المحفوظ في الكتاب والسنة . وقد بدأت هذه البدعة
في النقص عن المسلمين شيئاً فشيئاً بتأثير الكتابات التي كتبت في هذا الشأن من
اصحاب البصر في الدين ونرجو انه لا يمضي كثير من الزمان حتى لا يكون لهذه البدعة
اثر في نفوس المؤمنين



﴿ الشاعة والتوسل ﴾

(في نظر القرآن)

ذكر الله مسألة الشفاعة في كتابه الكريم مرارا فقال تعالى « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » ردا على قول الكافرين في حق اصنامهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال تعالى تبتيسا للذين يعتمدون على الشفاعة « وكم من ملك في السموات لا تنفى شفاعتهم شيئا » اعتاد الناس من قديم الزمان على الاعتماد على صلحائهم في الشفاعة لهم عند الله فكانوا يستسهلون كل أنواع الاسرافات ارتكائا على هذه العقيدة فقطع الله حجبتهم جميعا بهذه الآية وهي : « ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سواء يجزبه » فاذا كان الله يخاطب الصحابة بقوله ليس امرنا بامانيكم ، فهل بعد هذا المسلم ان يعتمد على امنية او يرتكن على خيال . نعم ورد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع للمذنبين فان صدق هذا الحديث فان يشفع الا لمن يأذن الله له بالشفاعة لهم فمن يستحقون الدفوع على مقتضى العدل الالهي بدليل قوله تعالى « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » وعليه فروح الاسلام الحق هو ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بنته « اعلمي يا فاطمة فاني لا أغنى عنك من الله شيئا » اما التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد فيه حديث الا من طريق الآحاد ولا اثر له هذا الامر في القرآن ولا في السنة المتواترة ولم يرد على السنة الصحابة كما تدل عليه الادعية المأثورة عنهم من طريق صحيح ، وقد الف المؤلفون في القرن الاول كتباً وتفسيرات وكذلك في القرن الثاني فلم نجد لامر التوسل بجاه النبي أثرا في كلامهم . والذي نراه نحن ان الاولى اجتناب الامور المشكوك فيها احتياطا للدين فان الذي يفسد الاديان هو التساهل في اصولها . ونحن ان تركنا التوسل فلم نجح على الدين أدنى جناية لانها ليست بفرض علينا ولا مما يتوقف عليها فرض ولا سنة .

﴿ القضاء والقدر ﴾

(في نظر القرآن)

النظر المجرد في الكون يدلنا على انه قائم على نظام ثابت والبحث السطحي في هذا

بدلنا على ان له قوانين ونواميس تمسكه وتحفظه فلا تحدث في الهواء حركة ولا تسقط من شجرة ورقة الا تبعا لقانون ثابت وفاعل مؤثر . هذا الاثر مشاهد في عوالم الجمادات والنباتات اتم مشاهدة ، وهو في عالم الحيونات اقل ظهورا لما تمتع به من الحس والحركة وهو في العالم الانساني يحتاج لنأمل ونظر فلو قلت للمتوحش ان كل حركة وسكنة فيك تابعة لقانون ثابت شك في قولك ان لم يكن اخذه من طريق الدين بالتسليم

أحمد الدين والعلم الطبيعي على ان الانسان مجبر على افعاله حتى ان احدرؤس الماديين المصر بن بوشنر الالماني قال ان الحرية الانسانية التي اعتبرها الروحيون ، بدأ للاختيار والارادة وهم باطل فان الانسان في ذاته حادث طبيعي يحكموم بالطبيعة التي كونته والمناخ الذي رباه والوسط الذي يقله والجنس الذي نشأ منه والتربية التي غرست فيه من صفه يتصدق الرجل منا مثلاً فان سألته عن السبب الذي حمله على التصديق قال لك ارادتي فان سألته وما الذي حمل ارادتك قال شفقتي فان قلت وما الذي اوجد لك الشفقة دون جارك قال ورثتها عن أبي وجدى او من طبيعة مزاجي . فان سألته ومن الذي اوجد لك هذا المزاج وصور اباك شقيقاً ، قال الله تعالى بما اوجده من عوامل ؛ اذن فقد حكمتما بان الباعث للصدقة في الواقع هو الله . وهكذا تستطيع ان تصعد بسائر أعمالك الى موجدها الاول سبحانه وتعالى

هذا معنى القضاء والقدر وهو معنى قوله تعالى « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » وبعد ان أثبت الله تعالى علمه بالجزئيات قرر في آية أخرى بأن كل الحوادث هو فاعلها فقال تعالى « قل كل من عند الله » وقال تعالى « خلقكم وما تعلمون »

إذا أقرر هذا قال لنا قائل : اذا كانت أعمال الانسان مقدرة عليه تقديرا فكيف يصح ان يماقبه في الآخرة على فعل ليس هو فاعله في الحقيقة

حل هذه المسألة يقتضي ان ندرك كنه علاقة الخالق بالانسان ، وكيفية ترتب

الاحوال في العالم الاخرى على أعمال الانسان في هذا العالم ، وحكمة خلق الشر في الدنيا

وحقيقة النظام الكوني من حيث عوامله وكثافته وغاية كل منها، والخلاصة ان حل هذه المسئلة العويصة يستدعى تمام الالمام بمسائل ليس للانسان منها الا علم سطحي لا يغني عن الكنه شيئاً ولو سمحنا لانفسنا بالخوض في هذه المسئلة مع جهلنا لمقدماتها كننا كالجهايل يرون الترامواي سائراً في الملوّن حركته تمليلاً طفلياً يضحك الماقل ويضل الجاهل فوقفنا أمام هذه المسئلة سببه جهلنا بمقدماتها فاذا انتظرنا حتى يفتح الله علينا بالمقدمات كان كلامنا فيها عن بصيرة وبينة

انا نستطيع ان نذكر في هذا الموضوع كلاماً نتقي به عن أنفسنا امام البسطاء صفة الجهل، ولكننا نعلم ان مامن حل لهذه المسئلة الا وهو قابل للانتقاد والرّد فليجعل كل منا هذه المسئلة مما يسأل الله هدايته الى حله وليتق الله في الطلب وهو يفتح عليه من العلم والطمانينة ما لا يجد بعضه بالجدال والخصومة قال الله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله »

﴿ النعيم والعذاب الاخرويان ﴾

ذكر الله ترغيباً للناس وترهيباً لهم ان الحياة الآخرة دار الحساب والثواب والعقاب من عمل صالحاً في دنياه نال مناه، ومن عمل سيئاً جاوزى على ما قدمت يداه . وقد أطلق الله على دار الثواب لفظ الجنة وعلى دار العقاب لفظ جهنم

الجنة لنة هي الحديقة ذات الشجر وقيل ذات النخل

وتتطابق اصلاً على ما أعده الله للصالحين من عباده في الحياة الآخرة مكافأة لهم على صالح أعمالهم وجميل أثرهم في العالم الارضي وقد وصفها الله بأنها ذات أنهار وأشجار وفواكه ولحوم وأزواج على مثال ما هو موجود في العالم الارضي وان كان أرق منه في النوع والشكل والطعم وقد تكرر ذكرها في الكتاب الشريف على صور شتى فتكلم في ذلك بعض مؤلفي أوروبا ولغطوا فيه واستبعدوه ومال الى أقوالهم بعض مقلديهم من المسلمين واخذوا يؤولون النصوص الجلية زاعمين ان الله اورد ذلك للتأثير على أفكار العرب بما يحبون، اما الجنة فهي روحانية محضة وكذلك البعث بالروح وحدها ليس بالجسد وما أدام الى هذا التأويل الا

استبعاد تكون الاجساد بغير توالد وهو الحاد خفي في شكل اسلام زاق . والتحقيق عندنا في

فهو ان البعث بالجسم والروح معا وان الجنة هي على المثال الذي حكاه الله لنا فيها أشجار وأنهار ولبن وعسل وفواكه ولراقين من أصحاب الارواح العالية نعيم أرقى من هذا كل على حسب درجته . ووجه تحقيقنا البعث بالجسد هو اننا ما عهدنا الانسان انساناً الا بجسد وروح معاً فالذي يميل بنا الى زعم بعثه بروح مجردة على مثال الملائكة غير استبعادنا تكون جسده بدون توالد على النظام العادي ؟ وان لنا مع الذي يستبعد ذلك أقوالا تناسب حاله فان كان مسلماً قلنا له انك تؤمن بأن جبريل كان يظهر أحياناً لرسول الله على صورة دحية الكلبي بجسد يلمس وصوت يسمع فما أنى جبريل عليه السلام بهذا الجسد الا بخاصية أودعها الله روحه يقدر معها على التلبس بالمادة وقما أراد والروح في حقيقتها تشبه أرواح الملائكة متى أراد الله بعثها تجمعت بجسد على المثال الذي رأيته من جبريل وغيره كالملائكة الذين دخلوا على ابراهيم وغيرهم . وان كان غير مسلم قلنا له دونك المشاهدات التي يشاهدها علماء أوروبا في تجسد الارواح تران جسداً يظهر لك من حيث لا ترى ولا تدري بخاصية في تلك الروح المتجسدة تتناول بها ذرات المادة من حيث تشاء فتظهر بها أمامك بشراً سوياً ثم تخلوها أمامك ثانياً وتتركها وترحل الى عالمها فان ثبت ذلك لتلك الارواح (نسبها أرواحاً مع التحفظ) التي يشاهدها علماء أوروبا فما المانع من ان الروح اذا أعيدت للبعث تجمعت في الحال بجسد بخاصية فيها ذاتية ؟

أما وجه تحقيقنا ان الجنة مادية حسية فهو اننا لا نرى وجباً لتأويل الكلام الالهي مع تكرار نصوصه في ذلك فضلاً عن ان فرض جنة روحانية مما لم يألفه الطبع البشري ولم يناسب تركيبه وما دعا اولئك الذين يترنمون بالجنة المعنوية الى التأويل الاستبعادهم وجود الجنة المادية ولو تأملوا لما استبعدوها ولرأوا ان الجنة المادية من أقرب الممكنات . كيف لا تكون من أقرب الممكنات . ونحن على ما يشبهها وكيف يستبعد على من خلق لنا هذه ان يكون قد خالق لنا عالماً على شكلها ولكن بأرقى نظام واكمل أحكام ؟ فلو أنصف اولئك المؤولون لمكسوا الامر واستبعدوا الجنة المعنوية غاية الاستبعاد على انه ليس في الامر الا ما قلناه من ان الداعي الي تأويل أمثال هذه المسائل هو الخاذ كامن في شكل اسلام راق ولو تأملوا بعض التأمل لرأوا ان الحشر بالاجساد هو الحشر المعقول وان المكافات الاخرية

على الشكل المادي هو الامر الذي يمكن ان يقام عليه الدليل وان تضرب له الامثال
 اما جهنم فهي مكان العقاب الاخرى. وقد اختلف المسلمون في أمرها فحمل جمهور
 المسلمين الآيات الواردة فيها على ظاهرها وقالوا انها نار متأججة لها شرر ووقود ودخان الخ
 وان الناس تلقى اليها فلتهمهم وقالت طائفة قليلة من الصوفية والمعتزلة بل هي نار معنوية
 وما ورد فيها من الآيات فهو من قبيل المجاز لا الحقيقة كما هو أسلوب اللغة العربية في
 مواطن الترغيب والترهيب وما شاكلها. ويذهب بعض المعريين من أصحاب البصر في
 الدين الى هذا القول الاخير لمناسبته لمقوله وموافقته لفلسفتهم فانهم يقولون اذا كان من
 المؤكد ان الرجل الذي عاش عمره في هذه الارض غير مفكر الا في شهواته البدنية أو
 اطمائه التجارية والمالية ولم يقدم لنفسه عملاً روحانياً يأنس اليه يوم لا سلطان الا للروح فلا
 جرم يذهب الى العالم الاخرى وليس له رأس مال يفيد مما يناسب أمر ذلك العالم. فيعيش
 فيه كما يعيش من لا رأس مال له في هذا العالم أى فقيراً عاملاً يتعب وينصب طول عمره
 وينفق قواه ومداركه في سبيل تحصيل قوام حياته على أبسط حالة وأدناها وهو معرض
 نفسه للفتح الشمس ووخزها وتفتح الرياح وصرها تارة متوقلاً رؤس الجبال لقطع الصخور
 وجرها وطوراً حافراً الارض لاستخراج معادنها وكنوزها. وهو في كلتا هاتين الحالتين اما
 ان يهوى به الريح الى مكان من سفح الجبل سحقاً أو يثور عليه غاز الجزى وهو في تلك
 المناجم (الجزى غاز مهلك يتصاعد في المناجم) فيحرقه هو والمئات من أمثاله في لحظة
 واحدة كما حدث اخيراً بمناجم كوريير بفرنسا حيث مات في لحظة واحدة أكثر من
 ١١٠٠ نسمة.

ضع هؤلاء العمال النساء أمامك ثم انظر الى أصحاب الثروة الذين يطأون الدمقيس
 والحريز ويتوسدون الفراش الوثير في قصور تناطح السحائب وتسامر الكواكب محاطة
 بالرياض الياقوت والزهور الساطعة. ثم قارن هؤلاء بتلك الطبقة العاملة الناصبة وقل لي ترى
 ماذا ان استطعت المقارنة وقويت على ايمان التأمل؟ الا ترى ان هؤلاء الاشقياء كأنهم
 في جحيم وكان أولئك في نعيم مقيم. ومن هؤلاء وأولئك؟ أولئك أصحاب رؤس الاموال
 والذين دأبوا على ادخار النضار وجمعه بالعلم والاختبار، وهؤلاء هم الذين حرموا أنفسهم من كل

لذلك بجملهم وغبواتهم وتهاونهم في أمرهم .

لو تأملت هذا التأمل ثم علمت ان الدار الآخرة دار لا يناسبها الا الكمال الروحاني والطهر النفساني فاذا انتهى الناس اليها يوما كان منهم من اجتهد في دنياه للكمال الروحاني ودأب ، ومنهم من أهمل ذلك كله ولم يتعاق منه بسبب . أفلا ترى ان الاولين يكونون هنالك في منزلة اصحاب رؤس الاموال في هذه الدار وان الآخرين يكونون بمثابة المحرومين هنا من المال ؟ افلا تستنتج من هذا ايضا ان الاولين سيكونون في نعيم ورخاء وان الآخرين سيكونون في بؤس وشقاء كما هو الحال هنا بين اصحاب رؤس الاموال ومن عدام ؟ ولكن مع هذا الفارق العظيم وهو ان لهذا العالم شؤنا غير شؤن العالم الآخر فتشبهنا هذا هو تشبيه مع الفارق فلا بد من ان النعيم هنالك سيكون على حال تناسب شؤنه وسيكون فيه الشقاء على تلك النسبة كذلك

واذا كنت وانت في هذا العالم الادنى لا تستطيع ان تأتي بعبارة تجمع لك أشخاص النعيم الذي فيه المترفون وأشخاص الشقاء الذي يقاسيه المحرومون الا بقولك هؤلاء في الجنة وأولئك في النار . فما بالك لو اطلعت على العالم الاخرى ورأيت ما يعد لاهل الكمال من مقام السعادة ومعاهد الكرامة وما يهيء لاهل السفالة من منازل الدناءة ودركات النعاسة ؟

هذا فكر بهض المصيرين والمؤمن يجب عليه ان يبرأ الى الله . من كل ظن لا يحققه بعلم يقين عملا بقوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) . والا حوط له ان يمتقد بالثواب والمقاب ويكل تحقيق ذلك الى مولاه فهو ولي الكفاية

﴿ جمع القرآن ﴾

الكتاب الكريم الذي اوحاه الله الى خاتم انبيائه محمد صلى الله عليه وسلم هدى وتورا للعالمين نزل نجوما على حسب الحوادث ثم جمع فكان هو ذلك الكتاب الالهي الذي جملة الله آية خالدة ، يهتدى بسناه المالمون ويمشوا الى ضوئه النائمون وقد وعد بحفظه فلا يناله المحرفون المبدلون فقال تعالى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

بدأ نزول هذا القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ثم توالى حتى تم في ثلاث وعشرين سنة وقيل في عشرين سنة وأول ما نزل منه في غار حراء (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ثم توالى نزوله على حسب الحوادث وكان رسول الله جعل له كتابا يكتبونه منهم الخلفاء الأربعة والزبير وخالد وابن عباس سميد ابن العاص وعلاء ابن الحضرمي وابن كعب وغيرهم كثيرين وكان جبريل يعلم رسول الله أن يضع آية كذا في موضوع كذا على الترتيب الذي عليه آتى السور بترتيب السور فقد قال أكثر المسلمين أنه اجتهد من الصحابة ولا ضير عليك لو قرأته بأي ترتيب شئت. وكان من الصحابة من جمع القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبي بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد بن سميد وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وعمر وعثمان وأبو بكر وعمر بن العاص وعائشة وحفصة وأم سلمة وغيرهم كثيرين ولكن بعض هؤلاء الآخرين اكملوا جمعه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

لما ظهر في الإمامة بعد رسول الله مسيامة الذي ادعى النبوة وقتن كثيرا من العرب أرسل أبو بكر إليه جيشا فقاتله ودحره ولكن مات في تلك الموقعة سبعون من قراء القرآن فقال عمر لابن بكر أخشى أن يستمر القتل بالقراء في سائر مواطن القتال فيذهب من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. فأرسل أبو بكر لزيد بن ثابت وعهد إليه بهذا الأمر فجمع جميع الحفاظ وكل ما كتب من القرآن حتى اجتمع كله في مصحف واحد حفظه أبو بكر عنده ثم عند عمر في حياة أبي بكر ثم أودعه عند حفصة ابنته

ثم لما انتشر المسلمون في الأفاق اختلف الناس في القراءة على حسب اختلاف لغاتهم مثل التابوت كان يقرأها بهم بالبناء وبعضهم بالهاء فاخبروا عثمان بذلك فاستعار مصحف أبي بكر من عند حفصة وكتب منه أربع نسخ وضبطها بلغة قريش دون غيرهم لأن لغات العرب تشعبت واكملها لغة قريش وهي التي نزل بها القرآن. فأرسل إلى كل مصر بمصحف وأمر الناس بأن ينسخوا مصاحفهم منها وأمر بأحراق كل ما خلفها. وكان ذلك سنة ثلاثين من الهجرة.

﴿القرآت﴾ لما نزل القرآن وحفظه الناس في صدورهم كانوا يقرأونه على وجوه

مختلفة بحسب لغاتهم وللعرب لغات متعددة افصحها سبعة وارجحها كلها لغة قريش ورخص للناس ان يقرأوا القرآن بلغاتهم فوق المثلث بين الصحابة في بعض الآيات باختلاف وجوه القراءة فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان هذا القرآن نزل على سبعة احرف. فصارت وجوه القراءة في الامصار مختلفة باختلاف لغاتهم مع اختلاف مأخذهم فأهل البصرة اخذوا القرآن من أبي موسى الأشعري . وأهل الكوفة قرأوه بقراءة عبدالله بن مسعود وأهل دمشق قرأوا بقراءة أبي بن كعب وأهل حمص اخذوا القرآن من المقداد وقرأوا بقرائه وكان كل قطر يدعي انه اهدى سبيلا في قراءته فخشى عثمان هذا الاختلاف فجعل القراءة بلغة قريش دون غيرها . ولكن لم يمحض على امره هذا غير زمن قصير حتى عاد الناس الى ما كانوا عليه من الاختلاف في القراءة يتبع كل قطر قارئاً ويثق به ثم استقر امر الناس على سبع قراءات معينة تواتر نفلها من القراء . واصحاب هذه القراءات هم (نافع بن أبي رؤيم) و (يزيد ابن القعقاع) في المدينة و (عبد الله ابن كثير) في مكة . و (ابو عمرو بن العلاء) و (يعقوب الحضرمي) في البصرة . و (عاصم بن أبي النجود) و (حمزة بن حبيب الزيات) و (علي الكسائي) و (خلف البزاز) في الكوفة وكان يوجد غير هؤلاء من يقرأ قراءات كثيرة المخالفة سميت بالقراءات الشاذة . على ان القراءات السبع قد اصعدت الى عشر وعدت كلها اصولاً للقراءة . وهي كلها جائزة يصلى بها على السواء بخلاف الشاذة

واختلاف القراءات العشر منحصرة في اختلاف الانفاظ في الحروف او في كيفية من تخفيف او تشديد وغيرها كما في قوله تعالى (فاستقما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) قرأها بن ذكوان بتشديد النون على انها للتوكيد ولا ناهية وقرأ غيره بتخفيفها على انها للرفع ولا ناهية . وقرأهم قوله تعالى (لتكون لمن خلفك آية) وابدال بعضهم الفاء بتاف فقرأوها (لتكون لمن خلفك آية) اما القراءة الشاذة فتكون بتغيير ذات الالفاظ في بعض المواطن مما يغير معنى الآية ولا تجوز بها الصلاة . وقد تم ما اردنا ايراده في هذه المقدمة وسننبهها بفهرست عام للقرآن الكريم يستطيع بواسطته الباحث والكتاب ان يجد جميع الآيات القرآنية الواردة في كل موضوع على حدتها . والحمد لله اولاً وآخر آ

والصلى الله وسلم على خاتم انبيائه وعلى كل عبد صالح